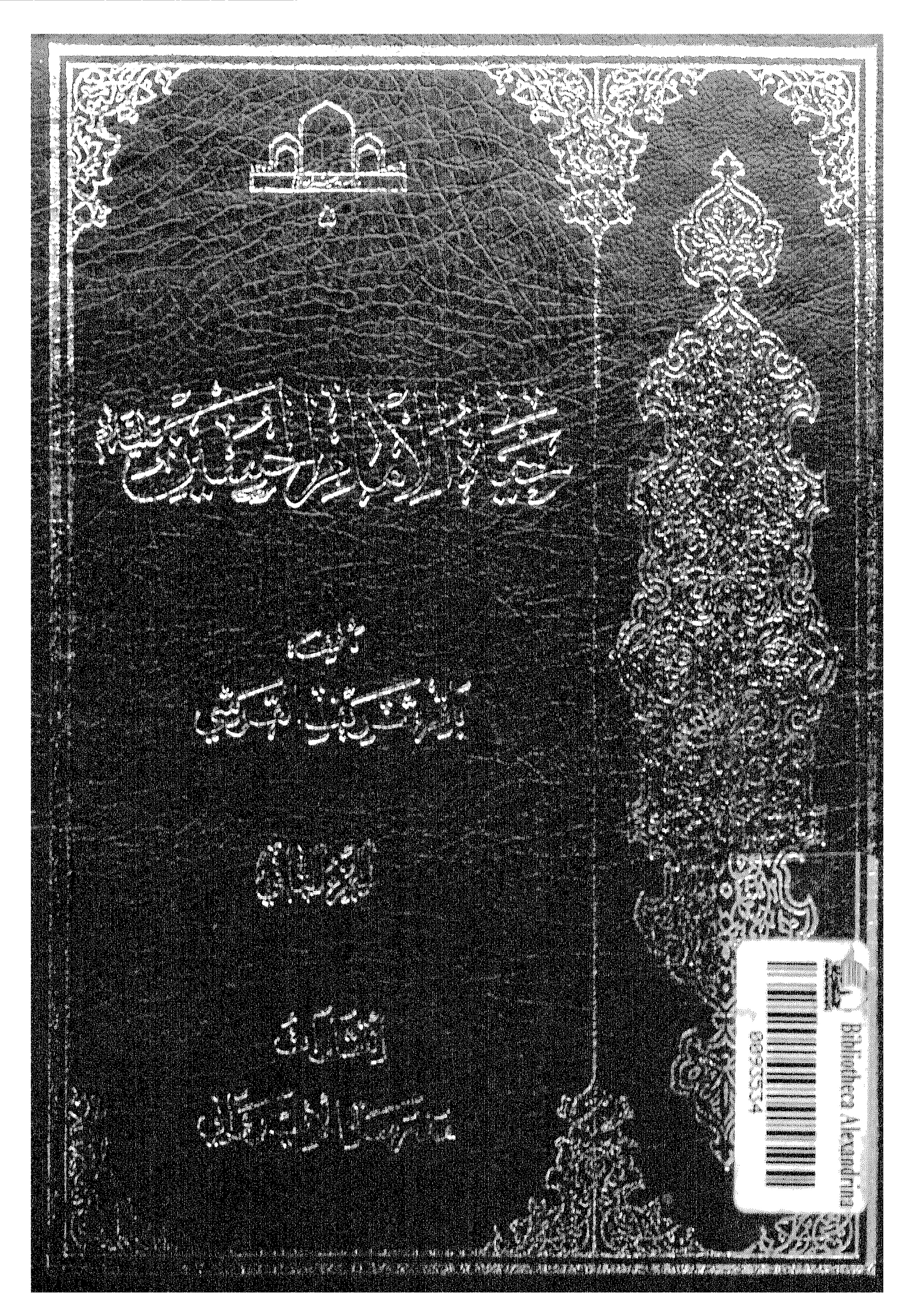








حياة
الإمام الحسين بن علي



باقر شريف القرشي

حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام

دراسة وتحليل

الجزء الثاني

الطبعة الاولى:
١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

الطبعة الثانية:
١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م

الطبعة الثالثة:
١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

الطبعة الرابعة:
١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م

الكتاب:	حياة الامام الحسين بن علي عليه السلام ـ ج ٢
المؤلف:	باقر شريف القرشي
الناشر:	مدرسة العلمية الايرواني
المطبعة:	باقري
الفلم والالواح الحساسة (الزنک):	ليتوگرافي تيزهوش/قم
الكمية:	٢٠٠٠ نسخة
التوزيع:	مؤسسة الامام المجتبى
السعر:	

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ
وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

القرآن الكريم



المقدمة

— ١ —

وأثرت الأحداث الرهيبة التي عاصرها الامام الحسين (ع) تأثيراً هائلاً في تغيير مناهج الحياة الفكرية والاجتماعية في الاسلام ، كما لعبت دورها الخطير على مسرح الحياة السياسية على امتداد التاريخ ، وكان من أبرز نتائج تلك الأحداث التناحر على السلطة ، والتنافس على الحكم ، والصراع على الظفر بخيرات البلاد .

وكان من الطبيعي ان يحدث ذلك الصراع السياسي بأقسى صوره ، وأبشع ألوانـــه ، وان يحتدم الجدال كأشد واعنف ما يكون الجدال فقد سحرت عيون الكثيرين من الصحابة والتابعين ما رؤوه من ألوان الترف، وخفض العيش ورقته ، وما شاهدوه من جلال الملك الذي أزالوه من فارس ، وما احتلوه من بلاد الروم ، وهالتهم الفتوحات التي تقوم بها الجيوش الاسلامية ، وما يفتح الله على أيديهم ، وما يجلبونه من البلاد المحتلة من الرقيق ، وسائر الأموال التي لم يكونوا يحلمون بالنظر اليها ، كل ذلك دفعهم إلى التهالك على السلطة ، وفتنهم عن دينهم .

واستشف الرسول الأعظم (ص) من وراء الغيب ما تبلغه أمته من المجد والسيادة على جميع شعوب الأرض ، وسقوط الدول الكبرى تحت

وطأة الزحف الاسلامي المقدس ، فأذاع ذلك بين المسلمين وآمنوا به كجزء من عقيدتهم ، كما استشف النبي (ص) من وراء الغيب ما تمنى به أمته من الفتنة والفرقة فاحتاط لها كأشد ما يكون الاحتياط فوضع لها رصيداً يحسم كل داء ، ويقضي على كل خلاف فدلل على امامة العترة الطاهرة من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، ولم يكن بذلك مدفوعاً بدافع العاطفة أو الحب فان شأن النبوة أسمى من أن يخضع لأي عامل من عوامل الحب أو غيره من الاعتبارات المادية .

وبلغت أحاديث الرسول (ص) في فضل عترته حد التواتر ، ولم يتطرق إليها الريب والشك عند أحد من المسلمين ، فقد قرنهم بمحكم التنزيل – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – وجعلهم سفن النجاة وأمن العباد ، وأما سيد العترة الامام أمير المؤمنين (ع) فانـه – حسب النصوص النبوية – أخو النبي ونفسه ، وباب مدينة علمه ، واقضى امته ، وانه منه بمنزلة هارون من موسى ، ومن كنت مولاه فهذا علي مولاه ... ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد فتأولوا النصوص وزووا الخلافة عن أهل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، ومهبط الوحي ، وحرموا الأمة من التمتع بظلال حكمهم الهادف إلى نشر عدالة السماء في الأرض .

وأدت عملية الفصل إلى التطاحن الفظيع على كراسي الحكم بين الأسر البارزة في الاسلام ، فمنيت الأمة من جراء ذلك بالكوارث والخطوب التي أحالت الحياة في تلك العصور إلى جحيم لا يطاق ، فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد بين الناس .

— ٢ —

وظهر الصراع السياسي بأبشع ألوانه حينما استولى الامام أمير المؤمنين عليه السلام على زمام السلطة في البلاد ، فقد تحركت القوى الطامعة في الحكم وهي تعلن العصيان المسلح محاولة بذلك اسقاط حكومته التي احتضنت مصالح الشعوب الاسلامية ، وتبنت حقوق الانسان وراحت تؤسس معالم العدل والحق ، وتدك حصون الظلم ، وتنسف قلاع الباطل ، وترفع منار الكرامة الانسانية ، وتقضي على جميع أسباب التخلف والفساد التي تركها الحكم المباد.

لقد أوجد الامام انقلاباً جذرياً ، وتحولاً اجتماعياً في الميادين السياسية والفكرية والاقتصادية ، التي كان منها العدالة في التوزيع ، وإلغاء الامتيازات التي منحتها حكومة عثمان لبني أمية وآل أبي معيط ، ومصادرة الأموال التي اختلسوها بغير حق وعزل الولاة وسائر الموظفين الذين اتخذوا الحكم وسيلة للاثراء والاستعلاء على الناس بغير حق

وقد أدت التغييرات الاجتماعية التي أوجدتها حكومة الامام إلى زيادة الأزمات النفسية في نفوس القرشيين وغيرهم من الحاقدين على الاصلاح الاجتماعي ، فأيقنوا أن حكومة الامام ستدمر مصالحهم الاقتصادية وغيرها ، فهبوا متضامنين إلى اعلان المعارضة ، ومن المؤسف — حقاً — أن تضم المعارضة بعض أعلام الصحابة كطلحة والزبير ، وأن يكون العضو البارز فيها السيدة عائشة زوج النبي (ص) ومن المؤكد أنه لم تكن للمعارضين أية أهداف اجتماعية أو اصلاحية ، وإنما دفعتهم الأنانية والأطماع حسب التصريحات التي أدلوا بها في كثير من المناسبات ، وقد كان في طليعة القوى المتآمرة على الامام الحزب الاموي فقد سخر جميع أرصدته المالية التي حصل

عليها أيام حكومة عثمان ، فجعلها تحت تصرف المعارضين فاشتروا جميع أدوات الحرب ووهبوا الكثير من الأموال للمرتزقة وقد اندلعت بذلك نار الحرب التي اسماها بعض المؤرخين بحرب الجمل ، وقد أسرع الامام اليها فأخمد نارها ، وقضى على معالمهـا ، إلا انها اسفرت عن أفدح الخسائر التي مُني بها المسلمون ، فقد فتحت باب الحرب بين المسلمين ، ومهدت الطريق إلى معاوية أن يعلن تمرده على الامام ، ويناجزه أعنف الحروب ، وأشدها ضراوة .

وأخذت الأحداث الجسام يتصل بعضها ببعض ، ويتفرع بعضها على بعض حتى انتهت بمقتل الامام أمير المؤمنين ، وخذلان ولده الحسن وانتصار القوى الحاقدة على الاسلام ، ويعرض هذا الكتاب الى تفصيل ذلك بصورة موضوعية بما لا تحيز فيه .

— ٣ —

ونجحت الأموية بأساليبها الماكرة ، وبما استخدمته من وسائل دبلوماسيتها الغادرة في الاستيلاء على السلطة في البلاد ، وظهرت على الصعيد الاسلامي دولة الأمويين بقيادة زعيمهم معاوية بن أبي سفيان القائد الأول لجميـع عمليات الحروب التي ناهضت الاسلام حينما فجر المعلم والقائد الرسول (ص) دعوته الخلاقة الهادفة لتطوير الوعي الاجتماعي ، وتأسيس مجتمع يقوم على العدل والمساواة .

ووقعت الأمة فريسة تحت أنياب الأمويين ، واستسلمت لحكم إرهابي عنيف تتصاعد فيه الأحقاد والاضغان على قيم الأمة ومكوناتها الفـكرية

والاجتماعية ، وإزالة ما حققه الاسلام من المكاسب على الصعيد الاقتصادي والسياسي والتربوي .

واتجهت السياسية الأموية تضع المخططات الرهيبة للقضاء على مقومات الأمة ، واستئصال أرصدتها الروحية والفكرية ، وكان من أفجع وأقسى ما اتخذته من المقررات السياسية ما يلي :

أ ـ الحط من قيمة أهل البيت الذين هم مركز الوعي الاجتماعي في الاسلام ، والعصب الحساس في جسم الأمة الذي يمدها بالنهوض والارتقاء وقد سخرت السلطة جميع أجهزتها السياسية والاقتصادية ، وسائر امكانياتها الأخرى لتحويل قلوب المسلمين عن أهل البيت وفرض بغضهم على واقع الحياة الاسلامية ، وجعله جزءاً لا يتجزء من الاسلام ، وقد استخدمت في هذا السبيل أجهزة التربية والتعليم ، وأجهزة الوعظ والارشاد وغيرها ، واتخذت سب العترة على المنابر فرضاً واجباً تحاسب عليه وتنزل أقصى العقوبات على من يتهاون في أدائه .

ب ـ ابادة العناصر الواعية في الاسلام ، والتي تربت على هديه وواقعه فقد ساقت الى ساحات المجازر أعلام الاسلام كحجر بن عدي وميثم التمار ورشيد الهجري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وأمثالهم من الذين يملكون القدرة على التوجيه الاجتماعي ، والقابلية على صيانة الأمة من الانحراف والسلوك في المنعطفات ، وتذرعت السلطة في سفك دمائهم من أنهم خلعوا يد الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ولم يكن لذلك أي نصيب من الصحة ، وإنما رؤا الاتجاه السياسي يتصادم مع الدين ، ويتصادم مع مصالح الأمة فأمروا السلطة بالاستقامة والخلود الى التوازن ، ومجافاة الاضرار بمصالح المجتمع ، فاستباحت من أجل ذلك دمائهم .

ج ـ تغيير الواقع المشرق للاسلام ، وقلب جميع مفاهيمه ومقوماته،

وتدليسه بالخرافات والأوهام حتى تشل طاقاته ، ويصبح عاجزاً عن مسايرة الحياة ، والانطلاق مع الانسان لتنمية ملكاته ، وقدراته وتطوير وسائل حياته

ووضعت الحكومة لجان الوضع ، ورصدت لها الأموال الهائلة لتضع الأحاديث على لسان المنقذ العظيم الرسول (ص) لتكون من بنود التشريع وتلحق بقافلة السنة التي هي من مدارك الأحكام ، وقد راح الوضاعون يلفقون الأكاذيب ، وينسبونها للنبي (ص) وكثير مما وضعوه يتنافى مع منطق العقل، ويتجافى مع سنن الحياة ، ومن المؤسف أنها دونت في كتب السنة ، ودرجت في كتب الأخبار ، مما اضطر بعض الغيارى من علماء المسلمين أن يألفوا بعض الكتب التي تدال على بعض تلك الموضوعات ، وفيما أحسب أن هذا المخطط الرهيب من أفجع ما رزء به المسلمون فانه لم يكن الابتلاء به آنياً من الزمن ، وانما ظل مستمراً مع امتداد التاريخ فقد تفاعلت تلك الموضوعات مع حياة الكثيرين من المسلمين ، وظلوا متمسكين بها على أنها جزء من دينهم ، وقـــد وضعت الحواجز في نمو المواهب وانطلاق الفكر ، كما بقيت حجر عثرة في طريق التطور والابداع الذي يريده الاسلام لابنائه .

— ٤ —

وعانى الانسان المسلم في عهد معاوية ضروباً شاقة وعسيرة من المحن والبلوى ، فقد جهدت حكومة معاوية على نشر الظلم والجور في جميع أرجاء البلاد ، وعهدت بأمور المسلمين الى الجلادين والجزارين أمثال زياد بن أبيه وبسر بن أبي ارطاة ، وسمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة ، وأمثال هؤلاء من أرجاس البشرية ، وقد صبوا على الناس وابلاً من العذاب الأليم لم

تشهد له الانسانية مثيلاً في كثير من مراحل تاريخها .

لقد كانت المظالم الاجتماعية – في عهد معاوية – بمرأى من الامام الحسين عليه السلام ومسمع ، فروعته وافزعته إلى حد بعيد ، فقد كان بحكم قيادته الروحية لأمة جده يحس باحاسيسها ، ويتألم لآلامها ، ويحيا بحياتها ، وكان من أعظم ما عاناه من المحن والخطوب تتبع الجزارين والجلادين من ولاة معاوية لشيعة أهل البيت امعاناً في قتلهم ، وحرقاً لبيوتهم ، ومصادرة لأموالهم ، لا يألون جهداً في ظلمهم بكل طريق ، وقد قام الامام بدوره في شجب تلك السياسة الظالمة فبعث المذكرات الصارخة لطاغية دمشق يشجب فيها الاجراءات الظالمة التي اتخذها عماله وولاته لابادة محبي أهل البيت والعارفين بفضلهم ، وقد جاء في بعض بنودها أنه نفى أن يكون معاوية من هذه الأمة ، وانما هو عنصر غريب ، ومعاد لها ، والحق إنه كذلك فقد أثبتت تصرفاته السياسية أنه من ألد أعدائها ، وانه كان يبغي لها الغوائل ويكيد لها في غلس الليل ، وفي وضح النهار ، قد جهد في اذلالها وارغامها على الجور

وكان من أفجع مارزأ به معاوية الأمة أنه فرض خليعه المهتوك يزيد القرود والفهود – كما يسميه المؤرخون – خليفة عليها يعبث في دينها ودنياها ، ويجر لها الويلات والخطوب .

— ٥ —

وفقدت الأمة في عهد معاوية وخليعه يزيد جميع عناصرها ومقوماتها ولم تعد خير أمة أخرجت للناس – حسب ما يريده الله لها – فقد عاث فيها معاوية فرباها على الوصولية والانتهازية ، ورباهـا على الذل والعبودية ،

وسلب عنها صفاتها ، وجرد عنها أخلاقها القويمة ، فلم تعد تهتم بتحقيق أهدافها وآمالها ، ولا بما يضمن لها الحياة الكريمة ، قد استسلمت للحكم الأموي ، وقبعت ذليلة مهانة تحت وطأة سياطه ، وهو يسفك دماءها ، ويستنزف ثرواتها ، ويشيع فيها الجور والفساد ، فقد تخدرت بشكل فظيع وأصبحت جثة هامدة لا وعي فيها ولا حراك ، فلم تهب للدفاع عن كرامتها وعزتها ، ولم تنطلق في ميادين الشرف والتضحية لتحمي نفسها من الظلم والاعتداء .

رأى الامام الحسين (ع) وهو سبط الرسول (ص) وأمله الباسم الذي تجسدت فيه جميع طاقاته حالة المسلمين ، وما هم فيه من الذل والهوان وانهم لم يعودوا تلك الأمة العظيمة التي تبنت رسالة الاسلام ، وحملت مشعل الهداية والنور إلى جميع شعوب الأرض .

واستوعب الألم القاسي مشاعر الامام وعواطفه ، وراح يطيل التفكير وينفق الليل ساهراً في انقاذ دين جده العظيم ، وحمايته من الردة الجاهلية، فعقد المؤتمرات تارة في مكة وأخرى في يثرب ، وعرض على الصحابة وأبنائهم الحالة الراهنة التي مُني بها المسلمون ، وأخذ يدلي بمنكرات معاوية وموبقاته ، وقد استبان له أن هذه الطريقة لا تجدي بأي حال في ميادين الاصلاح الاجتماعي ، ولا يمكن أن ترد شوارد الأهواء وترجع للامة مافقدته من معنوياتها ، فرأى أنه بين أمرين لا ثالث لهما وهما :

١ - أن يسالم الأمويين ، ويبايع ليزيد ، ويغض الطرف عما تقترفه السلطة من الظلم والجور ، وما تعانيه الأمة من الأزمات في مجالاتها العقائدية والاجتماعية ، ويكون بذلك - على سبيل الاحتمال لا القطع - قد ضمن سلامته وحياته ، ولكن هذا مما يأباه الله له ، ويأباه ضميره الحي المترع بتقوى الله فهو بحسب مكانته من رسول الله (ص) مسؤول أمام الله عن صيانة الأمة

وحماية أهدافها ومبادئها ، ومسؤول أمام جده الرسول (ص) عن رعاية الاصلاح الاجتماعي ، وصيانة الاسلام من عبث العابثين ، وكيد الفاجرين وقد أعلن سلام الله عليه هذه المسؤولية الخطيرة وما يفرضه الواجب عليه في خطابه الذي ألقاه على الحر وأصحابه من شرطة ابن زياد قائلاً :

« أيها الناس إن رسول الله (ص) قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً عهده ، مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . . . » .

لقد كان الواجب الشرعي حسبما أدلى به مما يحتم عليه القيام في مقارعة الظلم ومناهضة الجور ، والضرب على أيدي المعتدين والظالمين .

٢ ـ أن يعلن الثورة ، ويضحي بنفسه وأهل بيته وشيعته ، وهو على يقين بعدم نجاح الثورة ، فقد درس أوضاع المجتمع ، وعرف أن الدين لعق على ألسنة الناس ، إلا أنه أيقن أن تضحيته ستعود على المسلمين بالخير العميم فستتحرر ارادتهم ، ويهبون الى ميادين الجهاد ، ويرفعون أعلام الحرية وينزلون الجبابرة الطغاة من بني أمية من عروشهم إلى قبورهم واختار هذا الطريق المشرق على ما فيه من مآسي وخطوب لا يطيقها أي كائن حي .

ودرس الامام أبعاد التضحية بعمق وشمول ، فرأى أن يزج بجميع ثقله في المعركة ، ويقدم أروع التضحيات التي تهــز الضمير الانساني على امتداد التاريخ ، وتعيد للامة أصالتها ووعيها عبر أجيالها الصاعدة . . .

لقد خطط الامام فصول مأساته ، وفصول تضحيته على أسس عميقة

من الوعي والادراك بحيث تؤدي إلى النتائج المشرقة التي منها انتصار القضية الاسلامية وإعادة الحياة الدينية الى شرايين الأمة ، وازالة التخدير الذي بسطه الأمويون على جميع أجزائها .

وقد أعلن سلام الله عليه ما صمم عليه ، وأذاع فصول مآساتـــه الخالدة في كثير من المناسبات ، وهذه بعضها .

١ - أدلى بمصرعه ، وهو بمكة في خطابه الذي أعلن فيه الثورة على بني امية ، فقد جاء فيه « وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا ... » أليس في هذا الكلام دلالة على روعة العزم والتصميم على التضحية ؟! أليس فيه اخبـــار جازم عن مصرعه الكريم ، وأنه في كربلاء ، فهي التي تحضى بمواراة جثمانه الطاهر كما أذاع ذلك جده وأبوه من قبل .

٢ - وأعلن الامام العظيم المآسي الأليمة ، والخطوب المفجعة التي تحل بأهل بيته من القتل والسبي والأسر ، وذلك حينما أشار عليه ابن عباس بأن لا يحمل معه مخدرات النبوة وعقائل الوحي الى العراق ، ويتركهن في يثرب حتى تستقيم له الأمور ، فأجابه الامام قائلاً :

« قد شاء الله أن يراهن سبايا » .

لقد صحب معه عياله وهو يعلم ما سيجري عليها من الأسر والسبي لان بها سوف تستكمل رسالته ، وتؤدي فعاليتها في القضاء على العرش الأموي واعادة الحياة الاسلامية الى واقعها المضيء .

٣ - كان الامام يتحدث وهو في طريقه الى العراق من أن رأسه الشريف سوف يرفع على الحراب فيطاف به في الأقطار والأمصار ، ويهدى الى بغي من بغايا بني أمية كما صنع برأس أخيه يحيى بن زكريا حيث أهدي الى بغي من بغايا بني اسرائيل .

لقد استهان بجميع ما يعانيه في سبيل احقاق الحق ، واعلاء كلمة الله في الأرض .

— ٧ —

وفجر الامام ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأولي الألباب ، وهي بجميع مخططاتها جزء من رسالة الاسلام وامتداد مشرق لثورة الرسول الأعظم ، وتجسيد حي لأهدافه وآماله ، ولولاها لذهبت جهود النبي ، وضاعت آماله ، ولم يبق للاسلام أثر ولا عين .

لقد انتصر الامام الحسين (ع) وفتح الله له الفتح المبين ، فقد أشرقت سماء الاسلام بثورته الخالدة ، وتفاعلت تضحيته مع مشاعر الناس وعواطفهم ، وامتزجت بقلوبهم ، وأصبحت أعظم مدرسة للايمان بالله ، تبث روح العقيدة والفداء في سبيل الحق والعدل ، وتغذي الناس بالقيم الكريمة والمثل العليا ، وتعمل على توجيههم نحو الخير وتهذيبهم إلى سواء السبيل .

لقد أقبل الناس بلهفة على مأساة أبي الأحرار ، وهم يمعنون النظر في فصولها ويقتبسون منها أروع الدروس عن الكرامة والتضحية ، والبطولات الخارقة والعزة التي لا يلويها الظلم والجور .

إن الانسانية لتنحني اجلالاً واكباراً للامام العظيم الذي رفع راية الحق عالية خفاقة . وتبنى حقوق المظلومين ، ودافع عن مصالح المضطهدين . . . وانها لتمجد ذكره أكثر مما تمجد أي مصلح اجتماعي في الأرض ، وقد أحرز الامام العظيم بذلك من النصر ما لم يحرزه غيره من المصلحين في العالم .

لقد كان من أوليات النصر الذي حققه الامام تحطيم الكيان الأموي فقد وضعت ثورته الخالدة العبوات الناسفة في قصور الأمويين ، وألغمت طريقهم ، فلم يمض قليل من الزمن حتى تفجرت فاطاحت برؤوس الأمويين واكتسحت نشوة نصرهم ، وجعلتهم أثراً بعد عين ، ويعرض هذا الكتاب بصورة موضوعية إلى بعض ما قدمته الثورة من المعطيات المشرقة على الصعيد الفكري والاجتماعي للعالم الاسلامي

— ٨ —

ولن يستطيع التاريخ الاسلامي أن يأخذ حظه من الحياة اذا كان مثقلاً بالقيود والاغلال ، ولم يخضع للدراسة والنقد ، فلابد أن تتسلط مجاهر البحث العلمي النزيه على أحداثه ، وتدرس بدقة وتجرد ، شأن غيره من تاريخ الأمم الحية التي تتناول أحداثه أقلام المفكرين والباحثين بكثير من العمق والتحليل ، فان دراسة التاريخ عندهم تحتل الصدارة في دراساتهم الثقافية والعلمية .

إنا إذا أردنا للتاريخ الاسلامي أن يزدهر ، ويساير النهضة الفكرية ، والتطور العلمي في هذه العصور ، فلابد من دراسته دراسة واعية تعتمد على المناهج العلمية ، وعلى التجرد من النزعات المذهبية والتقليدية ، فننظر بدقة إلى الأحداث الجسام التي دهمت المسلمين في عصورهم الأولى فانها — فيما نعتقد — مصدر الفتنة الكبرى التي اخلدت لهم المصاعب ، وجرت لهم الفتن والخطوب على امتداد التاريخ .

إن البحث عن التاريخ الاسلامي في تلك الحقبة الخاصة من الزمن إذا لم يعرض لتلك الأحداث بالبسط والتحليل ، ولم يلق الاضواء على

دوافعها ومجرياتها فانه يكون بحثاً تقليدياً لا روح فيه ، ولا ثمرة تعود فيه على القراء .

وقد ألمعنا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب إلى الكثير من الأحداث وعرضنا الأنظمة السياسية والاقتصادية التي وضع براجها الخلفاء في العصر الأول ، وقد تأملنا في كثير منها بتحفظ وتجرد شأن الباحث الذي يهمه الوصول إلى الواقع مهما استطاع إليه سبيلا ، واني – فيما اعتقد – ان من الاثم وتعمد الجهل ان نتكلف اخفاء أي ناحية من النواحي السياسية أو الاجتماعية في ذلك العصر فان اخفاء ذلك من ألوان التضليل والدجل على القراء .

وليس في دراسة التاريخ دراسة منهجية تغيير له أو قلب لمفاهيمه ، أو خروج عن موازين البحث العلمي المجرد ، وإنما هي من صميمه كما هي من متطلبات الحياة الثقافية في هذا العصر .

وعلى أي حال فان هذه الدراسة ترتبط ارتباطاً ذاتياً وموضوعياً بحياة الامام الحسين ، فقد عاش تلك الحقبة الخاصة من الزمن المليئة بالاحداث ، وقد نظر إليها بعمق وشمول ، ووقف على أهدافها وهي – من دون شك – قد ساهمت مساهمة ايجابية في كثير من الاحداث التي فزع منهـا المسلمون والتي كان منها كارثة كربلاء ، فانها كانت احدى النتائج المباشرة لذلك التخدير الذي منيت به الامة من جراء الحكم الاموي الذي جهد على شل الحياة الفكرية والاجتماعية واشاعة الانتهازية بين المسلمين .

وأنا آمل أن أكون في هذه الدراسة قد واكبت الواقع ، وابتعدت عن العواطف التقليدية وآثرت الحق في جميع ما كتبته لا ابتغي بذلك إلا ابراز التاريخ الاسلامي على واقعه من دون تحيز وقبل أن أقفل هذا التقديم أرى من الواجب علي أن أذكر بالوفاء والعرفان ما قام بـه سيادة المحسن

الكبير الحاج محمد رشاد عجينة من التشجيع البالغ على الخوض والاستمرار في خدمة أئمة أهل البيت (ع) ونشر مآثرهم التي هي من أفضل الخدمات التي تقدم لهذه الامة ، وقد قام سيادته بالإنفاق على نشر هذا الكتاب وقد رغب أن تكون من المبرات التي أوصى بها المغفور له والده الحاج محمد جواد عجينة المتوفي سنة (١٣٩١هـ) ، أجزل الله الثواب ، ووفقه لكل مسعى نبيل .

النجف الاشرف　　　　　　　　　　باقر شريف القرشي

مَعَ القاسِطينَ والناكِثين



وفزعت القبائل القرشية كأشد ما يكون الفزع هولاً من حكومة الامام وأيقنت أن جميع مخططاته السياسية والاقتصادية إنما هي امتداد ذاتي للاتجاهات الفكرية والاجتماعية عند الرسول الأعظم (ص) الذي أطاح بغلوائهم، وكبريائهم، وحطم حياتهم الاقتصادية القائمة على الربا والاحتكار والاستغلال ومما زاد في فزعهم القرارات الحاسمة التي أعلنها الامام فور انتخابه للحكم والتي كان منها اقصاء ولاة عثمان عن جميع مراكز الدولة، ومصادرة جميع ما نهبوه من الخزينة المركزية، كما اضطربوا من اعلان الامام (ع) للمساواة العادلة بين جميع الشعوب الاسلامية، مساواة في الحقوق، والواجبات، ومساواة في كل شيء، وقد هالهم ذلك فكانوا يرون أن لهم التفوق على بقية الشعوب، ولهم امتيازات خاصة على بقية الناس.

لقد ورمت آناف القرشيين وسائر القوى المنحرفة عن الحق من حكومة الامام فأجمع رأيهم على اعلان العصيان المسلح، واشعال نار الحرب في البلاد للاطاحة بحكومته التي اتخذت الحكم وسيلة للاصلاح الاجتماعي، وتطوير حياة الانسان، وأول الحروب التي اثيرت على الامام هي حرب الجمل، وأعقبتها حرب صفين ثم حرب النهروان، وقد وضعت تلك الحروب الحواجز والسدود أمام حكمه الهادف الى رفع مستوى القيم الانسانية، والقضاء على جميع ألوان التأخر في البلاد.

ويقول الرواة ان الرسول (ص) قد أحاط الامام علماً بما يُمنى به في عهد خلافته من تمرد بعض الفئات عليه، وقد عهد اليه بقتالهم وقد أسماهم الناكثين والقاسطين والمارقين (١) ولابد لنا أن نعرض - بايجاز -

(١) مستدرك الحاكم ٣ / ١٣٩، تاريخ بغداد ٨ / ٣٤٠، أسد الغابة ٤ / ٣٣، كنز العمال ٦ / ٨٢، مجمع الزوائد ٩ / ٢٣٥.

لهذه الحروب التي تصور لنا الحياة السياسية والفكرية في ذلك العصر الذي اترعت فيه عواطف الكثيرين بحب الملك والسلطان كما تصور لنا الأحقاد التي تكنها القبائل القرشية على الامام ، ومن المقطوع به أن هذه الاحداث قد ساهمت مساهمة ايجابية في خلق كارثة كربلاء فقد نشرت الأوبئة الاجتماعية وخلقت جيلاً انتهازياً ، لا ينشد إلا مطامعه الخاصة ، وفيما يلي ذلك :

الناكثون :

وهم الذين نكثوا بيعتهم ، وخاسوا ما عاهدوا عليه الله في التضحية والطاعة للامام ، فانسابوا في ميادين الباطل وساحات الضلال ، وتمرسوا في الاثم ، وقد أجمع فقهاء المسلمين على تأثيمهم إذ لم يكن لهم أي مبرر في الخروج على السلطة الشرعية التي تبنت المصالح العامة ، وأخذت على عاتقها أن تسير بين المسلمين بالحق المحض والعدل الخالص وتقضي على جميع أسباب التخلف في البلاد .

اما اعلام الناكثين فهم طلحة والزبير ، والسيدة عائشة بنت ابي بكر ، ومروان بن الحكم ، وسائر بني امية ، وغيرهم من الذين ضاقوا ذرعاً من عدل الامام ، ومساواته .

دوافع التمرد :

والشيء المحقق انه لم تكن للناكثين أية اهداف اجتماعية ، وانما دفعتهم مصالحهم الخاصة لنكث بيعة الامام ، فطلحة والزبير قد خفّا إليه بعد ان تقلد الخلافة يطلبان منحهما ولاية البصرة والكوفة ، فلما خبا املهما

اظهرا السخط ، وخفا الى مكة لاعلان الثورة عليه، وتمزيق شمل المسلمين وقد أدلى الزبير بتصريح أعرب فيه عن أهدافه ، فقد أقبل إليه وإلى طلحة رجل فقال لهما : « إن لكما صحبة وفضلاً فأخبراني عن مسيركما وقتالكما أشيء أمركما به رسول الله (ص) ؟ وسكت طلحة ، وأما الزبير فقال : « حُدثنا أن ها هنا بيضاء وصفراء — يعني دراهم ودنانير — فجئنا لنأخذ منها . . » (١) .

من أجل الظفر بالمنافع المادية أعلن الشيخان تمردهما على حكومة الامام .

وأما السيدة عائشة فانها كانت تروم ارجاع الخلافة الى اسرتها ، فهي أول من قدح زناد الثورة على عثمان ، وأخذت تلهب المشاعر والعواطف ضده وكانت تقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » وقد جهدت على ترشيح طلحة للخلافة وكانت تشيد به في كل مناسبة إلا أنها أخيراً استجابت لعواطفها الخاصة المترعة بالود والحنان لابن أختها عبد الله بن الزبير فرشحته لامارة الصلاة وقدمته على طلحة .

وأما بنو أمية فقد طلبوا من الامام ان يضع عنهم ما أصابوه من المال في أيام عثمان ، فرفض الامــام أن يضع عنهم ما اختلسوه من أموال الأمة فاظهروا له العداء ، وعملوا على اثارة الفتنة والخلاف .

وعلى أي حال فانه لم تكن للناكثين نزعة اصلاحية أو دعوة إلى الحق وإنما كانت بواعثهم الأنانية والاطماع ، والأحقاد على الامام الذي هو نفس رسول الله (ص) وباب مدينة علمه .

---

(١) أنساب الأشراف ج١ ق١ .

خديعة معاوية للزبير :

وأيقن معاوية بأهداف الزبير وطلحة ، فقـــام بدوره في خديعتهما واغرائها ليتخذهما سلماً يعبر عليها لتحقيق أهدافه ومآربه ، فقد كتب الى الزبير رسالة جاء فيها : « لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان سلام عليك ، أما بعد : فاني قـــد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب ، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب فانه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فاظهرا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجد والتشمير أظفركما الله وخذل مناوئكما ... » .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى الزبير لم يملك اهابه من الفرح والسرور وخف الى طلحة فأخبره بذلك فلم يشكا في صدق نيتـــه واخلاصه لها ، وتحفزا إلى اعلان الثورة على الامام ، واتخذا دم عثمان شعاراً لهما (١) .

مؤتمر مكة :

وخف المتآمرون الى مكة فاتخذوها وكراً لدسائسهم التخريبية الهادفة لتقويض حكم الامام وقد وجدوا في هذا البلد الحرام تجاوباً فكرياً مـــع الكثيرين من أبناء القبائل القرشية التي كانت تكن في أعماق نفسها الكراهية والحقد على الامام لأنه قد وتر الكثيرين منهم في سبيل الاسلام .

وعلى أي حال فقد تداول زعماء الفتنة الآراء في الشعار الذي يتبنونه والبلد التي يغزونها ، وسائر الشؤون الأخرى التي تضمن لثورتهم النجاح .

---

(١) شرح النهج ١ / ٢٣١ .

قرارات المؤتمر :

واتخذ أعضاء المؤتمر بالاجماع القرارات التالية ، وهي :

١ ـ أن يكون شعار المعركة دم عثمان ، والمطالبة بثاره لأنــه قُتل مظلوماً ، واستباح الثوار دمه بعد توبته بغير حق ، لقد رفعوا قميص عثمان شعاراً لهم فكان شعاراً للتمرد وشعاراً للرأسمالية القرشية التي طغت في البلاد .

٢ ـ تحميل الامام علي (ع) المسؤولية في اراقة دم عثمان لأنه آوى قتلته ، ولم يقتص منهم .

٣ ـ الزحف الى البصرة واحتلالها ، واتخاذها المركز الرئيسي للثورة لأن لهم بها حزباً وأنصاراً ، وقد أعرضوا عن الزحف الى يثرب لأن فيها الخليفة الشرعي ، وهو يتمتع بالقوى العسكرية التي لا قابلية لهم عليها ، كما أعرضوا عن النزوح الى الشام لأن الامويين لم يستجيبوا لهم ، لأنها كانت تحت قبضتهم ، فخافوا عليها من التصدع والاحتلال .

تجهيز الجيش بالأموال المنهوبة :

وجهز يعلي بن امية جيش عائشة بالاموال التي نهبها من بيت المال حينما كان والياً على اليمن أيام عثمان ، ويقول المؤرخون إنه أمد الجيش بستمائة بعير ، وبستمائة ألف درهم (١) وأمدهم عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة بمال كثير (٢) كان قد اختلسه من بيت المال ، ولم يتحرج أعضاء القيادة العسكرية العامة في جيش عائشة من هذه الأموال المحرمة .

(١) و (٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٠٦ .

الخطاب السياسي لعائشة :

وخطبت عائشة في مكة خطاباً سياسياً حملت فيه المسؤولية في اراقة دم عثمان على الغوغاء فهم الذين سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام ، وقد قتلوا عثمان بعد ما اقلع عن ذنوبه وأخلص في توبته ، ولا حجة لهم فيما اقترفوه من سفك دمه (١) ، وقد كان خطابها فيما يقول المحققون حافلاً بالمغالطات السياسية ، فان الغوغاء لم يسفكوا دمه ، وإنما سفك دمه الذين رفعوا علم الثورة عليه ، وفي طليعتهم كبار الصحابة كعمار بن ياسر وأبي ذر وعبد الله بن مسعود وطلحة والزبير ، وكانت هي بالذات من أشد الناقمين عليه فقد اشتدت في معارضته ، وأفتت في قتله وكفره فقالت : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » فأي علاقة للغوغاء بإراقة دمه ؟

وأما توبته فان عثمان أعلن غير مرة عن تراجعه عن أحداثه إلا أن بني أمية كانوا يزجونه في مخططاتهم السياسية فيعود الى سياسته الأولى ، ولم يقلع عنها حتى قتل .

وعلى أي حال فقد كان خطابها أول بادرة لاعلان العصيان المسلح على حكومة الامام ، وكان الأولى بعائشة بحسب مكانتها الاجتماعية أن تدعو إلى وحدة الصف وجمع كلمة المسلمين ، وان تقوم بالدعم الكامل لحكومة الامام التي تمثل أهداف النبي (ص) وما تصبو إليه الأمة من العزة والكرامة .

---

(١) نص خطابها في تاريخ الطبري ٣ / ٤٦٨ .

عائشة مع أم سلمة :

ومن الغريب حقاً أن تخف عائشة إلى أم سلمة تطلب منها القيام بمناجزة الامام مع علمها بما تكنه من الولاء والتقدير له الأمر الدي دل على عدم خبرتها بالاتجاهات الفكرية لضراتها من أزواج النبي (ص) ولما قابلتها خاطبتها بناعم القول قائلة :

« يا بنت أبي امية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله (ص) وأنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله يقسم لنا من بيتك ، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك .. » .

ورمقتها أم سلمة بطرفها ، وقالت لها بريبة :

« لامر ما قلت هذه المقالة ؟ » .

فأجابتها عائشة مخادعة :

« ان القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائماً في الشهر الحرام ، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ، ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا . » .

وأسدت لها أم سلمة النصيحة وذكرتها بمواقفها مع عثمان ونقمتها عليه وحذرتها من الخروج على ابن عم رسول الله (ص) قائلة :

« يا بنت أبي بكر بدم عثمان تطلبين ؟ !! والله لقد كنت من أشد الناس عليه ، وما كنت تسميه الا نعثلا ، فمالك ودم عثمان ؟ وعثمان رجل من بني عبد مناف وأنت امرأة من بني تيم بن مرة ، ويحك ياعائشة!! أعلى علي وابن عم رسول الله (ص) تخرجين وقد بايعه المهاجرون والأنصار؟..»

وجعلت أم سلمة تذكر عائشة فضائل علي ومآثره وقرب منزلته من

رسول الله وكان عبد الله بن الزبير يسمع حديثها فغاظه ذلك ، وخاف أن تصرف عائشة عن عزمها فصاح بها :

« يا بنت أبي أمية ، إننا قد عرفنا عداوتك لآل الزبير » .

فنهرته أم سلمة وصاحت به :

« والله لتوردنها ثم لا تصدنها أنت ولا أبوك !! أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة ، وعلي بن أبي طالب حي وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة » .

فقال لها ابن الزبير :

« ما سمعنا هذا من رسول الله (ص) ساعة قط » .

فقالت أم سلمة :

« إن لم تكن أنت سمعته فقد سمعته خالتك عائشة ، وها هي فاسألها قد سمعته (ص) يقول · « علي خليفتي عليكم في حياتي ومماتي من عصاه فقد عصاني » أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا ؟ .. » .

فلم يسع عائشة الانكار وراحت تقول :

« اللهم نعم .. » .

ومضت أم سلمة في نصيحتها لعائشة قائلة :

« اتق الله يا عائشة في نفسك ، واحذر ما حذرك الله ورسوله ، ولا تكون صاحبة كلاب الحوأب ، ولا يغرنك الزبير وطلحة فانهما لا يغنيان عنك من الله شيئاً .. » (١) .

ولم تع عائشة نصيحة أم سلمة ، واستجابت لعواطفها ، وأصرت على مناجزة الامام .

---

(١) الفتوح ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وكتبت أم سلمة بجميع الأحداث التي جرت في مكة الى الامام (ع) واحاطته علماً بأعضاء الفتنة (١) .

الزحف الى البصرة :

وتحركت كتائب عائشة صوب البصرة ، ودق طبل الحرب ، ونادى المتمردون بالجهاد ، وقد تهافت ذوو الأطماع والحاقدون على الامام الى الالتحاق بجيش عائشة ، قد رفعوا أصواتهم بالطلب بدم عثمان الذي سفكه طلحة والزبير وعائشة ، واتجهت تلك الجيوش لتشق كلمة المسلمين ، وتغرق البلاد بالثكل والحزن والحداد .

عسكر :

وسار موكب عائشة في البيداء يجد السير ، فصادفهم العرني صاحب عسكر فعرض له راكب فقال له :

– يا صاحب الجمل أتبيع جملك ؟ .

– نعم .

– بكم .

– بألف درهم .

– ويحك !! . أمجنون أنت جمل يباع بألف درهم ؟

– نعم جملي هذا . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولاطلبني وأنا عليه أحد قط الا فته . . .

---

(١) شرح النهج ٢ / ٧٩ .

« لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا »
« لمن تريده ؟ » .
« لأمك » .
« لقد تركت أمي في بيتها قاعدة ما تريد براحا » .
« إنما أريده لام المؤمنين عائشة » .
« هو لك خذه بغير ثمن »
« ارجع معنا الى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم » .
فقفل معهم فاعطوه الناقة واربعمائة درهم أو ستمائة درهم ، وقــدم عسكر إلى عائشة فاعتلت عليه (١) ، وقد أصبح كعجل بني اسرائيل فقطعت الأيدي ، وأزهقت الأنفس واريقت الدماء من حوله .

الحوأب :

وسارت قافلة عائشة فاجتازت على مكان يقال له (الحوأب) فتلقت الركب كلاب الحي بهرير وعواء فذعرت عائشة ، فالتفتت إلى محمد بن طلحة فقالت له :

- أي ماء هذا يا محمد ؟
- ماء الحوأب يا أم المؤمنين .

فهتفت وهي تلهث :

- ما أراني إلا راجعة .
- لِمَ يا أم المؤمنين ؟
- سمعت رسول الله يقول لنسائه : كأني باحداكن قــد نبحتها

---

(١) ابن الأثير ٣ / ١٠٧ ، تاريخ الطبري ٣ / ٤٧٥ ، تذكرة الخواص .

كلاب الحوأب وإياك أن تكوني أنت يا حميراء (١) .

ـ تقدمي رحمك الله ودع هذا القول .

فلم تبرح من مكانها ، وطافت بها الهموم والآلام ، وأيقنت بضلالة قصدها ، وذعرت القيادة العسكرية من توقف عائشة التي اتخذوها قبلة لهم يغرون بها السذج والبسطاء فخفوا اليها في دهشة قائلين :

« يا أمه » .

فقطعت عليهم الكلام وراحت تقول بنبرات ملؤها الاسى والحزن .

« أنا والله صاحبة كلاب الحوأب . . ردوني ، ردوني » .

وأسرع إليها ابن اختها عبد الله بن الزبير كأنه ذئب فانهارت امامه ، واستجابت لعواطفها ، ولولاه لارتدت على عقبيها الى مكة فجاء لها بشهود اشترى ضمائرهم فشهدوا عندها أنه ليس بماء الحوأب وهي أول شهادة زور تقام في الاسلام (٢) فاقلعت عن فكرتها واخذت تقود الجيوش لحرب وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه .

في ربوع البصرة :

ودهمت جيوش عائشة اهل البصرة فملئت قلوبهم ذعراً وفزعاً ،

(١) روى ابن عباس عن رسول الله (ص) أنه قال يوماً لنسائه وهن جميعاً عنده : ايتكن صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحوأب ، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلهم في النار ، وتنجو بعدما كادت ، شرح النهج ٢ / ٢٩٧ ، ابن كثير ٦ / ٢١٢ ، الخصائص للسيوطي ٢ / ١٣٧ الاستيعاب وجاء فيه : « وهذا الحديث من اعلام نبوته (ص) » .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٧ ، تاريخ اليعقوبي .

وخوفاً ، فقد احاطت ببلدهم القوات العسكرية التي تنذر باحتلال بلدهم وجعلها منطقة حرب ، وعصيان على الخليفة الشرعي ، وانبرى حاكم البصرة عثمان بن حنيف وهو من ذوي الادارة والحزم والحريجة في الدين ، فبعث أبا الأسود الدؤلي الى عائشة يسألها عن سبب قدومها الى مصرهم ، ولما مثل عندها قال لها .

– ما أقدمك يا أم المؤمنين ؟

– اطلب بدم عثمان .

– ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد .

– صدقت ، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، انغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم . .

ورد عليها أبو الأسود قائلاً :

« ما أنت من السوط والسيف ، انما أنت حبيسة رسول الله (ص) أمرك أن تقري في بيتك وتتلي كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهن الطلب بالدماء ، وان علياً لأولى منك ، وأمس رحماً ، فانهما ابنا عبد مناف » .

ولم تذعن لقوله ، وراحت مصرة على رأيها قائلة :

« لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه ، أفتظن أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ ! ! » .

وحسبت أنها تتمتع بحصانة لعلاقتها الزوجية من النبي (ص) فلا يقدم أحد على قتالها ، ولم تعلم أنها أهدرت هذه الحرمة ولم ترع لها جانباً فأجابها أبو الأسود بالواقع قائلاً :

« أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد » .

ثم انعطف أبو الأسود صوب الزبير فذكره بماضي ولائه للامام وقربه منه قائلاً .

« يا أبا عبد الله عهد الناس بك ، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذاً بقائم سيفك تقول : لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذاك ؟ » .

فأجابه الزبير بما لم يؤمن به قائلاً :

« نطلب بدم عثمان » .

« أنت وصاحبك وليتماه فيما بعد » .

ولانّ الزبير واستجاب لنصيحة أبي الأسود الا انه طلب منه مواجهة طلحة وعرض الأمر عليه ، فأسرع أبو الأسود تجاه طلحة وعرض عليه النصيحة فأبى من الاستجابة وأصر على الغي والعدوان (١) ورجع أبو الأسود من وفادته التي اخفق فيها فاحاط ابن حنيف علماً بالأمر فجمع أصحابه وخطب فيهم وقال :

« أيها الناس ، انما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً والله لو علم علي أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع ، وأطاع وما به الى أحد من صحابة رسول الله (ص) حاجة وما بأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم في محاسنهم ، وما شاركوه في محاسنه ، ولقد بايع هذان الرجلان ، وما يريدان الله ، فاستحلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ، فان كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ولا يأمرا ، إلا وان الهدى ما كانت عليه

(١) شرح النهج ٢ / ٨١ .

العامة ، والعامة على بيعة علي فما ترون أيها الناس ؟ » .

فقام اليه الفذ النبيل حكيم بن جبلة فخاطبه بمنطق الايمان والحق والاصرار على الحرب (١) .

وجرت مناظرات بين الفريقين إلا انها لم تنته الى خير ، وخطب طلحة والزبير ، وكان خطابهما الطلب بدم عثمان ، فرد عليهما أهل البصرة ممن كانت تأتيهم رسل طلحة بالتحريض على قتل عثمان وحملوه المسؤولية في اراقة دمه وخطبت عائشة خطابها الذي كانت تكرره في كل وقت وهو التحريض على المطالبة بدم عثمان لأنه قد خلص من ذنوبه ، واعلن توبته ولكنها لم تنه خطابها حتى ارتفعت الأصوات فقوم يصدقونها وقوم يكذبونها وتسابوا فيما بينهم وتضاربوا بالنعال ، واقتتل الفريقان أشد القتال واعنفه وأسفرت الحرب عن عقد هدنة بينهما حتى يقدم الامام علي ، وكتبوا بينهم كتاباً وقعه عثمان بن حنيف ، وطلحة والزبير وقد جاء فيه باقرار عثمان ابن حنيف على الامرة ، وترك المسلحة وبيت المال له ، وان يباح للزبير وطلحة وعائشة ومن أنضم اليهم أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة .

ومضى ابن حنيف يقيم بالناس الصلاة ، ويقسم المال بينهم ، ويعمل على نشر الأمن واعادة الاستقرار في المصر ، إلا أن القوم قد خاسوا بعهدهم ومواثيقهم ، فأجمعوا على الفتك بابن حنيف ، ويقول المؤرخون : ان حزب عائشة انتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح فعدوا على ابن حنيف وهو يصلي بالناس صلاة العشاء فأخذوه ثم عدوا الى بيت المال فقتلوا من حرسه أربعين رجلاً ، واستولوا عليه ، وزجوا بابن حنيف في السجن وأسرفوا في تعذيبه بعد أن نتفوا لحيته وشاربيه (٢) .

---

(١) الامامة والسياسة ١ / ٦٤ .

(٢) شرح النهج ٢ / ٥٠ .

وغضب قوم من اهـل البصرة ، ولقموا على ما اقترفـه القوم من نقض الهدنة ، والنكاية بحاكمهم ، واحتلال بيت المال فخرجوا يريدون الحرب ، وكانت هذه الفئة من ربيعة يرأسها البطل العظيم حكيم بن جبلة فقد خرج في ثلثمائة رجل من بني عبد القيس (١) وخرج اصحاب عائشة ، وحملوها معهم على جمل ، وسمي ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر (٢) والتحم الفريقان في معركة رهيبة ، وقد ابلى ابن جبلة بلاءاً حسنا ، ويقول المؤرخون ان رجلاً من اصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله ، فجثا حكيم واخذ رجله المقطوعة فضرب بها الذي قطعها فقتله ، ولم يزل يقاتل حتى قتل(٣)

لقد اضاف القوم الى نقض بيعتهم للامام نكثهم للهدنة التي وقعوا عليها مع ابن حنيف ، واراقتهم للدماء بغير حق ونهبهم ما في بيت المال وتنكيلهم بابن حنيف ويقول المؤرخون انهم قد هموا بقتله لولا انه هددهم بأخيه سهل بن حنيف الذي يحكم المدينة من قبل علي وانه سيضع السيف في بني ابيهم إن اصابوه بمكروه ، فخافوا من ذلك ، واطلقوا سراحه فانطلق حتى التحق بالامام في بعض طريقه الى البصرة فلما دخل عليه قال للامام مداعباً :

« ارسلتني الى البصرة شيخاً فجئتك امرد »

واوغرت هذه الاحداث الصدور ، وزادت الفرقة بين اهل البصرة فقد انقسموا على انفسهم فطائفة منهم تسللوا حتى التحقوا بالامام ، وقوم انضموا الى جيش عائشة ، وطائفة ثالثة اعتزلت الفتنة ، ولم يطب لها الانضمام الى احد الفريقين.

---

(١) شرح النهج ٢ / ٥٠ .
(٢) حياة الامام الحسن ١ / ٤٣٠ .
(٣) أسد الغابة ٢ / ٤٠ .

النزاع على الصلاة :

وليس من الغريب في شيء أن يتنازع كل من طلحة والزبير على امامة الصلاة فانهما انما نكثا بيعة الامام (ع) طمعاً بالحكم وسعياً وراء المصالح المادية ، ويقول المؤرخون إن كل واحد منهما كان يروم التقدم على صاحبه لامامة الناس ، والآخر يمنعه حتى فات وقت الصلاة ، فخافت عائشة من تطور الاحداث فأمرت ان يصلي بالناس يوماً محمد بن طلحة ، ويوماً عبدالله ابن الزبير (١) فذهب ابن الزبير ليصلي فجذبه محمد ، وتقدم للصلاة فمنعه عبد الله ، ورأى الناس أن خير وسيلة لقطع حبل النزاع القرعة فاقترعا فخرج محمد بن طلحة ، فتقدم وصلى بالناس وقرأ في صلاته « سأل سائل بعذاب واقع » وأثارت هذه الصور الهزيلة السخرية عليهم بين الناس ، واندفعوا الى نقدهم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تبارى الغلامان إذ صليا   وشح على الملك شيخاهما
ومالي وطلحة وابن الزبير   وهذا بذي الجذع مولاهما
فأمهمـــا اليوم غرتهمـــا   ويعلي بن منية ولاهما (٢)

ان هذه البادرة تصور مدى تهالك القوم على الامرة والسلطان ، وهم بعد في بداية الطريق فلو كتب لهم النجاح في القضاء على حكم الامام لفتح بعضهم على بعض باب الحرب للاستيلاء على زمام الحكم

رسل الامام الى الكوفة :

وأوفد الامام رسله الى أهل الكوفة يستنجد بهـــم ، ويدعوهم الى

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٧   (٢) الأغاني ١١ / ١٢٠

نصرته ، والقيام معه لاخماد نار الفتنة التي أشعلها المتمردون ، وأقبلت الرسل الى الكوفة فوجدوا عاملها أبا موسى الأشعري يدعو الى الفتنة ، ويخذل الناس عن نصرة امامهم ويدعوهم الى التمرد ، ويحبب لهم العافية، ولم تكن لأبي موسى حجة في ذلك ، وانما كان يعبر عن حقده ، واضغانه على الامام وكان فيما أجمع عليه المؤرخون عثماني الهوى ، وأقبلت رسل الامام على أبي موسى يعنفونه ، ويلومونه ، الا انه لم يعن بهم ، فبعثوا الى الامام رسالة ذكروا فيها تمرده وعدم استجابته لنداء الحق ، وأرسل اليه الامام هاشم المرقال وهو من خيرة أصحاب الامام ، وزوده برسالة يطلب فيها مجيء أبي موسى اليه ، ولما انتهى اليه هاشم وعرض عليه رسالة الامام لم يستجب له وبقي مصمماً على عناده وعصيانه ، فارسل هاشم الى الامام رسالة يخبره فيها بموقف أبي موسى ، وتمرده فبعث الامام ولده الحسن وعمار بن ياسر ومعهما رسالة بعزله ، وتعيين قرضة بن كعب الأنصاري في مكانه ، ولما وصل الامام الحسن الى الكوفة التأم الناس حوله زمراً ، وهم يظهرون له الطاعة والولاء ، واعلن لهم عزل الوالي المتمرد وتعيين قرضة في منصبه الا ان ابا موسى بقي مصمما على غيه يثبط عزائم الناس ويدعوهم الى التخاذل والخروج عن الطاعة ولم يستجب للامام الحسن ، ورأى الزعيم الكبير مالك الاشتر ان الامر لايتم إلا باخراج ابي موسى مهان الجانب فجمع نفراً من قومه اولى بأس شديد فاغار بهم على قصر الامارة ، واخذ الناس ينهبون أمتعته وأمواله ، فاضطر الجبان الى الاعتزال عن عمله ، ومكث ليلته في الكوفة ثم خرج هارباً حتى أتى مكة فاقام مع المعتزلين .

ودعا الامام الحسن (ع) الناس الى الخروج لنصرة أبيه ، وقد نفر معه آلاف كثيرة فريق منها ركب السفن ، وفريق آخر ركب المطي ، وهم مسرورون كأشد ما يكون السرور بنصرتهم للامام .

وطوت الجيوش البيداء تحت قيادة الامام الحسن فانتهوا الى ذي قار حيث كان الامام (ع) مقيماً هناك ، وقد سر (ع) بنجاح ولده وشكر له مساعيه وجهوده ، وانضمت جيوش الكوفة الى الجيش الذي كان مع الامام ، والبالغ عدده أربعة آلاف ، وكان فيهم أربع مائة ممن شهد بيعة الرضوان مع النبي (ص) وقد اسند الامام قيادة ميمنة جيشه الى الحسن ، وقيادة ميسرته الى الحسين (ع) (١) كما كانت جيوشه مزودة باحسن السلاح ، ويقول المؤرخون ان الحسين كان قد ركب فرس جـده (ص) المسمى بالمرتجز (٢) .

التقاء الجيشين :

وتحركت قوات الامام من ذي قار ، وهي على بينة من أمرها فلم تكن مترددة ولا شاكة في أنها على الهدى والحق ، وقد انتهت الى مكان يسمى بالزاوية يقع قريباً من البصرة فأقام فيه الامام ، وقد بادر الى الصلاة وبعدما فرغ منها أخذ يبكي ودموعه تسيل على صفحات وجهه الشريف وهو يتضرع الى الله في أن يحقن دماء المسلمين ، ويجنبه ويلات الحرب ، ويجمع كلمة المسلمين على الهدى والحق .

رسل السلام :

وأوفد الامام (ع) رسل السلام للقاء عائشة وهم زيد بن صوحان

(١) جواهر المطالب في مناقب الامام أبي الحسن (ص٤٣) لشمس الدين أبي البركات من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين .

(٢) وقعة الجمل (ص٣٥) تأليف محمد بن زكريا بن دينار .

وعبيد الله بن العباس ، ولما مثلا عندها : ذكراها بما أمرها الله أن تقر في بيتها وان لا تسفك دماء المسلمين وبالغا في نصيحتها ولو أنها وعت نصيحتها لعادت على الناس بالخير العميم وجنبتهم كثيراً من المشاكل والفتن إلا انها جعلت كلامهما دبر اذنيها وراحت تقول لهما :

« إني لا أرد على ابن أبي طالب بالكلام لأني لا ابلغه في الحجاج . »(١).

وبذل الامام قصارى جهوده في الدعوة الى السلم ، وعدم اراقة الدماء الا أن هناك بعض العناصر لم ترق لها هذه الدعوى وراحت تسعى لاشعال نار الحرب وتقويض دعائم السلم

الدعوة الى القرآن :

ولما باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلها الامام من أجل حقن الدماء ندب الامام أصحابه ، لرفع كتاب الله العظيم ودعوة القوم الى العمل بما فيه ، وأخبرهم أن من يقوم بهذه المهمة فهو مقتول فلم يستجب له أحد سوى فتى نبيل من أهل الكوفة فانبرى الى الامام ، وقال :

« أنا له يا أمير المؤمنين » .

فاشاح الامام بوجهه عنه ، وطاف في أصحابه ينتدبهم لهذه المهمة فلم يستجب له أحد سوى ذلك الفتى فناوله الامام المصحف ، فانطلق الفتى مزهواً لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، وهو يلوح بالكتاب أمام عسكر عائشة ، قد رفع صوته بالدعوة الى العمل بما فيه ولكن القوم قد دفعتهم الأنانية الى الفتك به فقطعوا يمينه ، فاخذ المصحف بيساره ، وهو يناديهم بالدعوة الى العمل بما فيه ، فاعتدوا عليه وقطعوا يساره ، فاخذ المصحف

(١) الفتوح ٢ / ٣٠٦ .

باسنانه وقد نزف دمه ، وراح يدعوهم الى السلم وحقن الدماء قائلاً :
« الله في دمائنا ودمائكم » .

وانثالوا عليه يرشقونه بنبالهم فوقع على الأرض جثة هامدة ، فانطلقت إليه أمه تبكيه وترثيه بذوب روحها قائلة :

يا رب ان مسلماً أتاهم   يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم   وأمــه قائمــة تراهــم

ورأى الامام بعد هذا الاعذر ان لا وسيلة له سوى الحرب فقــال لأصحابه :

« الآن حل قتالهم ، وطاب لكم الضراب » (١) ودعا الامام حضين ابن المنذر وكان شاباً فقال له :

« يا حضين دونك هذه الراية فوالله ما خفقت قط فيما مضى ، ولا تخفق فيما بقي راية أهدى منها إلا راية خفقت على رسول الله (ص) . » .

وفي ذلك يقول الشاعر :

لمن رايــة سوداء يخفق ظلها   اذا قيل قدمها حضين تقدمــا
يقدمها للموت حتى يزيرهــا   حياض المنايا يقطر الموت والدما(٢)

الحرب العامة :

ولما استيأس الامام من السلم عبأ جيشه تعبئة عامة ، وكذلك فعل أصحاب عائشة ، وقد حملوها على جملها (عسكر) وأدخلت هودجها المصفح بالدروع ، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً ، ويقول بعض المؤرخين : ان

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٤٦ .
(٢) أنساب الأشراف ج١ ق١ ص١٨٠ .

الامام الحسين قد تولى قيادة فرقة من فرق الجيش وأنه كان على الميسرة ، وخاض المعركة ببسالة وصمود (١) وكان جمل عائشة فيما يقول بعض من شهد المعركة هو راية أهل البصرة يلوذون به كما يلوذ المقاتلون براياتهم ، وقد حمل الامام عليهم وقد رفع العلم بيسراه ، وشهر في يمينه ذا الفقار الذي طالما ذب به عن دين الله وحارب به المشركين على عهد رسول الله (ص).

واقتتل الفريقان كأشد ما يكون القتال ضراوة يريد أصحاب عائشة أن يحرزوا النصر ويحموا أمهم ويريـد أصحاب علي أن يحموا امامهـم ويموتوا دونه .

مصرع الزبير :

وكان الزبير رقيق القلب شديد الحرص على مكانته من النبي (ص) الا أن حب الملك هو الذي اغراه ودفعه الى الخروج على الامام يضاف الى ذلك ولده عبد الله فهو الذي زج به في هذه المهالك ، وباعد ما بينه وبين دينه ، وقد عرف الامام (ع) رقة طبع الزبير فخرج الى ميـدان القتال ورفع صوته :

– اين الزبير ؟

فخرج الزبير وهو شاك في سلاحه فلما رآه الامام بادر اليه واعتنقه وقال له بناعم القول :

– يا أبا عبد الله ما جاء بك هاهنا ؟ ؟

– جئت أطلب دم عثمان .

فرمقه الامام بطرفه وقال له :

(١) سير اعلام النبلاء ٣ / ١٩٣ .

- تطلب دم عثمان ، !!

- نعم .

- قتل الله من قتل عثمان .

وأقبل عليه يحدثه برفق ، قائلاً :

« أنشدك الله يا زبير ، هل تعلم أنك مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متكيء على يدك ، فسلم علي رسول الله ، وضحك إلي ، ثم التفت إليك فقال لك : يا زبير إنك تقاتل علياً وأنت له ظالم . . » .

وتذكر الزبير ذلك وقد ذهبت نفسه أسى وحسرات ، وندم أشد مايكون الندم على موقفه هذا والتفت الى الامام وهو يصدق مقالته :

- اللهم نعم .

- فعلام تقاتلني ؟

- نسيتها والله . ولو ذكرتها ، ما خرجت إليك ولا قاتلتك (١).

- ارجع .

- كيف ارجع ، وقد التقت حلقتا البطان هذا والله العار الذي لا يغسل ؟

- ارجع قبل أن تجمع العار والنار .

وألوى عنان فرسه ، وقد ملكت الحيرة والقلق أهابه ، وراح يقول :

اخترت عاراً على نار مؤججة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين

نادى علي بأمر لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدين

فقلت حسبك من عذل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني (٢)

وقفل الامام راجعاً الى أصحابه فقالوا له : تبرز الى الزبير حاسراً،

---

(١) الامامة والسياسة ١ / ٧٣ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٤٧ .

وهو شاك السلاح ، وأنت تعرف شجاعته !! فقال (ع) :

« انه ليس بقاتلي ، انما يقتلني رجل خامل الذكر ضئيل النسب غيلة في غير مأقط (١) حرب ولا معركة رجال ، ويل امه أشقى البشر ليود أن أمه هبلت به ، أما أنه وأحمر ثمود لمقرونان في قرن . . . » (٢) .

واستجاب الزبير لنداء الامام فاتجه صوب عائشة فقال لها :

« يا أم المؤمنين إني والله ما وقفت موقفاً قط الا عرفت اين أضع قدمي فيه الا هذا الموقف ؟ !! فاني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر .؟»

وعرفت عائشة تغيير فكرته وعزمه على الانسحاب من حومة الحرب فقالت له باستهزاء وسخرية مثيرة عواطفه .

« يا أبا عبد الله خفت سيوف بني عبد المطلب ؟!! » .

وعاشت هذه السخرية في نفسه فالتفت اليه ولده عبد الله فعيره بالجبن قائلاً :

« انك خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب ، وعرفت ان تحتها الموت فجبنت ؟!! » .

انه لم يخرج على بصيرة ولا بينة من أمره ، وانما خرج من أجل الملك والسلطان ، والتاع الزبير من حديث ولده فقال له :

— ويحك اني قد حلفت له أن لا اقاتله .

— كفر عن يمينك بعتق غلامك سرجس .

فاعتق غلامــه وراح يجول في ميدان الحرب ليرى ولده شجاعته ويوضح له أنه انما فرّ بدينه لا جبناً ولا خوراً ، ومضى منصرفاً على وجهه حتى أتى وادي السباع ، وكان الأحنف بن قيس مع قومه مقيمين هناك ،

---

(١) المأقط : ساحة القتال .

(٢) شرح النهج ١ / ١٣٥ .

فتبعه ابن جرموز فاجهز عليه وقتله غيلة ، وحمل نبأ مقتله الى الامام فحزن عليه كأشد ما يكون الحزن ، ويقول الرواة : انه أخذ سيفه وهو يقول : سيف طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله (ص) وعلى أي حال لقد كانت النهاية الأخيرة للزبير تدعو الى الأسف والأسى ، فقد تمرد على الحق واعلن الحرب على وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه .

مصرع طلحة :

وخاض طلحة المعركة ، وهو يحرض جيشه على الحرب فبصر بـه مروان بن الحكم فرماه بسهم طلباً بثأر عثمان ، فوقع على الأرض يتخبط بدمه ، وكان مروان يقول لبعض ولد عثمان لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة وأمر طلحة مولاه أن يأوي به الى مكان ينزل فيه فأوى به بعد مشقة الى دار خربة من دور البصرة فهلك فيها بعد ساعة .

قيادة عائشة للجيش :

وتولت عائشة قيادة الجيش بعد هلاك الزبير وطلحة ، وقد تفانت بنو ضبة والأزد ، وبنو ناجية في حمايتها ، ويقول المؤرخون انهم هاموا بحبها فكانوا يأخذون بعر جملها ويشمونه ، ويقولون : بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك . وكانوا محدقين به لا يريدون فوزاً ولا انتصاراً سوى حمايتها وان راجزهم يرتجز :

يا معشر الأزد عليكم امكم　　فانها صلاتكم وصومكم

(١) تاريخ ابن الاثير ٣ / ٩٧ .

والحرمة العظمى التي تعمكم　　فاحضروها جـــدكم وحزمكم
لا يغلبن سم العدو سمـــكم　　إن العدو ان علاكم زمـــكم
وخصـــكم بجوره وعمـــكم　　لاتفضحوا اليوم فداكم قومكم(١)

وكانت تحرض على الحرب كل من كان على يمينهـــا ومن كان على شمالها ، ومن كان أمامها ، قائلةً : انما يصبر الأحرار ، وكان أصحاب الامام يلحون على أصحاب عائشة بالتخلي عنها وراجزهم يرتجز :

يا أمنا أعق أم نعلم　　والام تغذو ولدها وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم　　وتختلي منه يد ومعصم

وكان أصحاب عائشة يردون عليهم ويقولون :

نحن بني ضبة أصحاب الجمل　　ننازل القرن اذا القرن نزل
والقتل أشهى عندنا من العسل　　نبغي ابن عفان باطراف الأسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل

واشتد القتال كأشد وأعنف ما يكون القتال ، وكثرت الجرحى وملئت أشلاء القتلى وجه الأرض .

عقر الجمل :

ورأى الامام ان الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً ، فصاح (ع) باصحابه اعقروا الجمل فان في بقائه فناء العرب ، وانعطف عليه الحسن فقطع يده اليمنى وشد عليه الحسين فقطع يده اليسرى (٢) فهوى الى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله ، وفرّ حماة الجمل في البيداء فقد تحطم صنمهم

(١) شرح النهج ٢ / ٨١ .
(٢) وقعة الجمل (ص ٤٤) لمحمد بن زكريا .

الذي قدموا له هذه القرابين ، وأمر الامام بحرقه وتذرية رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها السذج والبسطاء ، وبعد الفراغ من ذلك قال :

« لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني اسرائيل ! ! » .

ومد بصره نحو الرماد الذي تناهبه الهواء فتلا قوله تعالى : « وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا » .

وبذلك فقد وضعت الحرب أوزارها ، وكتب النصر للامام وأصحابه وباءت القوى الغادرة بالخزي والخسران .

وأوفد الامام للقيا عائشة الحسن والحسين ومحمد بن أبي بكر (١) فانطلقوا اليها فمد محمد يده في هودجها فجفلت منه ، وصاحت به .

ـ من أنت ؟

ـ ابغض أهلك اليك

ـ ابن الخثعمية ؟

ـ نعم أخوك البر .

ـ عقوق

ـ هل اصابك مكروه ؟

ـ سهم لم يضرني .

فانتزعه منها ، وأخذ بخطام هودجها ، وأدخلها في الهزيع الأخير من الليل الى دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث فأقامت فيه أياماً .

العفو العام :

وسار علي في أهل البصرة سيرة رسول الله (ص) في أهل مكـــة

---

(١) وقعة الجمل (ص٤٥)

- كما قال (ع) - فآمن الأسود والأحمر - على حد تعبير اليعقوبي - (١) ولم ينكل بأي أحد من خصومه ، وجلس للناس فبايعه الصحيح منهم والجريح ثم عمد الى بيت المال فقسم ما وجد فيه على الناس بالسواء ، وسار (ع) الى عائشة فبلغ دار عبد الله بن خلف الخزاعي الذي أقامت فيه عائشة ، فاستقبلته صفية بنت الحارث شر لقاء فقالت له : يا علي يا قاتل الأحبة ايتم الله بنيك كما أيتمت بني عبد الله ، وكان قد قتلوا في المعركة مع عائشة فلم يجبها الامام ومضى حتى دخل على عائشة ، فأمرها أن تغادر البصرة وتمضي الى يثرب لتقر في بيتها كما أمرها الله ، ولما انصرف اعادت عليه صفية القول الذي استقبلته به فقال لها : لو كنت قاتل الأحبة اقتلت من في هذا البيت ، وهو يشير الى أبواب الحجرات المقفلة ، وكان فيها كثير من الجرحى ، وغيرهم من أعضاء المؤامرة ، قد آوتهم عائشة ، فسكتت صفية ، وأراد من كان مع الامام أن يبطشوا بهم فزجرهم زجراً عنيفاً ، وبذلك فقد منح العفو لأعدائه وخصومه .

وسرح الامام عائشة تسريحاً جميلاً ، وأرسل معها جماعة من النساء بزي الرجال لتقر في بيتها حسب ما أمرها الله ، وقد رحلت عائشة من البصرة وأشاعت في بيوتها الثكل والحزن والحداد ، يقول عمير بن الأهلب الضبي وهو من أنصارها :

لقد أورثتنا حومة الموت أمنا فلم تنصرف الا ونحن رواء
اطعنا بني تيم لشقوة جدنا وما تيم الا أعبد واماء (٢)

لقد أوردت أم المؤمنين ابناءها حومة الموت ، فقد كان عدد الضحايا من المسلمين فيما يقول بعض المؤرخين عشرة آلاف نصفهم من أصحابها ،

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٩ .
(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٥٦ .

والنصف الآخر من اصحاب الامام (١) وكان من اعظم الناس حسرة الامام لعلمه بما تجر هذه الحرب من المصاعب والمشاكل .

متارك الحرب:

واعقبت حرب الجمل افدح الخسائر ، واعظم الكوارث التي ابتلي بها المسلمون ومن بينها ما يلي .

١ ـ انها مهدت السبيل لمعاوية لمناجزة الامام ، والتصميم على قتاله ، فقد تبنى شعار معركة الجمل وهو المطالبة بدم عثمان ولولا حرب الجمل لما استطاع معاوية أن يعلن العصيان والتمرد على حكم الامام .

٢ ـ انها اشاعت الفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد كانت روح المودة والالفة سائدة فيهم قبل حرب الجمل ، وبعدها انتشرت البغضاء بين افراد الاسر العربية فقبائل ربيعة واليمن في البصرة اصبحت تكن اعمق البغض والكراهية لاخوانهم من ربيعة وقبائل اليمن في الكوفة وتطالبها بما اريق من دماء ابنائها بل اصبحت الفرقة ظاهرة شائعة حتى في البيت الواحد فبعض ابنائه كانوا شيعة لعلي والبعض الآخر كانوا شيعة لعائشة ، ويقول المؤرخون : ان البصرة بقيت محتفظة بولائها لعثمان حفنة من السنين ، وان الامام الحسين (ع) انما لم ينزح إليها لما عرفت به من الولاء لعثمان .

٣ ـ انها اسقطت هيبة الحكم ، وجرأت على الخروج عليه ، فقد تشكلت الاحزاب النفعية ، التي لاهمّ لها الا الاستيلاء على السلطة والظفر بخيرات البلاد ، حتى كان التطاحن على الحكم من ابرز سمات ذلك العصر .

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٢٤ وفي رواية ابي العلاء في انساب الاشراف ج١ ق١ ص١٨٠ ان عدد الضحايا عشرون الفاً .

٤ – انها فتحت باب الحرب بين المسلمين ، وقبلها كان المسلمون يتحرجون أشد ما يكون التحرج في سفك دماء بعضهم بعضاً .

٥ – انها عملت على تأخير الاسلام ، وشل حركته ، وايقاف نموه ، فقد انصرف الامام بعد حرب الجمل الى مقاومة التمرد والعصيان الذي اعلنه معاوية وغيره من الطامعين في الحكم مما ادى الى افدح الخسائر التي مني بها الاسلام ، يقول الفيلسوف (وولز) : ان الاسلام كاد ان يفتح العالم اجمع لو بقي سائراً سيرته الاولى ، لو لم تنشب في وسطه مـن اول الأمر الحرب الداخلية ، فقد كان همُّ عائشة ان تقهر علياً قبل كل شيء . »(١)

٦ – واستباحت هذه الحرب حرمة العترة الطاهرة التي قرنها النبي(ص) بمحكم التنزيل ، وجعلها سفن النجاة ، وامن العبـاد ، فمنذ ذلك اليوم شهرت السيوف في وجه عترة النبي (ص) واستحل الاوغاد اراقة دمائهم ، وسبي ذراريهم فلم يرع بنـو أمية في وقعة كربلا اي حرمة للنبي (ص) في ابنائه ، وانتهكوا معهم جميع الحرمات .

هذه بعض متارك حرب الجمل التي جرت للمسلمين افدح الخسائر في جميع فترات التاريخ .

القاسطون :

ولم يكد يفرغ الامام (ع) من حرب الناكثين كما اسماهم رسول الله (ص) حتى جعل يتأهب لحرب القاسطين الذين اسماهـم النبي (ص) بذلك ، ورأى الامام ان يغادر البصرة الى الكوفة ليستعد لحرب عدو عنيف هو معاوية بن ابي سفيان الذي حارب رسول الله (ص) وابلى في حربه أشد

(١) شيخ المضيرة (ص١٧٣)

البلاء وأقواه ، ولم يكن معاوية بأقل تنكراً للاسلام وبغضا لأهله من أبيه ، وكان المسلمون الاولون ينظرون إليها نظرة ريبة وشك في اسلامها ، وقد استطاع بمكره ودهائه أن يغزو قلب الخليفةالثاني ، ويحتل المكانة المرموقة في نفسه فجعله والياً على الشام ، وظل يبالغ في تسديده وتأييده ، وبعد وفاته أقره عثمان وزاد في رقعة سلطانه ، وظل معاوية في الشام يعمل عمل من يريد الملك والسلطان فأحاط نفسه بالقوة واشترى الضمائر ، وسخر اقتصاد بلاده في تدعيم سلطانه ، وبعد الاحداث التي ارتكبها عثمان علم معاوية أنه مقتول لا محالة ، فاستغاث به عثمان حينما حوصر فابطأ في نصره ، وظل متربصاً حتى قتل ليتخذ من قميصه ودمه وسيلة للتشبث بالملك ، وقد دفعه الى ذلك حرب الجمل التي كان شعارها المطالبة بدم عثمان ، فاتخذه خير وسيلة للتذرع لنيل الملك ويقول المؤرخون انه استعظم قتل عثمان وهول أمره ، وراح يبني ملكه على المطالبة بدمه .

وكان الامام (ع) محتاطاً في دينه كأشد ما يكون الاحتياط فلم يصانع ، ولم يحاب ، وانما سار على الطريق الواضح ، فامتنع أن يستعمل معاوية على الشام لحظة واحدة لأن في اقراره على منصبه تدعيا للظلم وتركيزاً للجور .

وعلى اي حال فان الامام بعد حرب الجمل قد غادر البصرة مع قواته المسلحة ، واتجه الى الكوفة ليتخذها عاصمة ومقراً له ، واتجه فور قدومه إليها يعمل على تهيأة وسائل الحرب لمناهضة عدوه العنيف الذي يتمتع بقوى عسكرية هائلة اجمعت على حبه ونصرته ، وكان الشني يحرض الامام ويحفزه على حرب اهل الشام ، بعد ما أحرزه من النصر في وقعة الجمل وقد قال له :

قل لهذا الأمام قد خبت الحر ... ب وتمت بذلك النعماء

وفرغنا من حرب من نكث العهد ... وبالشام حية صماء

تنفث السم مـــا لمن نهشته ــفارمها قبل ان تعض ــشفاه(١)

ايفاد جرير :

وقبل أن يعلن الامام الحرب على غول الشام أوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي يدعوه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون من مبايعته وقد زوده برسالة (٢) دعاه فيها الى الحق من اقصر سبيله ، وباوضح اساليبه ، وفيها الحكمة الهادية لمن اراد الهداية ، وشرح الله صـــدره ، وفجر في فؤاده ينبوع النور ، وانتهى جرير الى معاوية فسلمه رسالة الامام ، والحّ عليه في الوعظ والنصيحة ، وكان معاوية يسمع منه ولايقول له شيئاً ، وانما اخذ يطاوله ويسرف في مطاولته ، لايجد لنفسه مهربـــاً سوى الامهال والتسويف .

معاوية مع ابن العاص :

ورأى معاوية انـــه لن يستطيع التغلب على الاحداث الا اذا انضم إليه داهية العرب عمرو بن العاص فيستعين به على تدبير الحيل ، ووضع المخططات التي تؤدي الى نجاحه في سياسته فراسله طالباً منه الحضور الى دمشق ، وكان ابن العاص فيما يقول المؤرخون : قد وجد على عثمان حينما عزله عن مصر ، فكان يؤلب الناس عليه ، ويحرضهم على الوقيعة به ، وهو ممن مهد للفتنة والثورة عليه ، ولما ايقن بحدوث الانقلاب عليه خرج الى ارض

(١) الاخبار الطوال (ص١٤٥)

(٢) الرسالة في وقعة صفين (ص٣٤)

كان يملكها بفلسطين فأقام فيها ، وجعل يتطلع الاخبار عن قتله .

ولما انتهت رسالة معاوية الى ابن العاص تحير في أمره فأستشار ولديه عبد الله ومحمداً أما عبد الله فكان رجل صـــدق وصلاح فأشار عليه ان يعتزل النـــاس ولا يجيب معاوية الى شيء حتى تجتمع الكلمة ويدخل فيما دخل فيه المسلمون واما ابنه محمد فقد طمع فيما يطمع فيه فتيان قريش من السعة والتقدم ، وذيوع الأسم ، فقد اشـــار عليه بان يلحق بمعاوية لينال من دنياه . فقال عمرو لولده عبد الله ! أما انت فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وقال لولده محمد : أما انت فأمرتني بما هو خير لي في دنيـــاي ، وانفق ليله ساهراً يفكر في الأمر هل يلتحق بعلي فيكون رجلا كسائر المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم من دون ان ينال شيئاً من دنياه ، ولكنه يضمن امر آخرته او يكون مع معاوية فيظفر بتحقيق ما يصبو إليه في الدنيا من الثراء العريض ، وهو لم ينس ولاية مصر فكان يحن إليها حنيناً متصلا ،وقد أثر عنه تلك الليلة من الشعر ما يدل على الصراع النفسي الذي خامره تلك الليلة .

ولم يسفر الصبح حتى آثر الدنيا على الآخرة فاستقر رأيه على الالتحاق بمعاوية ، فارتحل الى دمشق ومعه ابناه فلما بلغها جعل يبكي امام اهل الشام كما تبكي المرأة وهو يقول :

« واعثماناه انعى الحياء والدين » (١) .

قاتلك الله يابن العاص أأنت تبكي على عثمان وانت الذي اوغرت عليه الصدور واثرت عليه الاحقاد ، وكنت تلقي الراعي فتحرضه عليه حتى سفك دمه

لقد بلغ التهالك على السلطة في ذلك العصر مبلغاً انسى الناس دينهم فاقترفوا في سبيل ذلك كل ما حرمه الله .

ولما التقى ابن العاص بمعاوية فتح معه الحديث في حربه مع الامام فقال ابن العاص:

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٢٩ .

« أما علي فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء وان له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش إلا ان تظلمه » .

واندفع معاوية يبين دوافعه في حربه للامام قائلاً :

« صدقت ولكنا نقاتله على ما في أيدينا ، ونلزمه قتلة عثمان » .

واندفع ابن العاص ساخراً منه قائلاً :

– واسوأتاه ان أحق الناس أن لا يذكر عثمان انت ! !

– ولِمَ ويحك ؟ ! !

– أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتى استغاث بيزيد بن أسد البجلي فسار اليه وأما أنا فتركته عياناً وهربت الى فلسطين . . . (١) .

واستيقن معاوية ان ابن العاص لا يخلص له ، ورأى ان من الحكمة أن يستخلصه ويعطيه جزاءه من الدنيا ، فصارحه قائلاً :

– أتحبني يا عمرو ؟

– لماذا ؟ للآخرة فوالله ما معك آخرة ، أم للدنيا . فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها .

– أنت شريكي فيها ؟

– اكتب لي مصر وكورها .

– لك ما تريد .

فسجل له ولاية مصر ، وجعلها ثمناً لانضمامه إليه (٢) في مناهضته لوصي رسول الله (ص) وقد ظفر بداهية من دواهي العرب وبشيخ من شيوخ قريش قد درس أحوال الناس ، وعرف كيف يتغلب على الأحداث .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٦٢ .

(٢) العقد الفريد ٣ / ١١٣ .

رد جرير :

ولما اجتمع لمعاوية أمره واحكم وضعه رد جرير ، وأرسل معه الى الامام رسالة حمله فيها المسؤولية في اراقة دم عثمان ، وعرفه باجماع أهل الشام على حربه إن لم يدفع له قتلة عثمان ، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين .
وارتحل جرير الى الكوفة فأنبأ علياً بامتناع معاوية عليه ، وعظم له أمر أهل الشام ، ورأى الامام ان يقيم عليـــه الحجة مرة أخرى فبعث له سفراء آخرين يدعونه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون إلا أن ذلك لم يجد شيئاً فقد أصر معاوية على غيه وعناده حينما أيقن ان له القدرة على مناجزة الامام ومناهضته .

قميص عثمان :

وألهب معاوية بمكره وخداعه قلوب السذج والبسطاء من أهل الشام حزناً واسى على عثمان فكان ينشر قميصه الملطخ بدمائه على المنبر فيضجون بالبكاء والعويل ، واستخدم الوعاظ فجعلوا يهولون أمره ، ويدعون الناس الى الأخذ بثأره ، وكان كلما فتر حزنهم عليه يقول له ابن العاص بسخرية واستهزاء :
« حرك لها حوارها تحن . »
فيخرج إليهم قميص عثمان فيعود لهم حزنهم ، وقد أقسموا أن لا يمسهم الماء إلا من الاحتلام ، ولا يأتون النساء ، ولا ينامون على الفراش

حتى يقتلوا قتلة عثمان (١) وكانت قلوبهم تتحرق شوقاً الى الحرب للأخذ بثأره ، وقد شحن معاوية أذهانهم بأن علياً هو المسؤول عن اراقة دمه ، وانه قد آوى قتلته ، وكانوا يستنهضون معاويـــة للحرب ، ويستعجلونه أكثر منه .

زحف معاوية لصفين :

وعلم معاوية أنه لابد من الحرب لأن الامام لا يحاب ولا يداهن في دينه ، فلا يقره على ولاية الشام ، ولا يسند له أي منصب من مناصب الدولة ، وانما يقصيه عن جميع أجهزة الحكم لما يعرفه عنه من الالتواء في دينه.

وسار معاوية في جموع أهل الشام ، وقدم بين يديه الطلائع ، وقد أنزل أصحابه أحسن منزل ، وأقربه إلى شريعة الفرات ، وقد احتل الفرات وعدّ هذا أول الفتح لأنه حبس الماء على عدوه ، وبقيت جيوشه رابضة هناك تصلح أمرها ، وتنضم قواها استعداداً للحرب .

زحف الامام للحرب :

وتهيأ الامام للحرب وقام الخطباء في الكوفة يحفزون الناس للجهاد ويحثونهم على مناجزة معاوية بعدما احرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل ، وقد خطب فيهم الامام الحسين (ع) خطاباً رائعاً ومثيراً ، قال فيه بعد حمد الله والثناء عليه :

« يا أهل الكوفة أنتم الأحبة الكرماء ، والشعار دون الدثار جدوا في

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٤١ .

اطفاء ما دثر بينكم ، وتسهيل ما توعر عليكم إلا أن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع فمن أخذلها اهبتها واستعد لها عدتها ، ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وان يهلك نفسه نسأل الله بقوته ان يدعمكم بالفيئة . » (١)

وحفل هذا الخطاب بالدعوة الى استعجال الحرب والاستعداد الشامل لها ، والامعان في وسائلها فان ذلك من موجبات النصر ، ومن وسائل التغلب على الأعداء ، وان اهمال ذلك ، وعدم الاعتناء به مما يوجب الهزيمة والاندحار ، ودل هذا الخطاب على خبرة الامام الواسعة في الشؤون العسكرية والحربية .

وتهيأ الناس بعد خطاب سبط النبي (ص) الى الحرب وأخذوا يجدون في تنظيم قواهم ، ولما تمت عدتهم زحف بهم الامام أمير المؤمنين لحرب ابن أبي سفيان ، وقد قدم طلائعه ، وأمرهم ان لا يبدأوا أهل الشام بقتال حتى يدركهم .

وزحفت كتائب الجيش العراقي كأنها السيل ، وهي على يقين أنها انما تحارب القوى الباغية على الاسلام ، والمعادية لأهدافه ، وقد جرت في أثناء مسيرة الامام أحداث كثيرة لا حاجة الى اطالة الكلام بذكرها فانا لا نقصد بهذه البحوث ان نلم بها ، وانما نشير اليها بايجاز .

احتلال الفرات :

ولم يجد أصحاب الامام شريعة على الفرات يستقون منها الماء الا وهي

(١) شرح النهج ٣ / ١٨٦ .

محاطة بالقوى المكثفة من جيش معاوية يمنعونهم أشد المنع من الاستسقاء من الماء ولما رأى الامام ذلك أوفد رسله الى معاوية يطلبون منه أن يخلي بينهم وبين الماء ليشربوا منه ، فلم تسفر مباحثتهم معه أي شيء ، وانما وجدوا منه اصراراً على المنع يريد أن يحرمهم منه كما حرموا عثمان من المساء ، وأضر الظمأ باصحاب الامام ، وأنبرى الأشعث بن قيس يطلب الأذن من الامام أن يفتح باب الحرب ، ويقهر القوى المعادية على التخلي عن الفرات فلم يجد الامام بُداً من ذلك فاذن له ، فاقتتل الفريقان كأشد مايكون القتال وكتب النصر لقوات الامام فاحتلت الفرات ، وأراد أصحاب الامام أن يقابلوهم بالمثل فيحرمونهم منه ، كما صنعوا ذلك معهم ، ولكن الامام لم يسمح لهم بذلك ، وعمل معهم عمل المحسن الكريم فخلى بينهم وبين الماء .

لقد كان اللؤم والخبث من عناصر الامويين وذاتياتهم فقد أعادوا على صعيد كربلاء ما اقترفوه من الجريمة في صفين فحالوا بين الامام الحسين وبين الماء وتركوا عقائل الوحي ومخدرات الرسالة ، وصبية أهل البيت قد صرعهم العطش ، ومزق الظمأ قلوبهم ، فلم يستجيبوا لأية نزعة انسانية ، ولم ترق قلوبهم فيعطفوا عليهم بقليل من الماء .

رسل السلام :

وكان الامام متحرجاً كأشد ما يكون التحرج في سفك دماء المسلمين فقد جهد على نشر السلام والوئام فأوفد إلى معاوية عدي بن حاتم ، وشبث ابن ربعي ، ويزيد بن قيس ، وزياد بن حفصة يدعونه الى حقن دمـاء المسلمين ، ويذكرونه الدار الآخرة ، ويحذرونه أن ينزل به ما نزل باصحاب الجمل ، ولكن ابن هند لم يستجب لذلك وأصر على الغي والتمرد ، وقد

حمل الامام المسؤولية في قتل عثمان بن عفان ، وقد دفعه الى العصيان ما يتمتع به من القوى العسكرية واتفاق كلمتها واصرارها على الطلب بدم عثمان .

ورجعت رسل السلام وقد اخفقت في سفارتها ، واستبان لهـا أن معاوية مصمم على الحرب ، ولا رغبة له في الصلح ، وأحاطوا الامام (ع) علماً بذلك فجعل يتهيأ للحرب ، ويدعو الناس إلى القتال .

الحرب :

وعبأ الامام أصحابه على راياتهم ، واستعد للقتال ، وقد أمر أصحابه أن لا يبدأوهم بقتال كما عهد لهم في حرب الجمل ، وان لا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ، ولا يمثلوا بقتيل ، ولا يهيجوا امرأة الى غير ذلك من الوصايا التي تمثل شرف القيادة العسكرية في الاسلام .

وجعلت فرق من جيش الامـام تخرج الى فرق من جيش معاوية فيقتتل الفريقان نهاراً كاملاً أو طرفاً منه ، ثم يتحاجزان من دون أن تقع حرب عامة بينهما وقد رجا الامام بذلك أن يثوب معاوية الى الصلح وحقن الدماء ، ودام الأمر على هذا حفنة من الايام من شهر ذي الحجة فلما أطل شهر المحرم ، وهو من الأشهر التي يحرم فيها القتال في الجاهلية والاسلام ، توادعوا شهرهم كله ، واتيح للفريقين أن يلتقوا آمنين ، وقد آمن بعضهم بعضا ولم تقع بينهم أي حرب ، وقد سعت بينهم سفراء السلم إلا أنهـا أخفقت في سعيها ، وقد احتدم الجدال بين الفريقين فأهل العراق يدعون أهل الشام الى جمع الكلمة وحقن الدماء ، ومبايعة وصي رسول الله (ص) والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وأهل الشام يدعون العراقيين الى الطلب بدم عثمان ورفض بيعة الامام ، واعادة الأمر شورى بين المسلمين .

ولما انقضى شهر محرم مضى القوم على الحرب ، ولكنها لم تكن عامة وانما كانت متقطعة تخرج الكتيبة للكتيبة ، والفرقة للفرقة

وسئم الفريقان هذه الحرب المتقطعة ، وتعجلوا الحرب العامـة فعبأ الامام جيوشه تعبأة عامة ، وكذلك فعل معاوية ، والتحم الجيشان التحاماً رهيباً ، واقتتلوا أبرح قتال وأعنفه ، وانكشفت ميمنة جيش الامام انكشافاً بلغ الهزيمة فقاتل الامام ومعه الحسن والحسين (١) وانحاز الامام الى ميسرة جيشه من ربيعة ، فاستماتت ربيعة دون الامام ، وكان قائلهم يقول : لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن اصيب أمير المؤمنين وهو فيكم ، وتحالفت ربيعة على الموت ، وصمدت في الحرب ، ورجعت ميمنة الامام الى حالها بفضل الزعيم مالك الأشتر ، واستمرت الحرب باعنف ما يتصور وقد ظهر الضعف وبان الانكسار في جيش معاوية ، وهمّ معاوية بالفرار لو لا أنه تذكر قول ابن الاطنابة :

أبت لي همتي وأبى بلائي وأقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي واخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وقد رده هذا الشعر الى الصبر والثبات ، كما كان يتحدث بذلك أيام الملك والسلطان .

منع الحسنين من الحرب :

ومنع الامام أمير المؤمنين سبطي رسول الله (ص) من الاشتراك في عمليات الحروب ، فقال (ع) : « املكوا عني هذين الغلامين — يعني

(١) أنساب الأشراف ج١ ق١ .

الحسن والحسين – لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله (ص) » (١) .

لقد حرص الامام (ع) على ريحانتي رسول الله (ص) لأن بهما امتداداً لنسله وابقاءً لذريته .

مصرع عمار :

وعمار بن ياسر من ألمع أصحاب النبي (ص) وأكثرهم جهاداً وبلاءً في الاسلام ، وقد شايع علياً ولازمه بعد وفاة النبي (ص) فقد أيقن أنه مع الحق والحق معه كما قال فيه النبي (ص) وكان في أيام صفين شيخاً قد نيف على التسعين عاماً ، ولكن قلبه وبصيرته كانت بمأمن من الشيخوخة فقد كان في تلك المعركة كأنه في ريعان الشباب ، وكان يحارب راية ابن العاص ، وهو يشير اليها قائلاً : « والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن » وكان يقول لأصحابه لما رأى انكشافهم في المعركة : والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق ، وانهم على الباطل .

ويقول الرواة : إنه جلس مبكراً في يوم من ايام صفين ، وقد ازداد قلبه شوقاً الى ملاقاة رسول الله (ص) وملاقاة أبويه ، فخف الى الامام مسرعاً يطلب منه الاذن في أن يلج الحرب لعله يرزق الشهادة فلم يسمح له الامام بذلك ، وظل يعاود الامام مستأذناً ، فلم تطب نفس الامام بذلك وراح يلح عليه فاذن له ، وأجهش الامام بالبكاء حزناً وموجدة عليه .

وانطلق عمار الى ساحات الحرب وهو موفور القوى ، قد استرد نشاطه وهو جذلان فرح بما يصير اليه من الشهادة ، وقد رفع صوته عالياً :

(١) نهج البلاغة .

« اليوم القى الأحبة محمداً وحزبه . » .

وكان صاحب الراية في الكتيبة التي يقاتل فيها عمار هو هاشم بن عتبة المرقال وكان من فرسان المسلمين وخيارهم وأحبهم للامام وأخلصهم له وكان أعور ، فاتجه نحوه عمار فجعل تارة يدفعه بعنف الى الحرب ويقول له : تقدم يا أعور ، وأخرى يرفق به أشد الرفق ويقول له : احمل فداك أبي وأمي ، وهاشم يقول له : رحمك الله يا أبا اليقظان انك رجل تستخف الحرب ، واني انما ازحف زحفاً لعلي أبلغ ما اريد ، وضجر هاشم فحمل وهو يرتجز :

قد اكثروا لومي وما أقلا   إني شريت النفس لن اعتلا

أعور يبغي نفسه محـــلا   لابـــد أن يفـــل أو يفلا

قد عالج الحياة حتى ملا   أشلهم بـــذي الكعوب شلا

وقد دل هذا الرجز على تصميمه على الموت ، وسئمه من الحياة ، وجال في ميدان القتال ، وعمار معه يقاتل ويرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليـــله

أو يرجع الحق الى سبيله

لقد قاتل عمار بايمان واخلاص المشركين مع رسول الله (ص) وناضل كأشد ما يكون النضال دفاعاً عن كلمة التوحيد ، وقاتل أعنف القتال مع أخي رسول الله (ص) دفاعاً عن تأويل القرآن ودفاعاً عن امام المسلمين فما أعظم عائدة عمار وألطافه على الاسلام .

والتحم عمار مع القوى الغادرة التحاماً رهيباً ، وحمل عليه رجس من أرجاس البشرية يسمى أبو الغادية فطعنه برمحه طعنة قاتلـــة ، فهوى الى الأرض ذلك الصرح الشامخ من العقيدة والايمان يتخبط بدمائه الزكية ،

وقد أضر به العطش فبادرت اليه امرأة بلبن ، فلما رآه تبسم ، وأيقن بدنو أجله ، وراح يقول بنبرات هادئة مطمئنة :

قال لي رسول الله (ص) : آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن وتقتلك الفئة الباغية .

ولم يلبث قليلاً حتى لفظ انفاسه الأخيرة ، وانطوت بموته أروع صفحة مشرقة من الايمان والجهاد ، وارتفع ذلك العملاق الذي أضاء الحياة الفكرية باخلاصه واندفاعه نحو الحق .

وكان الامام أمير المؤمنين (ع) برحاً لم يقر له قرار حينما برز عمار الى ساحة الجهاد ، فكان يقول : فتشوا لي عن ابن سمية ، وانطلقت فصيلة من الجند تبحث عنه ، فوجدوه قتيلاً مضمخاً بدم الشهادة فانبروا مسرعين الى الامام فاخبروه بشهادته ، فانهد ركنه ، وانهـارت قواه ، وسرت موجات من الألم القاسي في محياه ، فقد غاب عنه الناصر والأخ ، ومشى الامام لمصرعه كثيباً حزيناً ، وعيناه تفيضان دموعاً ، وسار معه قادة الجيش وقد أخذتهم المائقة حزناً على البطل العظيم ، ولما انتهى اليه القى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلاً ، وقد انفجر بالبكاء ، وجعل يؤبنه بحرارة قائلاً :

« إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخل عليـه المصيبة الموجعة لغير رشيد .

رحم الله عماراً يوم أسلم .

رحم الله عماراً يوم قُتل .

رحم الله عماراً يوم يُبعث حيا

لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله أربعة إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً ، وما كان أحد من قدمـاء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ، ولا اثنين

فهنيئاً لعمار بالجنة . » .

وأخذ الامام رأسه فجعله في حجره ودموعه تتبلور على خديه .

وانبرى الامام الحسن وغيره فابنوا الشهيد العظيم بقلوب مذابة من الحزن ، ثم قام الامام فواراه في مقره الأخير ، ويقول المؤرخون : ان الفتنة وقعت في جيش معاوية حينما اذيع مقتل عمار فقد سمعوا ان رسول الله (ص) قال في فضل عمار ان الفئة الباغية تقتله ، وقد اتضح لهم انهم الفئة الباغية التي عناها رسول الله (ص) ولكن ابن العاص استطاع أن يزيل الخلاف فقال لهم : ان الذى أخرج عماراً هو الذي قتله ، واذعن بسطاء أهل الشام لما قاله ابن العاص .

واشتد القتال باعنفه بعد مقتل عمار ، وقد تفللت جميع قوى معاوية وبان الضعف في جيشه .

مكيدة ابن العاص :

لعل أبشع مهازل التاريخ البشري في جميع فترات التاريخ هي مكيدة ابن العاص في رفع المصاحف ، وقد وصفها (راو حوست ميلر) بانها من أشنع المهازل وأسوئها في التاريخ البشري (١) وأكاد أعتقد أن هذه المكيدة لم تكن وليدة المصادفة أو المفاجئة ، فقد حيكت اصولها ووضعت مخططاتها قبل هذا الوقت فقد كان ابن العاص على اتصال دائم احيط بكثير من الكتمان مع جماعة من قادة الجيش العراقي في طليعتهم الأشعث بن قيس ، فهما اللذان دبرا هذا الأمر وقد ذهب الى هذا الرأي الدكتور طه حسين قال : « فما استبعد أن يكون الأشعث بن قيس وهو ماكر أهل

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام (ص١٩٠) .

العراق وداهيتهم قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبرا هذا الأمر بينهم تدبيراً ، ودبروا أن يقتتل القوم فان ظهر أهل الشام فذاك ، وان خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فاوقعوا الفرقة بين أصحاب علي وجعلوا بأسهم بينهم شديداً » (١) .

وعلى أي حال فان الهزيمة لما بدت بأهل الشام ، وتفللت جميع قواعدهم فزع معاوية الى ابن العاص يطلب منه الرأي فأشار عليه برفع المصاحف فامر بالوقت برفعها فرفعت زهاء خمسمائة مصحف على أطراف الرماح وتعالت الأصوات من أهل الشام بلهجة واحدة .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته الى خاتمته ، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟ . » .

وكانت هذه الدعوى كالصاعقة على رؤوس الجيش العراقي فقد انقلب رأساً على عقب ، فتدافعوا كالموج نحو الامام وهم ينادون :

« لقد أعطاك معاوية الحق ، دعاك الى كتاب الله فاقبل منه . . » .

ودلهم الامام على زيف هذه الحيلة ، وانها جاءت نتيجة فشلهم في العمليات العسكرية ، وانها لم يقصد بها إلا خداعهم وانهم انما رفعوا المصاحف لا إيماناً بها وانما هو من الخداع والمكر ومما يؤسف له انهم لم يقرروا حق مصيرهم ، ومصير الامة في تلك الفترات الحاسمة من تاريخهم التي اشرفوا فيها على الفتح والنصر ، ولم يبق من دك حصون الظلم ونسف قواعدالجور إلا لحظات .

يا للمصيبة والأسف لقد أصروا على التمرد ، والعناد ، فانحاز منهم اثنا عشر ألفاً وهم أهل الجباه السود ، فخاطبوا الامام باسمه الصريح قائلين:

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٨٩ .

« يا علي : اجب القوم الى كتاب الله إذ دعيت له ، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم . . » .

فكلمهم الامام برقة ولطف ليقلع روح التمرد منهم الا ان كلام الامام ذهب هباءً وراح القوم في غيهم يعمهون ، وهم يصرون على ارغام الامام على ايقاف القتال ، وكان الأشعث بن قيس هو الذي يدفعهم الى ذلك وينادي باعلى صوته بالرضاء والقبول لدعوة أهل الشام .

ولم ير الامام بُداً من اجابتهم ، فاصدر أوامره بايقاف عمليات الحروب ، وقلبه الشريف يتقطع ألماً وحزناً ، فقد أيقن أن الباطل قد انتصر على الحق ، وان جميع متاعبه ودماء جيشه قد ذهبت سدى .

وأصر المتمردون على الامام بسحب مالك الأشتر من ساحة الحرب وكان قد أشرف على الانتصار ، ولم يبق بينه وبين الفتح إلا حلبة شاة ، فارسل إليه الامام بالقدوم إليه فلم يعن بما امر به ، وقال لرسول الامام :

« قل لسيدي : ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي اني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني . . » .

ورجع الرسول فاخبر الامام بمقالة القائد العظيم فارتفعت أصوات اولئك الوحوش بالانكار على الامام قائلين :

« والله ما نراك إلا أمرته ان يقاتل . »

وامتحن الامام في أمرهم كأشد ما تكون المحنة فقال لهم :

« أرأيتموني ساررت رسولي (اليه) ؟ أليس انما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون ؟ » .

وأصروا على الغي قائلين :

« فابعث إليه فليأتيك ، والا فوالله اعتزلناك . . » .

وأجمعوا على الشر ، وأوشكوا أن يفتكوا بالامام فاصدر أوامره المشددة

بانسحاب مالك من ساحة الحرب ، واستجاب الأشتر لأمر الامام فقفل راجعاً وقد تحطمت قواه ، وقال ليزيد الذي كان رسول الامام :

« ألرفع هذه المصاحف – يعني حدثت هذه الفتنة – ؟

« نعم » .

وعرف الأشتر مكيدة ابن العاص فقال :

« أما والله لقد ظننت انها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة انها مشورة ابن العاهرة » .

ألا ترى الى الفتـــح ، الا ترى الى ما يلقون ؟ الا ترى الى الذي يصنع الله لنا ، أينبغي أن ندعْ هذا وننصرف عنه ؟!! » .

وأحاطه يزيد علماً بحراجة الموقف والاخطار الهائلة التي تحف بالامام قائلاً :

« أتحب انك ان ظفرت هاهنا ، وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلم الى عدوه ؟ . . » .

فقال الأشتر مقالة المؤمن :

« سبحان الله : لا والله ما أحب ذلك !! » .

« فانهم قالوا : لترسلن الى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك باسيافنا كما قتلنا ابن عفان ، أو لنسلمنك الى عدوك . . » .

وقفل الأشتر راجعاً قد استولى الحزن على اهابه ، فقد ذهبت اماله ادراج الرياح فتوجه نحوهم يلومهم ويعنفهم ، ويطلب منهم أن يخلوا بينه وبين عدوهم فقد أشرف على النصر والفتح .

ولم يذعن أولئك الممسوخون لمقالة الأشتر فقد اصروا على الذل والوهن قائلين له :

« لا لا » .

« امهلوني عدوة فرس فاني قد طمعت في النصر . » .

« اذن ندخل معك في خطيئتك . . » .

وانبرى الأشتر يحاججهم وينقد ما ذهبوا اليه قائلاً :

« حدثوني عنكم – وقد قتل اماثلكم وبقي ارذالكم – متى كنتم محقين احين كنتم تقتلون أهل الشام ، فانتم الآن حين امسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن في امساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم اذن الذين لا تنكرون فضلهم ، وكانوا خيراً منكم في النار » .

ولم يجد معهم هذا الكلام المشرق فقالوا له :

« دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله ، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا » .

ورد عليهم الأشتر بعنف حينما يئس من اصلاحهم وأخذ يحذرهم من مغبة هذه الفتنة وأنهم لا يرون بعدها عزاً أبداً .

وحقاً انهم لم يروا عزاً ، فقد أفلت من افقهم دولة الحق ، وآل أمرهم الى معاوية فأخذ يسومهم سوء العذاب .

وطلب مالك من الامام أن يناجزهم الحرب فأبى لأن المعارضين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة في جيشه وفتح باب الحرب يؤدي الى أفظع النتائج فان الامة تقع فريسة سائغة بأيدي الامويين .

واطرق الامام برأسه ، وقد طافت به موجات من الآلام ، وأخذ يطيل التفكير في العاقبة المرة التي جرها هؤلاء العصاة للامة ويقول المؤرخون انهم قد اتخذوا سكوته رضى منه بالتحكيم فهتفوا .

« ان علياً أمير المؤمنين قد رضي الحكومة ، ورضي بحكم القرآن » .

والامام غارق في الهموم ، فقد أفلت منه الأمر ، وتمرد عليه جيشه وليس باستطاعته ان يعمل شيئاً ، وقد أدلى (ع) بما مني به ، بقوله :

« لقد كنت أمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت أمس ناهياً فاصبحت اليوم منهياً . . » .

التحكيم :

ولم تقف محنة الامام وبلاؤه في جيشه المتمرد الى هذا الحد من العصيان والخذلان وانما تجاوز الأمر الى أكثر من هذا ، فقد أصر المتمردون بقيادة الأشعث بن قيس على انتخاب أبي موسى الأشعري الذي هو من ألد اعداء الامام وأكثرهم حقداً عليه ، وانما ألحوا على انتخابه لعلمهم بأنه سيعزل الامام عن الحكم وينتخب غيره ممن يحقق أطماعهم ، وقد احتف هؤلاء العصاة بالامام ، وهم يهتفون :

« إنا رضينا بأبي موسى الأشعري » .

وزجرهم الامام ، ونهاهم عن انتخابه قائلاً :

« انكم قد عصيتموني في أول الأمر ، فلا تعصوني الآن ، إني لا أرى أن أولي أبا موسى » .

وأصروا على غيهم وعنادهم قائلين :

« لا نرضى الا به ، فما كان يحذرنا وقعنا فيه » .

وأخذ الامام يدلي عليهم واقع أبي موسى وانحرافه عنه قائلاً :

« إنه ليس لي بثقة ، قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم هرب عني حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه . . » .

وامتنعوا من ترشيح ابن عباس ، فأرشدهم ثانياً الى انتخاب مالك الأشتر فرفضوه وأصروا على انتخاب الأشعري ، ولم يجد الامام بعد هذا بدآً من الرضا والأذعان .

وثيقة التحكيم :

واتفق الفريقان على أن يحكموا ابن العاص من قبل أهـــل الشام ، وأبا موسى الأشعري من قبل العراقيين ، وقد كتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفقوا عليه من الأخذ بما يتفق عليه الحكمان ، وهذا نصها كما رواها الطبري :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي علي على أهل الكوفة ، ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله عز وجل من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل ، وهمـــا أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشي عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه ، العمل على ما في هذه الصحيفة ، وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم ، وغائبهم ، وعلى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامة ، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء الى رمضان ، وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على

تراض منهما ، وإن توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ، ولايألوا من أهل المعدلة والقسط ، وان مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل للكوفة وأهل الشام ، وان رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على مافي هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً اللهم انا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة ، (١) .

ووقع عليها طائفة من الفريقين ، وأصبحت نافذة المفعول ، وقد حققت آمال معاوية وأنقذته من الأخطار التي كادت ان تطوي حياته ، وتقضي على أتباعه .

والشيء المهم في هذه الوثيقة انها اهملت المطالبة بدم عثمان فلم تعرض لا بقليل ولا بكثير وانما كانت تنشد ايقاف الحرب ، ونشر السلم والعافية بين الفريقين ، وفيما اعتقد انها كتبت ولم يكن للامام فيها أي رأي ، فقد خلى بين جيشه وبين ما يريدون

رجوع الامام للكوفة :

وغادر الامام صفين متجهاً الى الكوفة ، ولا اعتقد أن يلم كاتب بتصوير المحنة الكبرى التي المت بالامام ، فقد رجع مثقلا بالهموم يرى باطل معاوية قد استحكم وأمره قد تم ، وينظر الى جيشه اصبح متمرداً يدعوه فلا يستجيب ، ويأمره فلا يطيع قد مزقت الفتنة جميع كتائبه ، فقد كانوا فيما يقول المؤرخون يتشاتمون ، ويتضاربون بالسياط ، ويبغي بعضهم على بعض ، واخطر ما حدث فيه انبثاق الفكرة الحرورية التي ستحدث

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٠ .

عنها فانها كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي واهم من اي خطر داهم عليه ، فقد اخذت تعمل على تفلل وحدة جيش الامام وتديـم الفتنة والخوف بين صفوفه .

ودخل الامام الكوفه فرأى لوعة وبكاءاً قد سادت في جميع ارجائها حزناً على من قتل منها في صفين فأن قتلى صفين بالقياس الى قتلى الجمل كانوا اضعافا اضعافا .

مع المارقين :

ويقول الرواة إن النبي (ص) سمى أهل النهروان بالمارقين ، وانه قد عهد الى الامام امير المؤمنين (ع) بقتالهم كما عهد إليه بقتال الناكثين والقاسطين من بعده .

والظاهرة البارزة في اتجاهات الخوارج هي الالتواء في السلوك ، والاصرار على الجهل والعناد ، فقد بنوا واقعهم على التعصب وعدم التدبر والامعان في حقائق الامور ، وقد كان شعارهم الذي تفانـوا في سبيله وقدموا له المزيد من الضحايا « لاحكم الا لله » ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا الحـكم للسيف فنشروا الارهـاب والخوف والفساد في الارض كما سنذكر ذلك وعلى اي حال. فان الامـام لما نزح من صفين الى الكوفة لم يدخلوا إليها، وانما انحازوا الى (حروراء) فنسبوا إليها ، وكان عددهم فيما يقول المؤرخون اثني عشر الفاً ، وقد جعلوا اميرهم على القتـال شبث بن ربعي وعلى الصلاة عبد الله الكواء اليشكري ، وخلعوا الامام عن الخلافة ، وجعلوا الامر شورى بين المسلمين .

والتاع الامام من تمردهم فاوفد للقياهم عبد الله بن عباس ، وأمره

ان لايخوض معهم في ميدان الخصومة والنزاع حتى يأتيه الا انه لم يجد ُبدآ من الحوار معهم وبينما هو يحاورهم إذ اطل عليهم الامام فنهى ابن عباس عن مناظرتهم ، واقبل عليهم فقال لهم :

اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان اولى بالفلج يوم القيامـــة ، ومن نطق وأوعث فيه فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا ، ثم قال لهم :

– من زعيمكم ؟

– ابن الكواء !

– ما اخرجكم علينا ؟

– حكومتكم يوم صفين

– أنشدكم بالله ، اتعلمون انهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم الى كتاب الله ، قلت لكم : إني اعلم بالقوم منكم ، انهم ليسوا باصحاب دين ، ولا قرآن ، اني صحبتهم وعرفتهم اطفالاً ورجالا ، فكانوا شر اطفال، وشر رجال ، امضوا على حقكم ، وصدقكم ، فانما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ، ودهنا ومكيدة ، فرددتم عليّ رأيي ، وقلتم لا : بل نقبل منهم ، فقلت لكم : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم اياي ، فلما أبيتم الا الكتـــاب اشترطت على الحكمين ان يحييا ما احيا القرآن ، وأن يميتا ما امات القرآن ، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا ان نخالف حكماً يحكم بما في القرآن ، وأن ابيا فنحن من حكمها برآء ،

وابطلت هذه الحجة النيرة جميع اوهامهم ، فهم المسؤلون عن التحكيم، كما هم مسؤلون عن كل ما حدث من الفتنة والفساد وليس للامام ظلع في ذلك ، وايقنوا ان الذنب ذنبهم وليس على الامـــام أي تبعة في ذلك فقالوا له .

– اتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟

- لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لاينطق وانما يتكلم به الرجال .

- خبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟

- ليعلم الجاهل ، ويثبت العالم ، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة .

وسد عليهم الامام كل نافذة ينفذون منها ، ووجد منهم تقارباً واذعانا لمقالته ، فخاطبهم بناعم القول :

« ادخلوا مصركم رحمكم الله . »

فأجابوه الى ذلك ، ورحلوا عن آخرهم معه الى الكوفة ، الا انهم بقوا مصرين على فكرتهم يذيعونها بين البسطاء ، حتى شاع أمرهم ، وقويت شوكتهم واخذوا ينشرون الخوف والارهاب ، ويدعون الى البغي ، وعزل الامام وجعل الأمر شورى بين المسلمين (١)

اجتماع الحكمين :

وانتهت المدة التي عينها الفريقان للتحكيم ، وقد استرد معاوية قواه التي فقدها ايام صفين ، واستحكم أمره ، وقد ارسل الى الامام يطلب منه الوفاء بالتحكيم ، وانما سارع الى ذلك لعلمه بما مني به جيش الامام من الفرقة والخلاف ، ثم هو على علم بأن النتيجة ستكون من صالحه لأن المنتخب للتحكيم هو ابو موسى الأشعري ، وهو على علم بانحرافه عن الامام واشخص الامام أبا موسى الاشعري الى التحكيم ، وارسل اربعمائة من اصحابه جعل عليهم شريح بن هاني ، وعبد الله بن عباس يصلي بهم ، والتقى

(١) حياة الامام الحسن ١/٤٦٩ - ٤٧٢

الحكمان الضالان على حد تعبير النبي (ص) (١) في دومة الجندل او في اذرح ، ويقول المؤرخون إن ابن العاص لم يفتح الحديث مع الاشعري ثلاثة ايام، فقد افرد له مكاناً خاصاً ، وجعل يقدم له اطائب الطعام والشراب حتى استبطنه وارشاه ، ولما ايقن انه صار العوبة بيده اخذ يضفي عليه النعوت الحسنة والالقاب الكريمة حتى ملك مشاعره وعواطفه فقد قال له :

« ياأبا موسى انك شيخ اصحاب محمد (ص) وذو فضلها ، وذو سابقتها ، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الامة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها ، فهل لك ان تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها فأنه يقول : في نفس واحدة ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعاً ، فكيف بمن احيا هذا الخلق كله . »

ومتى كان الاشعري شيخ صحابة النبي (ص) ومن ذوي الفضائل والسوابق في الاسلام ؟ وانخدع الاشعري بهذه الكلمات المعسولة فطفق يسأل ابن العاص عن سبل الاصلاح وحقن الدماء ، فأجابه ابن العاص :

«تخلع انت علي بن ابي طالب ، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان ونختار لهذه الأمة رجلاً لم يحضر في شيء من الفتنة ، ولم يغمس يده فيها . . »

فبادر ابو موسى يسأل عن الرجل الذي لم ينغمس في الفتنة قائلاً :

(١) روى سويد بن غفلة قال : كنت مع أبي موسى الاشعري على شاطيء الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً عن رسول الله (ص) قال : سمعته يقول : ان بني اسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين ضلاّ واضلا من اتبعهما ، ولا تنفك أمر أمتي حتى يبعثوا حكمين يضلان ، ويضلان من اتبعهما ، فقلت له : احذر ياأبا موسي أن تكون أحدهما ، قال : فخلع قميصه وقال : ابرأ الى الله من ذلك كما برأ قميصي من هذا . . جاء ذلك في شرح النهج ١٣ / ٣١٥

« من يكون ذلك ؟ »

وكان ابن العاص قد عرف ميول الاشعري واتجاهاته نحو عبد الله ابن عمر فقال له :

« انه عبد الله بن عمر »

وسرّ الاشعري بذلك واندفع يطلب منه العهود على الالتزام بما قاله

«كيف لي بالوثيقة منك ؟»

« ياأبا موسى الا بذكر الله تطمئن القلوب ، خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى . . »

ولم يبق يميناً الا اقسم على الالتزام بما قاله ، وايقن الاشعري بمقالة ابن العاص فأجابه بالرضا والقبول وعينا وقتاً خاصاً يذيعان فيه ما اتفقا عليه .

واقبلت الساعة الرهيبة التي كانت تنتظرها الجماهير بفارغ الصبر ، واقبل الماكر ابن العاص مع زميله الاشعري الى منصة الخطابة ليعلنا للناس مااتفقا عليه ، واتجه ابن العاص نحو الاشعري فقال له :

— قم فاخطب الناس ياأبا موسي .

— قم انت فاخطبهم .

وراح ابن العاص يخادع الاشعري قائلاً له :

« سبحان الله أنا أتقدمك !! وانت شيخ اصحاب رسول الله ، والله لا فعلت ذلك أبداً . . »

وداخل الاشعري العجب بنفسه من هذه الالقاب الفخمة التي اضفاها عليه ابن النابغة ، وطلب الخامل المخدوع من ابن العاص الايمان أن يفي له بما قال ، فاقسم له على الوفاء بما اتفقا عليه ، (١) ولم تخف هذه

(١) العقد الفريد ٣/٣١٥

الخديعة على حبر الامة عبد الله بن عباس فالتفت الى الاشعري يحذره من مكيدة ابن العاص قائلاً له :

« ويحك والله إني لأظنه قد خدعك ، إن اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الامر قبلك ، ثم تكلم انت بعده ، فان عمرو رجل غادر لا آمن من أن يكون قد اعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك . . »

ولم يعن الغبي بابن عباس ، وانما راح يشتد نحو منصة الخطابة ، فلما استوى عليها حمد الله واثنى عليه ، وصلى على النبي (ص) ثم قال :

« ايها الناس إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الامن والصلاح ولم الشعث ، وحقن الدماء ، وجمع الالفة ، خلعنا علياً ومعاوية وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه » واهوى الى عمامته فخلعها « واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله (ص) بنفسه ، وصحب ابوه النبي (ص) فبرز في سابقته ، وهو عبد الله بن عمر . . » (١)

اف للزمان وتعساً للدهر أن يتحكم في المسلمين أمثال هؤلاء الصعاليك الذين ران الجهل على قلوبهم

لقد عزل الاشعري الامام امير المؤمنين حكيم هذه الامة ، ورائد العدالة الكبرى في الارض ، الذي طوق الدين بعبقرياته ومواهبه ،لقد جعل الاشعري قيادة الأمة بيد عبد الله بن عمر وهو لايحسن طلاق زوجته — على حد تعبير أبيه — انها من مهازل الزمن التي تمثلت على مسرح الحياة العامة في ذلك العصر الذي اخمدت فيه اضواء العقل ، وراح الانسان يسير خلف رغباته وميوله .

وعلى أي حال فقد انبرى الخاتل الماكر ابن العاص الى منصة الخطابة

---

(١) الطبري ٦/٣٩

فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ان أبا موسى عبد الله بن قيس خلع علياً ، وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، وهو اعلم به ، الا واني خلعت علياً معه ، وإثبت معاوية علي وعليكم ، وان أبا موسى ، قد كتب في الصحيفة (١) ان عثمان قد قتل مظلوماً شهيداً وان لوليه أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله بنفسه ، وصحب ابوه النبي (ص) ثم اخذ يثني على معاوية ، ويصفه بما هو ليس اهلاً له ثم قال : هو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان . . » (٢)

واشتد الاشعري نحو ابن العاص بعدما غدر به ونكث عهده فصاح به .

« مالك عليك لعنة الله ! ما انت إلا كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث »

فزجره ابن العاص :

« لكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً » .

وصدق كل منهما في وصف صاحبه ، لقد جر هذا التحكيم الى الأمة كثيراً من المصاعب والفتن ، وأخلد لها الخطوب والويلات .

وماج العراقيون في الفتنة ، وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه ، وانهزم الأشعري نحو مكة يصحب معه العار والخزي له ولذريته (٣) ، فقد غدر في

---

(١) وهي غير الصحيفة التي تم عليها ايقاف القتال .

(٢) أنساب الأشراف ج١ ق١ الامامة والسياسة ١ / ١٤٣ .

(٣) لقد كان الناس يحقرون ذرية ابي موسى ، ويسخرون منهم فقد سمع الفرزدق أبا بردة بن ابي موسى يقول :كيف لا انبختر ، وأنا ابن أحد الحكمين ، فرد عليه الفرزدق قائلاً : اما احدهما فمائق وأما الآخر =

المسلمين غدرة منكرة ، وأكثر شعراء ذلك العصر في هجاء الكوفيين وهجاء الأشعري يقول أيمن بن خريم الأسدي :

او كان للقوم رأى يعصمون به ... من الضلال رموكم بابن عباس
لله در أبيـه أيمـا رجـل ... ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب اخماس لأسداس
ان يخل عمرو به يقذفه في لجج ... يهوي به النجم تيساً بين أتياس
أبلغ لديك علياً غير عاتبه ... قول امرىء لا يرى بالحق من بأس
ما الأشعري بمأمون أبا حسن ... فاعلم هديت وليس العجز كالرأس
فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم ... ان ابن عمك عباس هو الآسي (١)

وظفر معاوية بالنصر ، فقد عاد إليه أهل الشام يسلمون عليه بامرة المؤمنين ، وأما الامام أمير المؤمنين (ع) فقد أغرق جيشه في الفتنة والفرقة والخلاف ، فجعل بعضهم يتبرأ من بعض ، وقد شاع فيهم الخلاف ، وعرفوا وبال ما جنت أيديهم ، فخطب الامام الحسن خطاباً مسهباً دعاهم فيه الى الألفة والمودة ، وكذلك خطب فيهم عبد الله بن عباس ، وعبدالله ابن جعفر ، وقد شجبا في خطابهما التحكيم ودعا الناس الى الطاعة ونبذ الخلاف (٢) وقد استجاب لهم بعض الناس ، وأصر آخرون على التمرد والعصيان .

ولما انتهى خبر التحكيم الى الامام بلغ به الحزن أقصاه فجمع الناس وخطبهم خطاباً مؤثراً صعد فيه آلامه وأحزانه على مخالفة أوامره في ايقاف

= ففاسق فكن ابن ابيها شئت ، جاء ذلك في شرح النهج ١٩/٣٥٣ ، ونظر رجل الى بعض ولد أبي موسى يختال في مشيته فقال الا ترون مشيته ؟ ! كأن أباه خدع عمرو بن العاص

(١) حياة الامام الحسن ١ / ٥٢٩

(٢) أنساب الأشراف ج١ ق١ .

القتال ، والاستجابة لنداء عدوه الذي قضى فيه على ما احرزوه من الفتح والنصر ، يقول (ع) :

والحمد لله وإن أتى الدهـــر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل ، وأشهد أن لاإله إلا الله ، وان محمداً عبده ورسوله . اما بعد . فأن مخالفة الناصح الشفيق المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين ، وهذه الحكومة بأمري ، ونخلت لكم رأيي لو يطاع لقصير رأي . ولكنكم أبيتم الا ما أردتم : فكنت وأياكم كما قال أخو هوازن .

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

الا ان الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهورهما وارتأيا الرأي من قبل انفسهما فأماتا ماأحيا القرآن وأحييا ماأمات القرآن . ثم اختلافا في حكمهما فكلاهما لايرشد ولا يسدد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، واصبحوا في معسكركم يـــوم الأثنين ان شاء الله . . » (١)

وتهيأت قواته المسلحة الى السفر في الموعد الذي ضربه لها ، وكتب الى أهل البصرة يدعوهم الى نصرته فالتحقت به كتائب من الجيش .

تمرد المارقين :

وسافر الامام بأصحابه يريد الشام ، ولكنه لم يلبث حتى وافاته الانباء بتمرد الخوارج وفسادهم ، وانهم عادوا الى فكرتهم ، ويقول المؤرخون ان جماعة منهم خرجوا من الكوفـــة والتحق بهـــم اخوانهم من اهل البصرة ، وساروا جميعاً الى النهروان فاقاموا فيه وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً ،

(١) انساب الاشراف ج ١ ق ١

فأستحلوا دماء المسلمين ، وقالوا بكفرهم ، واجتاز عليهم الصحابي عبد الله بن خباب بن الأرت ، فتصدوا له فسألوه عن اسمه فأخبرهم به ، ثم سألوه عن انطباعاته الخاصة عن الامام امير المؤمنين فاثنى عليه فاستشاطوا غضباً فانبروا إليه فاوثقوه كتافاً ، واقبلوا به وبامرأته وكانت حبلى قد اشرفت على الولادة فجاؤا بهما تحت نخل ، فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم إليها فوضعها في فيه فانكروا عليه فألقاها من فمه ، واخترط بعضهم سيفاً فضرب به خنزيراً لاهل الذمة فقتله فصاح به بعضهم ان هذا من الفساد في الأرض ، فبادر الرجل الى الذمي فارضاه فلما نظر عبد الله الى احتياطهم في الأموال قال لهم :

« لئن كنتم صادقين فيما ارى ما علي منكم بأس ، والله ماأحدثت حدثاً في الاسلام واني لمؤمن ، وقد آمنتموني وقلتم لا روع عليك » .

فلم يعنوا به ، وعمدوا إليه فاقبلوا به الى الخنزير الذي قتلوه فوضعوه عليه ، وذبحوه ، واقبلوا على امرأته ، وهي ترتعد من الخوف فقالت لهم مسترحمة :

« إنما إنا امرأة اما تتقون الله ؟ »

ولم تلن قلوبهم التي طبع عليها الزيغ ، فذبحوها وبقروا بطنها ، وعمدوا الى ثلاثة نسوة فقتلوهن ، (١) وفيهن أم سنان الصيداوية وكانت قد صحبت النبي (ص) ، وجعلوا يذيعون الذعر ، وينشرون الفساد في الارض .

وأوفد لهم الامام الحرث بن مرة العبدي يسألهم عن هذا الفساد الذي احدثوه ويطلب منهم ان يسلموا إليه الذين استحلوا قتل الأنفس التي حرم الله ازهاقها بغير الحق ، ولم يكد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه ولم يدعوه يدلي بما جاء به .

---

(١) انساب الاشراف

قتال المارقين :

وكره اصحاب الامـــام أن يسيروا الى الشام ، ويتركوا من ورائهم الخوارج يستبيحون أموالهم واعراضهم من بعدهم فطلبوا من الامام أن ينهض بهم لماجزتهم فـــاذا فرغوا منهم تحولوا الى حرب معاوية ، فاجابهم الامام الى ذلك وسار بهم حتى اتى النهروان فلمـــا صار بازاء الخوارج ، ارسل إليهم يطلب منهم قتلة عبد الله بن خباب ومن كان معه من النسوة ، كما طلب منهم قتلـــة رسوله الحرث بن مرة ، ليكف عنهم ويمضي الى حرب معاوية ، ثم ينظر في امورهم فاجابوه .

« ليس بيننا وبينك الا السيف الا ان تقر بالكفر وتتوب كما تبنا ! »

فالتاع الامام منهم وانطلق يقول :

« ابعد جهادي مع رسول الله ، وايماني أشهـــد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت إذاً وما انا من المهتدين . . » (١)

وجعل الامام يعظهم تارة ويراسلهم أخرى فجعل كثير منهم يتسللون ، ويعودون الى الكوفة ، وقسم منهم التحق بالامـــام ، وفريق ثالث اعتزل الحرب ، ولم يبق الا ذو الثفنات عبد الله بن وهب الراسبي زعيم الخوارج ، ومعه ثلاثة آلاف .

ولما يئس الامام من ارشادهم عبأ جيشه ، وأمر بأن لايبدوءهم بقتال حتى يقاتلوهم ، ولما نظر الخوارج الى تهيأة الامام تهيأوا للحرب ، وكانت قلوبهم تتحرق شوقاً الى القتال تحرق الظمآن الى الماء وهتف بعضهم « هل من رائح الى الجنة » فتصايحوا جميعـــاً « الرواح الى الجنة » ثم حملوا حملة منكرة على جيش الامام ، وهم يهتفون بشعارهم « لاحكم الا لله » فانفرجت

(١) انساب الاشراف

لهم خيل الامام فرقين ، فرق يمضي الى الميمنة ، وفرق يمضي الى الميسرة ، والخوارج يندفعون بين الفرقين ، ولم تمض الا ساعة حتى قتلوا عن آخرهم ، ولم يفلت منهم الا تسعة (١)

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب الامام من اصحابه أن يلتمسوا له ذا الثدية في القتلى ففتشوا عنه فلم يظفروا به ، فعادوا إليه يخبرونه بعدم ظفرهم به فأمرهم ثانياً أن يبحثوا عنه قائلاً : « والله ما كذبت ولا كُذبت ويحكم التمسوا الرجل فانه في القتلى » فانطلقوا يبحثون عنه ، فظفر به رجل من اصحابه ، وكان قد سقط قتيلاً في ساقية فمضى يهرول فأخبر الامام به فلما سمع النبأ خرّ ساجداً هوْ ومن معه من اصحـــابه ثم رفع رأسه وهو يقول :

« ما كذبت ، ولا كُذبت ولقد قتلتم شر الناس . . »

واخذ الامام يحدث اصحابه بما سمعه من النبي (ص) فيه انه قال : « سيخرج قوم يتكلمون بكلام الحق لايجـــاوز حلوقهم يخرجون من الحق خروج السهم – أو مروق السهم – ان فيهم رجلاً مخدج اليد ، في يده شعرات سود ، فان كان فيهم فقد قتلتم شر النـــاس . . . وأمر الامام بأحضار جثته فأحضرت له فكشف عن يده ، فاذا على منكبه ثدي كثدي المرأة ، وعليها شعرات سود تمتد حتى تحـــاذي بطن يده الأخرى ، فاذا تركت عادت الى منكبه ، فلما رأى ذلك خرّ لله ساجداً ، ثم عمد الامام الى القتلى من الفريقين فدفنهم وقسم بين اصحابه سلاح الخوارج ، ودوابهم ورد الامتعة والعبيد الى اهليهم ، كما فعل ذلك باصحاب الجمل .

وانتهت بذلك حرب النهروان التي تفرعت من واقعـــة صفين ، وقد

---

(١) الملل والنحل ١٥٩/١

اسفرت عن تشكيل حزب ثوري عنيف ظهر في الاسلام ، وهـو حزب الحرورية الذي أخذ على نفسه التمرد على الحكومات القائمة في البلاد الاسلامية ومحاربتها بشكل سافر مما ادى الى اراقة الدماء ،واشاعة الفتنة والخلاف في كثير من تلك العصور .

لقد كان البارزفي الانظمة الدينية للخوارج هو الحكم بكفر كل من لايدين بفكرتهم من المسلمين ، واستباحة دمائهم واموالهم ، وفيما أحسب ان اكثر الجرائم المريعة التي صدرت في معركـة كربلا تستند الى هؤلاء الممسوخين الذين سلبت عنهم كل نزعة انسانية ، فقد تأثر الكثيرون من ذلك الجيش باخلاقهم فاندفعوا الى الجريمة بابشع صورها والوانها .

مخلفات الحرب :

واعقبت تلك الحروب اعظم المحن واشدها هولاً ، ولم يمتحن الامام بها وحده ، وانما امتحن بها العـالم الاسلامي ، فقد اخلدت له الفتن ، وجرت له الكثير من الويلات والخطوب ، ولعل اعظم ماعاناه منها مايلي :

انتصار معاوية :

واتاحت الفرص لمعاوية بعد تلك الأحداث أن يعلن لنفسه لأول مرة بأنه المرشح للخلافة بعد أن كان حاكما على اقليم الشام ، وراح يعلن انتصاره على الامام وتغلبه عليه بقوله : « لقد حاربت علياً بعد صفين بغير جيش ولا عناء أو لا عتاداً (١) واما الامام فقد اصبح بمعزل عن السلطات السياسية

(١) انساب الاشراف ج١ ق١ ص٢٠٠

والعسكرية ، فكان يدعو فلا يسمع لدعوته ، ويقول فلا يلتفت الى قوله

لقد ادت تلك الحروب الى تحول الخلافة الاسلامية الى حكم قيصري لاظل فيه لحكم الاسلام ، ومنطق القرآن ، فقد آل الأمـــر الى معاوية ، فاتخذ مال الله دولا ، وعباد الله خولا ، وارغم المسلمين على ما يكرهون .

تفلل جيش الامام :

وتفللت جميع القوات العسكرية في جيش الامام ، وشاعت الفرقـة والاختلاف فيما بينها ، خصوصاً بعد واقعة النهروان ، فقد انحطت معنويات الجيش يقول البلاذري ان معاوية ارسل عمارة بن عقبة الى الكوفة ليتجسس له عن حالة جيش الامام ، فكتب له خرج على علي اصحـــابه ، ونساكهم فســـار إليهم فقتلهم ، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرقوا أشد الفرقة ، فقال معاوية للوليد بن عقبـــة : انرضى أخوك بأن يكون لنا عينا - وهو يضحك - فضحك الوليد وقـــال : إن لك في ذلك حظا ونفعاً ، وقال الوليد لأخيه عمارة :

إن يك ظني يابن أمي صادقاً   عمارة لايطلب بذ حل ولا وتر
مقيم واقبال ابن عفان حوله   يمشي بها بين الخورنق والجسر
وتمشي رخي البال منتشر القوى   كأنك لم تشعر بقتل ابن عمرو (١)

لقد مُني جيش الامام بالفتنة والخلاف ، ولم يكن باستطاعة الامام بما يملك من طاقات خطابية هـــائلة أن يرجع إليهم حوازب احلامهم ، ويقضي على عناصر الشغب والتمرد التي اصبحت من ابرز ذاتياتهم .

ومما زاد في تمرد الجيش ان معاوية راسل جماعة من زعمـــاء العراق

(١) انساب الاشراف

البارزين كالاشعث بن قيس فمناهم بالاموال ، ووعدهم بالهبات والمناصب اذا قاموا بعمليات التخريب في جيش الامام وشعبه فاستجابوا إليه فقاموا بدورهم في اشاعة الاراجيف ، وتضليل الرأي العام ، وبث روح التفرقة والخلاف بين الناس (١) وقد اثرت دعايتهم تأثيراً هائلاً في اوساط ذلك الجيش ، فقد خلعوا طاعة الامام ، وعمدوا الى عصيانه .

لقد كانت الاكثرية الساحقة في معسكر الامام لهم رغباتهم الخاصة التي تتنافى مع مصلحة الدولة ، وغايات رئيسها في حين أن شعب الشام كان على العكس من ذلك يقول الحجاج بن خزيمة لمعاوية : « انك تقوى بدون ما يقوى به علي لأن معك قوماً لا يقولون اذا سكت ، ويسكتون اذا نطقت ، ولا يسألون اذا امرت ومع علي قوم يقولون اذا قال : ويسألون اذا سكت » (٢)

احتلال مصر :

ولم تقف محنة الامام وبلاؤه عند حد ، وانما اخذت تتابع عليه المحن ، وهي كأشد ما تكون هولاً ، فأنه لم يكد ينتهي من مناجزة المارقين حتى ابتلى في امر دولته فقد أخذ معاوية يحتل اطرافهـــا ، ويغير على بعضها ، ويشيع فيها الخوف والارهاب فقد ايقن بتخاذل جيش الامام ، وما مُني به من الفرقة والاختلاف ، وقد اجمع رأيه على احتلال مصر التي هي قلب البلاد العربية ، وقد جعلها طعمة الى وزيره وباني دولته عمرو بن العاص ليتمتع وحده بخيراتها .

وكان الامام قد ولى على مصر الزعيم الكبير قيس بن سعد الانصاري

---

(١) انساب الاشراف

(٢) الاخبار الطوال (ص١٥٦)

الذي كان من الع الشخصيات الاسلامية في حسن سياسته وعمق تفكيره وبُعد نظره، وقد ساس المصريين أيام المحنة سياسة عدل وحق ، وقضى على الاضطرابات الداخلية ، ونشر المحبة والالفة فيها ، وقد عزله الامام عنها وولى مكانه الطيب محمد بن أبي بكر ، فاضطرب أمر مصر ، وظهرت الدعوة العثمانية فيها فعزل الامام محمداً عنها وولى مكانه مالك الأشتر النخعي الذي هو من انصح الناس للامام واكثرهم اخلاصاً له الا انه لم يكد ينتهي الى (القلزم) حتى مات واجمع المؤرخون على ان معاوية قد اغوى صاحب الخراج في (القلزم) فدس إليه سماً في شربة من عسل فمات بها ، وكان معاوية وصاحبه ابن العاص يتحدثان بعد ذلك ، ويقولان : إن لله جنوداً من عسل .

وجهز معاويه جيشاً لاحتلال مصر ، وأمرّ عليه ابن العاص ، ولما علم الامام ذلك أقر محمداً على مصر ، ووعده بأن يمده بالجيش والمال ، واخذ يدعو أهل الكوفة لنجدة اخوانهم في مصر ، فلم يستجيبوا له ، وجعل الامام يلح عليهم ويطلب منهم النجدة فاستجاب له جند ضئيل كانما يساقون الى الموت فارسلهم الى مصر ، ولكنه لم يلبث ان وافته الانباء بان ابن العاص قد احتل مصر ، وان عامله محمداً قد قتل وأحرقت جثته في النار ، فرد جنده ، وخطب أهل الكوفة خطاباً مثيراً ندد بهم ، ونعى عليهم تخاذلهم وخور عزائمهم .

وعلى اي حال فان احتلال مصر قد قوى شوكة معاوية ، ودفعه الى ان يغزو اهل العراق في عقر دارهم

الغارات :

ولم يقنع معاوية بما احرزه من النصر في احتلاله لمصر ، وانما راح يشيع الذعر والهلع في البلاد الخاضعة لحكم الامام ليشعر اهلها بأن علياً قد ضعف سلطانه ، وانه لايتمكن على حمايتهم ورد الاعتداء عنهم ، وقد شكل قطعاً من جيوشه ، وعهد إليها ان تتوغل في البلاد ، وتشيع فيها الفساد والقتل ، وقد ولى عليها جماعة من السفاكين الذين تمرسوا في الجرائم ، وتجردوا من كل نزعة انسانية ، وعهد لكل واحد منهم ان يقتل كل من كان شيعة للامام ، ويغير على جهة خاصة بسرعة خاطفة ، ونعرض — بايجاز — الى بعض تلك الغارات .

الغارة على العراق :

وشكل معاوية اربع قطع للغارة على اطراف العراق وداخله ليملأ قلوب العراقيين فزعاً وخوفاً حتى لايستجيبوا للجهاد اذا دعاهم الامام إليه ، وهذه بعض المناطق العراقية التي غار عليها .

١ — عين التمر :

وارسل معاوية النعمان بن بشير الانصاري في الف رجل الى عين التمر ، وكان فيها مالك بن كعب ، ومعه كتيبة من الجيش تبلغ الف رجل الا انه لم يعلم بغزو اهل الشام له ، فاذن لجنده باتيان اهلهم في الكوفة وبقي في مائة رجل ، ولما دهمه جيش معاوية قاومه مقاومة باسلة ، وتوجهت

له نجدة تبلغ خمسين رجلاً فلما رآهم النعمان فزع وولى هارباً فقـد ظن ان لهم مدداً ولما بلغت الامام انباء هذه الغارة قام خطيباً في جيشه يدعوهم الى نجدة عامله فقال (ع) :

« يا أهل الكوفة كلما اطلت عليكم سرية وأتاكم منسر من مناسر أهل الشام اغلق كل امرء منكم بابه قد انحجر في بيته انحجار الضب في جحره والضبع في وجارهـا ، الذليل والله من نصرتموه ، ومن رضي بكم رمى بافوق ناصل ، فقبحا لكم وترحا ، وقد ناديتكم ، وناجيتكم ، فلا احرار عند اللقاء ، ولا اخوان (١) عند النجا ، قد منيت منكم بصم لايسمعون ، وبكم لايعقلون ، وكمه لايبصرون » (٢)

٢ – هيت :

ووجه معاوية للغارة على هيت سفيان بن عوف وضم إليه ستة الاف ، وأمره ان يأتي بعد الغارة عليها الى الانبار والمدائن فيوقع بأهلها ، وسار بجيشه الى هيت فلم يجد بها أحداً فانعطف نحو الانبار ، فوجد بها مسلحة للامام تتكون من مائتي رجل فقاتلهم وقتل اشرس بن حسان البكري مع ثلاثين رجلاً من اصحابه ، ثم نهبوا ما في الانبار من اموال ، وتوجهوا الى معاوية ، وهم مسرورون بما احرزوه من النصر ، وبما نهبوه من الاموال (٣) وبلغت انباء الانبار علياً فأثارته الى حد بعيد ، وبلغ به الغيظ اقصاه ، وكان عليلا لايمكنه الخطاب فكتب كتاباً قرأ على الناس ، وقد ادنى من السدرة ليسمع القراءة (٤) وهذا نصه :

---

(١) في الطبري « ولا اخوان ثقة »

(٢) انساب الاشراف

(٣) تاريخ ابن الاثير ٣/١٨٩

(٤) انساب الاشراف

« اما بعد : فان الجهاد باب من ابواب الجنة فمن تركه رغبة عنه البس ثوب الذلة ، وشمله البلاء ، ودبث بالصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف ، وقد دعوتكم الى جهاد هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وعلانية وسراً ، وأمرتكم أن تغزوهم قبل ان يغزوكم فانه ماغزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا ، فتوا كلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، وعصيتم أمري واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شنت عليكم الغارات من كل ناحية ، هذا أخو غامد قد وردت خيله الانبار فقتل ابن حسان البكري ، وأزال مسالحكم عن مواضعها وقتل منكم رجالا صالحين ، ولقد بلغني أن الرجل من أهل الشام كان يدخل بيت المسلمة والأخرى المعاهدة فيأخذ حجلها وقلبها وقلادتها ، فيا عجبا يميت القلب ، ويجلب الهم ، ويسعر الأحزان من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم فقبحاً وترحا حيث صرتم غرضاً يرمى ، يغار عليكم فلا تغيرون ، ويعصى الله فترضون ، اذا قلت لكم : اغزوا عدوكم في الحر قلتم هذه حمارة القيظ من يغزوا فيها ؟ امهلنا ينسلخ عنا الحر ، واذا قلت : اغزوهم في انف الشتاء قلتم الحر والقر ، فكل هذا منكم فرار من الحر والقر ؟ فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ، حلوم الاطفال وعقول ربات الحجال ، لوددت أني لم اركم ، وان الله اخرجني من بين اظهركم ، فلقد ملئتم صدري غيظا وجرعتموني نغب التهمام انفاساً ، وافسدتم عليّ رأيي بالعصيان ، حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب ، لله ابوهم وهل منهم أحد اشد لها مراساً وقعاسا مني لقد نهضت فيها وقد بلغت العشرين (١) فهأناذا قد ذرفت على الستين ، ولكن لارأي لمن لايطاع . » (٢)

(١) في رواية « ومابلغت العشرين »

(٢) انساب الاشراف

وقد صور هذا الخطاب ما في نفس الامام من غيظ ممض ، ويأس شديد من اصحابه الذين امتلأت قلوبهم خوفاً وذلا من أهل الشام فتخاذلوا وقبعوا في بيوتهم يطاردهم الفزع ، حتى فسد على الامام أمره ،

٣ – واقصة :

ووجه معاوية الضحاك بن قيس الفهري الى واقصة ليغير على كل من كان فيها من شيعة الامام وضم إليه ثلاثة آلاف رجـــل ، فسار الضحاك فنهب أموال الناس ، وقتل كل من ظن أنه على طاعة الامام ، وسار حتى انتهى الى القطقطانة ، وهو يشيع القتل والارهاب ثم ســـار الى السماوة ، وبعدها ولى الى الشام ، ولما وافت الانباء الامام (ع) قام خطيباً في جيشه وقد دعاهم الى صد هذا الاعتداء فلم يستجب له أحد ، فقال (ع) :

« وددت والله ان لي بكل عشرة منكم رجلاً من أهل الشام ، واني صرفتكم كما يصرف الذهب واوددت أني لقيتهم على بصيرتي فأراحني الله من مقاساتكم ومداراتكم . »

وسار الامام وحده نحو الغريين لصد هذا الاعتداء فلحقه عبد الله بن جعفر بداية فركبهـــا ، ولما رأى الناس ذلك خف إليه بعضهم ، فسرح (ع) لطلب الضحاك حجر بن عدي في اربعة آلاف ، وسار في طلبه فلم يدركه فرجع (١)

لقد اخذت غارات معاوية تتوالى على العراق ، من دون ان تتعرض لأي مقاومة تذكر ، وقد ايقن معاوية بالنصر ، والظفر لما مني به اصحاب الامام من التخاذل .

---

(١) انساب الاشراف

الغارة على الحجاز واليمن :

وبعث معاوية بسر بن أبي ارطاة في ثلاثة آلاف للغارة على الحجاز واليمن فاتجه نحو يثرب فلم يجد من أهلها أية مقاومة ، فصعد المنبر ورفع عقيرته يندب عثمان وينشر الرعب والارهاب بين الناس .

وأخذ البيعة من أهلها لمعاوية ، ثم سار الى اليمن ، وكان عليها عبيدالله ابن عباس عاملاً للامام ، فهرب منه حتى أتى الكوفة ، فاستخلف الامام عليها عبد الله الحارثي فقتله بسر ، وقتل ابنه ، وعمد الى طفلين لعبيد الله فقتلهما ولما انتهى خبرهما الى امهما فقدت وعيها ، وراحت ترثيهما بذوب روحها بأبياتها المشهورة (١) .

لقد قام سلطان معاوية على قتل الأبرياء ، وذبح الأطفال ، واشاعة الرعب والفزع في البلاد .

ولما انتهت الأنباء الأليمة الى الامام خارت قواه ، ومزق الأسى قلبه وراح يخطب في جيشه يذكر ما عاناه من الخطوب والكوارث منهم قائلاً :

« انبئت بسراً قد اطلع اليمن (٢) واني والله لأظن ان هؤلاء القوم سيدالون (٣) منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم امامكم في الحق وطاعتهم امامهم في الباطل ، وبأدائهم الأمانة الى صاحبهم وخيانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم ، وفسادكم ، فلو أئتمنت أحدكم على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٣ .

(٢) اطلع اليمن : بلغها واحتلتها قواته .

(٣) سيدالون : أي ستكون لهم الدولة بسبب اجتماع كلمتهم ، واختلاف رأي العراقيين .

قعب (١) لخشيت أن يذهب بعلاقته (٢) اللهم اني قد مللتهم وملوني ، وسئمتهم وسئموني فابدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً مني ، اللهم مث في قلوبهم كما يماث الملح في الماء أما والله لوددت ان لي الف فارس من بني فرس ابن غنم (٣) :

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل ارمية الحميم

ثم نزل عن المنبر (٤) وهو غارق بالهموم والأحزان قد استولى اليأس على نفسه من أصحابه الذين أصبحوا أعصاباً رخوة خالية من الشعور والاحساس

هذه بعض الغارات التي شنها معاوية على العراق وخارجه من الأقاليم الاسلامية الخاضعة لحكم الامام ، وكان المقصود منها زعزعة هذه المناطق من ايمانها بمقدرة الامام على حمايتها من الاعتداء ، واذاعة مقدرة معاوية وقوته العسكرية ، وتقوية الروح المعنوية في جيشه ، وحزبـــه المنتشر في تلك البلاد .

وعلى أي حال فقد صورت هذه الغارات جانباً كبيراً من الضعف والتمرد في جيش الامام ، حتى طمع معاوية في شن هجوم عام على العراق لاحتلاله ، والقضاء على حكومة الامام ، ومن المؤكد أنـــه لو فعل ذلك لوجد الطريق سهلاً ، ولم يجد أية صعوبة أو مقاومة تذكر ، فقد خلد القوم الى الراحة ، وسئموا من الجهاد .

---

(١) القعب : بالضم القدح الكبير .
(٢) علاقته : بكسر العين ما يعلق به القعب من ليف ونحوه .
(٣) بنو فرس : قبيلة عربية مشهورة بالشجاعة والاقدام .
(٤) نهج البلاغة محمد عبده ١ / ٦٠ .

عبث الخوارج :

وتواكبت المحن الشاقة على الامام يقفو بعضها بعضا ، فغارات معاوية متصلة على العراق وخارجه ، وهي تنشر الرعب والهلع في قلوب المواطنين والامام لا يتمكن على حماية الأمن ، وصيانة الناس من الاعتداء قد خلع جيشه يد الطاعة وأعلن العصيان والتمرد ، ولم يعد له أي نفوذ أو سلطان عليه

ومن تلك المحن الشاقة التي ابتلي بها الامام هي فتنة الخوارج فانه لم يقض عليهم في النهروان ، وانما قضى على جماعة منهم ، وبقي أكثرهم يعيشون معه ، وهم يكيدون له ، ويتربصون به الدوائر ، ويحولون قلوب الناس عنه ، قد امنوا من بطشه واستيقنوا انه لن يبسط عليهم يـداً ، ولا ينزل بهم عقوبة ، وقد أطمعهم عدله ، وأغراهم لينه فراحوا يجاهرون بالرد والانكار عليه ، فقد قطع بعضهم عليه خطبته تالياً قوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فاجابه الامام بآية اخرى « فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » وجاءه الخريت ابن راشد السامي في ثلاثين من أصحابه فقال له : يا علي والله لا أطيع أمرك ، ولا اصلي خلفك ، واني غداً مفارق لك ، فلطف به الامام وحاججه

وخلى بينه وبين حريته ، فلم يسجنه ، وانما ترك له الطريق مفتوحاً وولى الرجل الى قومه من بني ناجية فأخبرهم بما كان بينه وبين الامام ، ثم خرج في الليل يريد الحرب وجرت أحداث كثيرة في خروج الخريت وتمرده ذكرها المؤرخون بالتفصيل .

وعلى أي حال فان المسؤولية الكبرى في كثير من الأحداث المفزعة التي مني بها العالم الاسلامي تقع على الخوارج فهم الذين قضوا على مصير

الأمة في أهم الفترات الحاسمة من تاريخها حينما كتب النصر للامام ، وباء معاوية بالهزيمة والفشل ، بحيث لم يبق من حياته إلا فترة يسيرة من الزمن قدرّها قائد القوات العسكرية في جيش الامام مالك الأشتر ، بحلبة شاة أو بعدوة فرس ، فأضاعوا ذلك النصر الكبير وأرغموا الامام على قبول التحكيم

دعاء الامام على نفسه :

وطافت بالامام موجات رهيبة ومذهلة من الأحداث والأزمات فهو يرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قــد تم ، ويرى نفسه في ارباض الكوفة قد احتوشته ذئاب العرب الذين كرهوا عدله ، ونقموا عليه مساواته وعملوا جاهدين على الحيلولة بينه وبين تحقيق آماله من القضاء على الاثرة والاستعلاء والطغيان .

والشيء الوحيد الذي أقض مضجع الامام هو تمزق جيشه ، وتفلل جميع وحداته ، فقد أصبح بمعزل عن جميع السلطات ، وقد نظر (ع) الى المصير المؤلم الذي سيلاقونه من بعده فقال :

« أما انكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيفاً قاطعاً ، واثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة ، فيفرق جماعتكم ، ويبكي عيونكم ، ويدخل الفقر بيوتكم وتتمنون عن قليل انكم رأيتموني فنصرتموني ، فستعلمون حق ما أقول لكم ، ولا يبعد الله إلا من ظلم وأثم .. » (١) .

ولم يجد نصح الامام معهم شيئاً فقد تمادوا في الغي ، وعادت لهم جاهليتهم الرعناء .

وقد سئم الامام منهم وراح يتمنى مفارقة حياته فكان كثيراً ما يقول

---

(١) أنساب الاشراف ج١ ق١ ص٢٠٠ .

في خطبه : « متى يبعث أشقــاها » واخذ يلح بالدعاء ، ويتوسل الى الله بقلب منيب أن يريحه منهم فقد روى البلاذري عن أبي صالح قال شهدت علياً ، وقد وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق وهو يقول :

« اللهم إني سألتهم مافيه فمنعوني ذلك ، اللهم إني قد مللتهم وملوني ، وابغضتهم وابغضوني ، وحملوني على غير خلقي ، وعلى اخلاق لم تكن تعرف لي ، فأبدلني خيراً لي منهم ، وابدلهم بي شراً ، ومث قلوبهم ميث الملح . . »(١)

واستجاب الله دعاء وليه العظيم فنقله بعد قليل الى حضيرة القدس مع النبيين والصديقين واراحه من ذلك المجتمع الذي كره الحق ، ونقم على العدل ، وقد سلط الله عليهم ارجاس البشرية فأخذ وا يمعنون في ظلمهم واذلالهم ، فيأخذون البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتلون على الظنة والتهمة ، فاستيقظوا عند ذلك ، واخذوا يندمون أشد الندم على ما اقترفوه من الاثم تجاه الامام وما فرطوا به من عصيانه وخذلانه .

هذه بعض مخلفات تلك الحروب التي امتحن بها الامام كأشد ما يكون الامتحان قسوة وارهاقا ولم يمتحن بها وحده ، وانما امتحن بها العالم الاسلامي بأسره ، فقد اخلدت للمسلمين المشاكل والخطوب والفتن في شر عظيم .

لقد واكب الامام الحسين (ع) هذه الاحداث المفزعة التي جرت على أبيه ، ووقف على واقعها ، وقد استبــان له كراهية القوم لأبيه لأنه لم يداهن في دينه ، واراد أن يحمل الناس على الحق المحض والعدل الخالص ، ولايدع محروماً ، ولامظلوماً في البلاد .

وعلى اي حال فان هذه الحروب قد ساهمت مساهمة ايجابية في خلق كارثة كربلاء التي لم تأت الا بعد انهيار الاخلاق ، وأمــاتة الوعي الديني والاجتماعي ، واشاعة الانتهازية والتحلل بين افراد المجتمع ، فقد سيطرت

---

(١) انساب الاشراف ج١ ق١.

الرأسمالية القرشية على الشؤون الاجتماعية فأخذت تعيث فساداً في الارض وتنقض جميع ما اقامه الاسلام من صروح للفضيلة والاخلاق ، وكان من اسوء ماقامت به انهـــا عملت جاهدة على اشاعة العداء والكراهية لأهل البيت (ع) الذين هم مصدر الوعي والاحساس في هذه الأمة .

فقد عمدت بشكل سافر الى تقطيع اوصالهم على صعيد كربلا ، وابادتهم ابادة جماعية بصورة رهيبة لم يحدث لها نظير في تأريخ الانسانية .

أُوَّل دَوْلَة الحَق



وليس في تأريخ هذا الشرق ولا في غيره حاكم كالامام امير المؤمنين(ع) في عدله ونزاهته ، وايثاره للحق على كل شيء ، فقد كان - فيما اجمع عليه المؤرخون - لم يخضع لاية نزعة عاطفية ، ولم يستجب لأي هوى مطاع ، وانما سار على الطريق الواضح ، والمنهج السليم الذي سلكه رسول الله (ص) فلم يحاب ، ولم يداهن في دينه ، وتبنى النصح الخالص لجميع المسلمين ، وقد حاول جاهداً ايام حكومته ان يرفع راية الاسلام ، ويحقق مبادئه التي كان منها رفع الحيف والظلم ، ومنع الاستغلال ، وازالة الفوارق بين ابناء المسلمين وكان من اعظم ماعني به وضع اموال الدولة في مواضعها فلم ينفق اي شيء منها الا على مرافقها التي عينها الاسلام ، وما تاجر بها ، ولو اشترى بها العواطف والضمائر - كما كان يفعل معاوية - لما تنكر عليه النفعيون في جيشه كالاشعث بن قيس وغيره من اقطاب الخيانة والعمالة .

لقد احتاط في اموال الدولة كاشد ما يكون الاحتياط ، واجهد نفسه وحملها من امره رهقا من اجل أن يبسط العدل الاقتصادي بين الناس ، يقول عبدالله بن رزين : دخلت على علي يوم الاضحى فقرب ، إلينا حريرة ، فقلت له : اصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط فان الله قد اكثر الخير ، فقال : يابن رزين سمعت رسول الله (ص) يقول : لايحل للخليفة من مال الله الا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يضعها بين يدي الناس (١) وقد نقم على سياسته كل من استسلم لدوافع المادة وشهواتها ، فراحوا يعملون جاهدين للاطاحة بحكومته ، وتشكيل حكومة تضمن مصالحهم الاقتصادية والسياسية .

ومن المؤكد ان الامام كان يعلم كيف يجلب له الطاعة ، وكيف يبسط

---

(١) جواهر المطالب في مناقب الامام ابي الحسن (ص ٤٣) لشمس الدين ابو البركات ، من مصورات مكتبة الامام امير المؤمنين

سلطانه ونفوذه على اولئك الذين نقموا عليه ، ولكن ذلك لايتم الا بان يداهن في دينه فيوارب ويخادع ويعطي المال في غير حقه ، فيكون كبقية عشاق الملك والسلطان ، ومن الطبيعي ان الانحراف عن الحق ، والمتاجرة بمصالح الأمة مما يأباه علي وتأباه مثله العليـــا ، فلا السلطة تغريه ولا اجتماع الناس حوله تزيده عزة ، ولاتفرقهم عنه تزيده وحشة كما كان يقول .

لقد كان الامام يؤمن ايماناً خالصاً بالدين ، ويرى من الضرورة أن يكون هو المسيطر على قلوب الناس وتفكيرهم ، وان لايكون هناك اي ظل للمنافع والاهواء ، ومما لاشك فيه ان هذاالنوع الخالص من الايمان لم يتحقق الا للقلة القليلة من اصحابه كحجر بن عدي ومالك الأشتر وعدي بن حاتم وميثم التمار ونظرائهم ممن تغذوا بهديـــه ، وهم الذين قرؤا القرآن فاحكموه ، وتدبروا الفرض فاقاموه احيوا السنة واماتوا البدعة - على حد تعبيره - اما الأكثرية الساحقة من جيشه وشعبه فانهم لم يعوا اهدافه ومبـــادئه ، وجهلوا القيم العليـــا في سياسته المشرقة التي كانت تهدف الى ضمان حقوق المظلومين والمضطهدين .

لقد تحرج الامام في سلوكه السياسي فاخضع سياسته العامة للقيم الدينية والخلقية ، فبسط الحق بجميع رحابه ومفاهيمه ، ولم يعد اي نفوذ للاقوياء ، ولأسلطان للرأسمالية القرشية التي كانت تعتبر السواد بستاناً لقريش .

وقد هبت القوى المنحرفة عن الحق في وجه الامام فاشعلت نـــار الحرب ، واوقفت مسيرة الامام في تطبيق العدل الاجتماعي ، ووضعت السدود والحواجز في طريقه ، وقد وقف الامام العظيم ملتاعـــاً حزيناً ، قد احتوشته ذئاب الإثرة والاستغلال ، وتناهبت مشاعره الاحداث المفزعة التي تواكبت عليه ، وكان من افجعهـــا الفتن الداخلية التي كانت تثيرها الخوارج الذين كانوا يعيشون معه وهم يجاهرونه بالعداء ، وينشرون الفتن والاختلاف ، ويتربصون

الفرص للخروج عليه .

مؤتمر مكة :

ونزح فريق من الخوارج الى مكة ، فعقدوا فيها مؤتمراً عرضوا فيه مصارع اخوانهم الذين قتلوا في النهروان ،كما عرضوا فيه الاحداث الجسام التي يواجهها العالم الاسلامي ، والتي ادت الى اختلافه وتفككه ، وعزوها الى ثلاث – حسب مايزعمون – الامام علي ، ومعاوية وعمرو بن العاص ، وقد عقدوا النية بعد تبادل الرأي على القيام باغتيالهم ، وانبرى لتنفيذ هذا المخطط كل من .

١ – عبد الرحمن بن ملجم تعهد بقتل الامام علي .

٢ – الحجاج بن عبد الله الصريمي تعهد بقتل معاوية .

٣ – عمرو بن بكر التميمي التزم بقتل ابن العاص .

وقد اتفقوا على القيام بعملية الاغتيال في ليلة الثامن عشر من رمضان ساعة خروج هؤلاء الثلاثة الى صلاة الصبح ، وقد اقاموا بمكة اشهراً ، واعتمروا في رجب ، ثم تفرقوا وقصدُ كل واحد لتنفيذ ما عهد إليه .

رأي رخيص :

من الآراء الزائفة التي تحملها بعض الكتب ما ذهب إليه الدكتور بديع شريف من اتهام الفرس بقتل علي (١) وهل وقف الدكتور على نسب ابن ملجم ، وانه كان فارسياً ؟ أليس هو من مراد احدى القبائل

(١) الصراع بين الموالي والعرب (ص٣٢ – ٣٣)

العربية التي كانت تقطن في الكوفة ، وعلق الدكتور نوري جعفر على هذا الرأي بقوله : « ومن يدري فلعل حب الفرس لعلي هو الذي جعل هؤلاء الكتاب يبغضونهم ، ويكيلون لهم التهم بغير حساب » (١)

اشتراك الأمويين في المؤامرة :

وذكر المؤرخون هذا الحادث الخطير بشيء كثير من التحفظ فلم يكشفوا النقاب عن ابعاده ، والذي نراه في كثير من الترجيح ان المؤامرة لم تكن مقتصر على الخوارج ، وانما كان للحزب الأموي ضلع كبير فيها ، والذي يدعم ذلك مايلي .

١ ـ ان أبا الاسود الدئلي القى تبعة مقتل الامام على بني امية ، وذلك في مقطوعته التي رثا بها الامام فقد جاء فيها :

الا أبلغ معاوية بن حرب — فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا — بخير الناس طراً اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا — ورحلها ومن ركب السفينا (٢)

ومعنى هذه الابيات ان معاوية هو الذي فجع المسلمين بقتل الامام الذي هو خير الناس ، فهو المسؤول عن اراقة دمه ، ومن الطبيعي ان أبا الاسود لم ينسب هذه الجريمة لمعاوية الا بعد التأكد منها ، فقد كان الرجل متحرجاً أشد التحرج فيما يقول .

٢ ـ ان القاضي نعمان المصري ، وهو من المؤرخين القدامى قد ذكر قولا في أن معاوية هو الذي دس ابن ملجم لاغتيال الامام ، قال مانصه :

(١) الصراع بين الموالي ومبادىء الاسلام (ص١٠٣)
(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٨

« وقيل ان معاوية عامله – اي عامل ابن ملجم – على ذلك – اى على اغتيال الإمام – ودس إليه فيه ، وجعل له مالا عليه . . » (١)

٣ – ومما يؤكد اشتراك الحزب الأموي في المؤامرة هو ان الاشعث ابن قيس قد ساند ابن ملجم ، ورافقه اثناء عملية الاغتيال ، فقد قال له : « النجا فقد فضحك الصبح » ولما سمعه حجر بن عدي صاح به « قتلته يا اعور » وكان الاشعث من اقوى العناصر المؤيـــدة للحزب الأموي ، فهو الذي ارغم الامام على قبول التحكيم وهدد الامام بالقتـــل قبل قتله بزمان قليل كما كان عينا لمعاوية بالكوفة .

إن المؤامرة – كما يقول الرواة – قد احيطت بكثير من السر والكتمان فما الذي اوجب فهم الاشعث ودعمه لها لولا الايعاز إليه من الخارج .

٤ – ان مؤتمر الخوارج قد انعقد في مكة أيام موسم الحج ، وهي حافلة – من دون شك – بالكثيرين من اعضـــاء الحزب الأموي الذين نزحوا الى مكة لاشاعة الكراهية والنقمة على حكومة الامام ، واغلب الظن انهم تعرفوا على الخوارج الذين كانوا من اعدى الناس للإمام ، فقاموا بالدعم الكامل لهم على اغتيال الامام ، ومما يساعد على ذلك ان الخوارج بعد انقضاء الموسم اقاموا بمكة الى رجب فاعتمروا في البيت ثم نزحوا الى تنفيذ مخططهم فمن المحتمل ان يكونوا في طيلة هذه المدة على اتصال دائم مع الحزب الأموي ، وسائر الأحزاب الأخرى المناهضة لحكم الامام .

٥ – والذي يدعو الى الاطمئنان في ان الحزب الاموي كان لـــه الضلع الكبير في هـــذه المؤامرة هو ان ابن ملجم كان معلما للقرآن (٢)

---

(١) المناقب والمثالب (ص٩٨) للقاضي نعمان المصري من مصورات مكتبة الامام الحكيم .

(٢) لسان الميزان ٣ / ٤٤٠ .

وكان يأخذ رزقه من بيت المال ، ولم تكن عنده اية سعة مالية فمن اين له الأموال التي اشترى بها سيفه الذي اغتال به الامام بالف وسمّه بالف؟؟ ومن اين له الأموال التي اعطاها مهراً لقطام وهو ثلاثة الآف وعبد وقينة؟ كل ذلك يدعو الى الظن أنه تلقى دعما ماليا من الامويين ازاء قيامه باغتيال الامام .

٦ - ومما يؤكد ان ابن ملجم كان عميلا للحزب الأموي هو انه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص وزميلا له منذ عهد بعيد ، فانه لما فتح ابن العاص مصر كان ابن ملجم معه ، وكان أثيراً عنده فقد أمره بالنزول بالقرب منه (١) واكبر الظن انه احاط ابن العاص علما بما اتفق عليه مع زميليه من عملية الاغتيال له وللامام ، ومعاوية ، ولذا لم يخرج ابن العاص الى الصلاة وانما استناب غيره ، فلم تكن نجاته وليدة مصادفة وانما جاءت وليدة مؤامرة حيكت اصولها مع ابن العاص .

هذه بعض الأمور التي توجب الظن باشتراك الحزب الاموي في تدبير المؤامرة ودعمها .

اغتيال الامام :

واطل على المسلمين شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، وقد كان الامام على يقين بانتقاله الى حظيرة القدس في بحر هذا الشهر العظيم ، فكان يجهد نفسه ويرهقها على ان يفطر على خبز الشعير وجريش الملح ، وان لا يزيد على ثلاث لقم حسب ما يقوله المؤرخون ، وكان يحي ليالي هذا الشهر بالعبادة ، ولما اقبلت ليلة الثامن عشر احس الامام بنزول الرزء القاصم

---

(١) لسان الميزان ٣ / ٤٤٠ .

فكان برماً تساوره الهموم والاحزان ، وجعل يتأمل في الكواكب وهي مرتعشة الضوء كأنها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض ، وطفق يقول :

« ما كذبت ولا كُذبت انها الليلة التي وعدت فيها »

وأنفق الامام ليله ساهراً ، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الاسلام ، وزاد وجيبه بوشوقه لملاقاة ابن عمه رسول الله (ص) ليشكو إليه ما عاناه من أمته من الأود .

وتوجه الامام بمشاعره وعواطفه الى الله يطلب منه الفوز والرضوان وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين انطلق الامام فأسبغ الوضوء ، وتهيأ الى الخروج من البيت ، فصاحت في وجهه وز كأنها صاحت ملتاعة حزينة تنذر بالخطر العظيم الذي سيدهم أرض العرب والمسلمين ، وتنبأ الامام من لوعتهن بنزول القضاء ، فقال :

« لا حول ولا قوة إلا بالله صوائح تتبعها نوائح » (١) .

وخرج الامام الى بيت الله فجعل يوقظ الناس على عادته الى عبادةالله ثم شرع في صلاته وبينما هو ماثل بين يدي الله وذكره على شفتيه إذ هوى عليه المجرم الخبيث عبد الرحمن بن ملجم ، وهو يهتف بشعار الخوارج « الحكم لله لا لك » فعلا رأس الامام بالسيف فقدّ جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالسجود لله ، وانتهت الضربة الغادرة الى دماغه المقدس الذي ما فكر فيه إلا في سعادة الناس ، وجمعهم على صعيد الحق .

ولما أحس الامام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة ، وانطلق صوته يدوي في رحاب الجامع قائلاً :

« فزت ورب الكعبة » .

لقد كنت ـ يا أمير المؤمنين ـ أول الفائزين ، وأعظم الرابحين

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٩١ .

بمرضاة الله ، فقد سايرت الحق منذ نعومة اظفارك ، فلم تداهن في دينك ولم تؤثر رضا احد على طاعة الله ، قد جاهدت وناضلت من أجل أن تعلو كلمة الله في الأرض ، ووقيت رسول الله (ص) بنفسك ومهجتك .

لقد فزت ، وانتصرت مبادؤك ، وبقيت انت وحدك حديث الدهر بما تركته من سيرة مشرقة اضاءت سماء الدنيا ، وغذت الاجيال بجوهر الحق والعدل .

وخف الناس مسرعين الى الجامع حينما اذيع مقتل الامام فوجدوه طريحا في محرابه وهو يلهج بذكر الله ، قد نزف دمه ، ثم حمل الى داره والناس تعج بالبكاء وهم يهتفونُ بذوب الروح .

قُتل امام الحق والعدل .

قُتل ابو الضعفاء واخو الغرباء .

واستقبلته عائلته بالصراخ ، فأمرهن (ع) بالخلود الى الصبر ، وغرق الامام الحسن بالبكاء فالتفت إليه الامام قائلا :

« يابني لا تبك فانت تقتل بالسم ، ويقتل اخوك الحسين بالسيف . »

وتحقق تنبؤ الامام فلم تمض حفنة من السنين واذا بالحسن اغتاله معاوية بالسم ، فذابت احشاؤه ، واما الحسين فتناهبت جسمه السيوف والرماح ، وتقطعت أوصاله على صعيد كربلاء .

ويقول المؤرخون ان الامام الحسين لم يكن حاظراً بالكوفة حينما اغتيل أبوه وانما كان في معسكر النخيلة قائداً لفرقة من الجيش الذي اعده الامام لمناجزة معاوية ، وقد ارسل إليه الامام الحسن رسولا يعرفه بما جرى على ابيه ، فقفل راجعا الى الكوفة ، وهو غارق بالأسى والشجون ، فوجد أباه على حافة الموت فالقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلاً ودموعه تتبلور على خديه .

واخذ الامام العظيم يوصي اولاده بالمثل الكريمة والقيم الانسانيــة ، وعهد إليهم أن لا يقتلوا غير قاتله ، وان لا يتخذوا من قتله سببا لاثارة الفتنة واراقة الدماء بين المسلمين كما فعل بنو أمية حينما قتل عميدهم عثمان

الى الرفيق الاعلى :

واخذ الامام يعاني الآم الاحتضار وهو يتلو آيات الذكر الحكيم ، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى : « لمثل هذا فليعمل العاملون » ثم فاضت روحه الزكية ، تحفها ملائكة الرحمن ، فهادت اركان العدل في الأرض ، وانطمست معالم الدين لقد مات ملاذ المنكوبين والمحرومين الذي جهد نفسه أن يقيم في ربوع هذا الكون دولة تكتسح الاثرة والاستغلال ، وتقيم العدل والحق بين الناس .

وقام سبطا رسول الله (ص) بتجهيز ابيهما فغسلا جسده الطاهر وادرجاه في اكفانه ، وفي الهزيع الأخير من الليل حملوه الى مقره الاخير فدفنوه في النجف الأشرف ، وقد واروا معه العدالة الاجتماعية ، والقيم الانسانية ويقول المؤرخون ان معاوية لما وافاه النباء بمقتــل الامام فرح ، واتخذ يوم قتــله عيداً رسميا في دمشق فقد تمت بوارق اماله ، وتم له اتخاذ الملك وسيلة لاستعباد المسلمين وارغامهم على ما يكرهون .

متارك حكومة الامام :

وتركت حكومة الامام آثاراً بالغــة الاهمية والخطورة في المجتمع الاسلامي ولعل من اهمها ما يلي :

١ ـ انها ابرزت الواقع الاسلامي بجميع طاقاته في عالم السياسة والحكم ، فقد كان الامام يهدف في حكمه الى ازالة الفوارق الاجتماعية بين الناس ، وتحقيق الفرص المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم واديانهم ، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم من دون أن تتمتع اي طائفة بامتياز خاص وقد اوجدت هذه السياسة للامام رصيداً شعبيا هائلا ، فقد ظل علي قائما في قلوب الجماهير الشعبية بما تركه من صنوف العدل والمساواة ، وقد هام بحبه الأحرار ، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعي في الأرض ، وقدموه على جميع اعلام تلك العصور ، يقول ايمن ابن خريم الأسدي مخاطبا بني هاشم وعلى رأسهم الامام :

أأجعلكم واقواما سواء ... وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤوسهم واعينهم سماء(١)

٢ ـ ان مبادىء الامام وآراءه النيرة ظلت تطارد الأمويين وتلاحقهم في قصورهم فكانوا ينظرون إليها شبحا مخيفا يهدد سلطانهم ، مما جعلهم يفرضون سبه على المنابر للحط من شأنه ، وصرف الناس عن قيمه ومبادئه.

٣ ـ ان حكومة الامام التي رفعت شعار العدالة الاجتماعية الكبرى قد جرت لابنائه كثيراً من المشاكل والمصاعب ، والحقت بهم التنكيل والقتل من حكام عصرهم ، وقد تنبأ النبي الأعظم (ص) بذلك فقد روى أبو جعفر الاسكافي أن النبي (ص) دخل على فاطمة فوجد عليا نائما فذهبت لتوقظه ، فقال (ص) : « دعيه فرب سهر له بعدي طويل ، ورب جفوة لأهل بيتي من اجله » فبكت فاطمة ، فقال لها : لا تبكي فانه معي وفي موقف الكرامة عندي (٢) .

(١) الاغاني ٢١/١ .

(٢) شرح النهج ١٠٧/٤ .

لقد امعن الحكم الأموي والعباسي في ظلم ابنـــاء الامام لأنهم تبنوا حقوق المظلومين والمضطهدين ، وتبنوا المبادىء العليا التي رفع شعارهـــا الامام امير المؤمنين فناضلوا كاشد ما يكون النضال في سبيل تحقيقها على مسرح الحياة ، وكان من اشد ابناء الامام حماسا واندفاعا في حماية مبادىء ابيه الامام الحسين (ع) فقد انطلق الى ساحات الجهاد عازما على الموت آيسا من الحياة ليحمي مبادىء جده وأبيه ويرفع راية الاسلام عالية خفاقة وينكس اعلام الشرك والالحاد ، ويحطم قيود العبودية والذل .

٤ - وأوجد الامام في اثناء حكمه القصير وعيا اصيلا في مقارعـــة الظلم ، ومناهضة الجور فقد هب في وجه الحكم الأموي اعـــلام اصحابه كحجر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وعبدالله بن عفيف الازدي وامثالهم من الذين تربوا بهدي الامام ، فدوخوا اولئك الظالمين بثورات متلاحقة اطاحت بزهوهم وجبروتهم ، لقد كان حكم الامام - حقا - مدرسة للنضال والثورة ، ومدرسة لبث الوعي الديني والادراك الاجتماعي ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مخلفات حكومة الامام .

خلافة الحسن :

وتقلد الامام الحسن (ع) ازمة الخلافة الاسلامية بعد أبيه ، فتسلم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن ، ومزقت جيشها الحروب والأحزاب ولم تعد هناك اية قاعدة شعبية تستند إليها الدولة ، فقد كان الاتجاه العام الذي يمثله الوجوه والاشراف مع معاوية ، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتل الامام وبعده ، كما كان لهم الدور الكبير في افساد جيش الامام حينما مني جيش معاوية بالهزيمة والفرار ، وعلى اي حال فان الامام الحسن

بعد أن تقلد الخلافة اخذ يتهيأ للحرب ، وقد أمر بعقـــد اجتماع عام في جامع الكوفة وقد حضرته القوات المسلحة وغيرها ، والقى الامام خطابا رائعا ومؤثراً دعا فيه الى تلاحم القوى ووحدة الصف ، وحذر فيه من الدعايات التي تبثها اجهزة الحكم الأموي ، ثم ندب الناس لحرب معاوية فلما سمعوا ذلك وجلت قلوبهم وكمت افواههم ، ولم يستجب منهم احد سوى البطل الملهم عدي بن حاتم فانبرى يعلن دعمه الكامل للامام ، ووجه اعنف اللوم والتقريع لأهل الكوفة على موقفهم الانهزامي واستبان للامام وغيره ان جيشه لا يريد الحرب ، فقـــد خلع يد الطاعة ، وانساب في ميادين العصيان والتمرد .

وبعد جهود مكثفة قام بها بعض المخلصين للامام نفر للحرب اخلاط من الناس - على حد تعبير الشيخ المفيـــد - كان أكثرهم من الخوارج والشكاكين وذوي الأطماع ، وهذه العناصر لم تؤمن بقضية الامام ، وقـــد تطعمت بالخيانة والغدر ، ويقول الرواة ان الامام اسند مقدمة قيادة جيشه لعبيد الله بن العباس الذي وتره معاوية بابنيه ليكون ذلك داعية اخلاص له وحينما التقى جيشه بجيش معاوية ، مد إليه معاوية أسلاك مكره فمناه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت والنصف الآخر اذا التحق به (١) وسال لعاب عبيد الله فاستجاب لدنيا معاوية ومال عن الحق فالتحق بمعسكر الظلم والجور ومعه ثمانية الآف من الجيش (٢) غير حافل بالخيانة والعار ، ولا بالاضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمه ، فقد تفللت جميع وحداته وقواعده ، ولم تقتصر الخيانة على عبيد الله ، وانما خان غيره من كبـــار قادة ذلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١ .

الجيش ، فالتحقوا بمعاوية ، وتركوا الامام في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعد آهاته وآلامه .

ولم تقتصر محنة الامام وبلاؤه في جيشه على خيانة قادة فرقه ، وإنما تجاوز بلاؤه الى ما هو أعظم من ذلك ، فقد قامت فصائل من ذلك الجيش بأعمال رهيبة بالغة الخطورة وهي :

١ ـ الاعتداء على الامام :

وقام الرجس الخبيث الجراح بن سنان بالاعتداء على الامام فطعنه في فخذه بمغول (١) فهوى الامام جريحاً ، وحمل الى المواني لمعالجة جرحه(٢) وطعنه شخص آخر بخنجر في أثناء الصلاة (٣) كما رماه شخص بسهم في أثناء الصلاة إلا انه لم يؤثر فيه شيئاً (٤) وأيقن الامام أن أهل الكوفة جادون في قتله واغتياله .

٢ ـ الحكم عليه بالكفر .

واصيب ذلك الجيش بدينه وعقيدته فقد رموا حفيد نبيهم وريحانته بالكفر والمروق من الدين ، فقد جابهه الجراح بن سنان رافعاً عقيرته قائلاً :

« اشركت يا حسن كما أشرك أبوك ... » (٥) .

وكان هذا رأي جميع الخوارج الذين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة في ذلك الجيش .

٣ ـ الخيانة العظمى :

والخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش انهم راسلوا

---

(١) المغول : آلة تشبه السيف .

(٢) الارشاد (ص١٧٠) .

(٣) و (٤) حياة الامام الحسن ٢ / ١٠٢ ـ ١٠٥ ؛

(٥) حياة الامام الحسن ٢ / ١٠٣ .

معاوية وضمنوا له تسليم الامام اسيراً أو اغتياله متى رغب وشاء ، (١) واقض ذلك مضجع الامام فخاف ان يؤسر ويسلم الى معاوية فيمن عليه ، ويسجل بذلك يداً لبني أميه على الأسرة النبوية ، كما كان (ع) يتحدث بذلك بعد ابرام الصلح

٤ — نهب امتعة الامام .

وعمد اجلاف أهل الكوفة الى نهب امتعة الامـــام واجهزته فنزعوا بساطاً كان جالساً عليه كما سلبوا منه رداءه (٢)

هذه بعض الاحداث الرهيبة التي قام بهـــا ذلك الجيش الذي تمرس في الخيانة والغدر .

الصلح :

ووقف الامام الحسن من هذه الفتن السود موقف الحازم اليقظ الذي تمثلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها ، فرأى انه أمام امرين :

١ — ان يفتح باب الحرب مع معاوية ، وهو على يقين لايخامره ادنى شك ان الغلبة ستكون لمعاوية ، فاما ان يقتل هو واصحابه واهل بيته الذين يمثلون القيم الاسلامية ، ويخسر الاسلام بتضحيتهم قادته ودعاته من دون ان تستفيد القضية الاسلامية اي شيء فان معاوية بحسب قابلياته الدبلوماسية يحمل المسؤلية على الامام ، ويلقي على تضحيته الف حجاب ، او انه يؤسر فيمن عليه معاوية فتكون سبة على بني هاشم وفخراً لبني امية .

٢ — ان يصالح معـــاوية فيحفظ للاسلام رجاله ودعاته ، ويبرز في

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ١٠٠

(٢) تأريخ اليعقوبي

صلحه واقع معاوية ، ويكشف عنه ذلك الستار الصفيق الذي تستر به ، وقد اختار (ع) هذا الأمر على ما فيه من قذى في العين وشجى في الحلق ، ويقول المؤرخون إنـــه جمع جيشه فعرض عليهم الحرب أو السلم فتعالت الاصوات من كل جانب وهم ينادون .

« البقية البقية » (١) .

لقد استجابوا للذل ، ورضوا بالهوان ، ومالوا عن الحق ، وقـــد ايقن الامـــام أنهم قد فقدوا الشعور والاحساس ، وانه ليس بالمستطاع أن يحملهم على الطاعة ويكرههم على الحرب فاستجاب – على كره ومرارة – الى الصلح .

لقد كان الصلح امـــراً ضرورياً يحتمه الشرع ، ويلزم به العقل ، وتقضي به الضروف الاجتماعية الملبدة بالمشاكل السياسية فان من المؤكد انه لو فتح باب الحرب لمني جيشه بالهزيمة ، ومنيت الأمة من جراء ذلك بكارثة لاحد لابعادها .

اما كيفية الصلح وشروطه واسبابه وزيف الناقدين له فقد تحدثنا عنها بالتفصيل في كتابنا حياة الامام الحسن (ع) .

موقف الامام الحسين :

والشيء المحقق ان الامام الحسين قد تجاوب فكرياً مع أخيه في أمر الصلح ، وانه تم باتفاق بينهما فقد كانت الاوضاع الراهنة تقضي بضرورته، وانه لابد منه ، وهناك بعض الروايات الموضوعة تعـــاكس ماذكرناه ، وان الامام الحسين كان كارهاً للصلح وقد همّ ان يعـارضه فانذره أخوه

(١) حماة الاسلام ١/١٢٣ ، المجتنى لابن دريد (ص ٣٦)

بأن يقذفه في بيت فيطينه عليه حتى يتم أمر الصلح ، فرأى أن من الوفاء لأخيه أن يطيعه ولا يخالف له أمراً فأجابه الى ذلك ، وقد دللنا على افتعال ذلك وعدم صحته اطلاقاً في كتابنا حياة الامام الحسن .

عدي بن حاتم مع الحسين :

ولما ابرم أمر الصلح خف عدي بن حاتم ومعه عبيدة بن عمر الى الامام الحسين وقلبه يلتهب ناراً فدعا الامام الى اثارة الحرب قائلاً :

« ياأبا عبد الله شريتم الذل بالعز ، وقبلتم القليل وتركتم الكثير ، اطعنا اليوم ، واعصنا الدهر ، دع الحسن ، وما رأى من هذا الصلح ، واجمع إليك شيعتك من اهل الكوفة وغيرها وولني وصاحبي هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند الا ونحن نقارعه بالسيوف . . » .

فقال الحسين (ع) : « إنا قد بايعنا وعاهدنا ولاسبيل لنقض بيعتنا » (١) ولو كان الحسين يرى مجالاً للتغلب على الأحداث لخاض الحرب ، وناجز معاوية ، ولكن قد سدت عليه وعلى اخيه جميع النوافذ والسبل ، فرؤا انه لاطريق لهم الا الصلح .

تحول الخلافة :

وتحولت الخلافة الاسلامية من طاقتها الاصيلة ومفاهيمها البناءة الى ملك عضوض مستبد لاظل فيه للعدل ، ولاشبح فيه للحق قد تسلطت الطغمة

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٠٣)

الحاكمة من بني امية على الأمة وهي تمعن في اذلالها ونهب ثرواتها ، وارغامها على العبودية ، يقول بعض الكتاب : « ونجم عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة الى بني أمية نتائج كبيرة فقد انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية ، وهذا كان معناه انتصار الارستقراطية القرشية ، واصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على اصحاب المبادىء والمثل ، لقد كان نصر معاوية هزيمة لكل الجهود التي بذلت للحد من طغيان الرأسمالية القرشية ، هزيمة لحلف الفضول ، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الاسلام وحربه على الاستغلال والظلم ، هزيمة للمثل والمبادىء ، ونجاح للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمـــال ، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الاسلام واجيال المسلمين . »

ويقول (نيكلسون) :

« واعتبر المسلمون انتصار بني امية وعلى رأسها معاوية انتصـــاراً للارستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول واصحابه العداء ، والتي جاهدها رسول الله (ص) حتى قضى عليهـــا ، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، واقاموا على انقاضها دعائم الاسلام ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء ، وازال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ، ويستذلون الضعفاء ، ويبتزون الأموال . . »

وعلى أي حال فقد فجع العالم الاسلامي – بعد الصلح – بكارثة كبرى فخرج من عالم الدعة والأمن والاستقرار الى عالم مليء بالظلم والجور فقد اسرع الأمويون بعد ان استتب لهم الامر الى الاستبداد بشؤون المسلمين ،وارغامهم على مايكرهون .

وعانى الكوفيون من الظلم ما لم يعانه غيرهم ، فقد اخذت السلطـــة

تحاسبهم حساباً عسيراً على وقوفهم مع الامام في ايام صفين ، وعهدت في شؤونهم الى الجلادين امثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيـــه فصبوا عليهم وابلاً من العذاب الأليم ، واخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس على ما اقترفوه من عظيم الأثم في خذلانهم للامام امير المؤمنين وولده الحسن ، وجعلوا يلحون على الامـــام الحسين بوفودهم ورسائلهم لينقذهم من ظلم الأمويين وجورهم الا ان من المدهش حقاً انه لما استجاب لهم شهروا في وجهه السيوف ، وقطعوا اوصاله واوصال ابنائه على صعيد كربلا . . . وبهذا ينتهـي بنا المطاف عن اول دولة الحق .

حكومة معاوية



واستقبل المسلمون حكومة معاوية - بعد الصلح - بكثير من الذعر والفزع والخوف ، فقد عرفوا واقع معاوية ، ووقفوا على اتجاهاته الفكرية والعقائدية فخافوه على دينهم ، وعلى نفوسهم واموالهم ، وقد وقع ما خافوه فانه لم يكد يستولي على رقاع الدولة الاسلامية حتى اشاع الظلم والجور والفساد في الارض ، ويقول المؤرخون انه ساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل ، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار ، كما كانت تحمل معول الهدم على جميع القيم الأخلاقية والانسانية ، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس ، يقول السيد مير علي الهندي :

« ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية : السابقة فاحتل موقع ديمقراطية الاسلام وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات ، وكأنها بعثت من جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقي لنفسها متسعاً في كل مكان ارتادته رايات حكام الامويين من قادة جند الشام . . » (١)

والشيء المؤكد ان حكومة معاوية لم تستند الى رضى الأمة أو مشورتها ، وانما فرضت عليها بقوة السلاح ، وقد اعترف معاوية بذلك اعترافاً رسمياً بتصريح ادلى به امام جمهور غفير من الناس فقال : « والله ماوليتها - اي الخلافة - بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي ، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ، فان لم تجدوني اقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه . . »

ولما وقعت الأمة فريسة تحت انيابه - بعد الصلح - خطب في (النخيلة) خطاباً قاسياً اعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأمة واستهانته بحقوقها فقد جاء فيه : « والله اني ماقاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ، ولا لتحجوا ولا لتزكوا ، انكم لتفعلون ذلك ، وانما قاتلتكم لأتأمر عليكم ،

---

(١) روح الاسلام (ص٢٩٦)

وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون » (١)

ومثّل هذا الخطاب الاتجاهات الشريرة التي يحملها معاوية فمن اجل الامرة والسيطرة على العباد اراق دماء المسلمين ، واشـــاع في بيوتهم الثكل والحزن والحداد .

ولابدلنا من دراسة موجزة للمخططات السياسية التي تبنتها حكومة معاوية ، وما رافقها من الاحداث الجسام فانها ـ فيا نعتقد ـ من الملم الاسباب في ثورة الامام الحسين ، فقد رأى مـــا مُني به المسلمون في هذا العهد من الحرمان والاضطهاد ، وما اصيبوا به من الانحراف والتذبذب من جراء النقائص الاجتماعية التي اوجدها الحكم الأموي ، فهبّ سلام الله عليه ـ بعد هلاك معاوية ـ الى تفجير ثورته الكبرى التي ادت الى ايقاظ الوعي الاجتماعي الذي اكتسح الحكم الأموي وازال جميع معالمه وآثاره» . وهذه بعض معالم سياسة معاوية .

سياسته الاقتصادية :

ولم تكن لمعاوية أية سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه الكلمة ، وانما كان تصرفه في جباية الاموال وانفاقها خاضعاً لرغباته واهوائه فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له ويحرم العطاء للمعارضين له ، ويأخذ الأموال ويفرض الضرائب كل ذلك بغير حق

إن من المقطوع به انه لم يعد في حكومة معاوية اي ظل للاقتصـــاد الاسلامي الذي عالج القضايا الاقتصادية باروع الوسائل واعمقها ، فقـــد عنى بزيادة الدخل الفردي ، ومكافحة البطالة ، واذابة الفقر ، واعتبر مال

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ٢٥٤

الدولة ملكاً للشعب يصرف على تطوير وسائل حياته ، وازدهار رخائه ، ولكن معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الاكثرية الساحقة من الشعب ، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكم فى مصير الناس وشؤونهم .. وهذه بعض الخطوط الرئيسية في سياسته الاقتصادية .

الحرمان الاقتصادي :

واشاع معاوية الحرمان الاقتصادي في بعض الاقطار التي كانت تضم الجبهة المعارضة له فنشر فيها البؤس والحاجة حتى لاتتمكن من القيام بأية معارضة له ، وهذه بعض المناطق التي قابلها بالاضطهاد والحرمان .

١ - يثرب :

وسعى معاوية لاضعـاف يثرب فلم ينفق على المدنيين أي شيء من المال وجهد على فقرهم وحرمانهم لأنهم من معاقل المعارضة لحكمه ، وفيهم كثير من الشخصيات الحاقدة على الأسرة الأموية والطامعة في الحكم، ويقول المؤرخون؟ انه اجبرهم على بيع املاكهم فاشتراها بأبخس الاثمان ، وقد ارسل القيم على املاكه لتحصيل وارداتها فمنعوه عنها ، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمد ، وقالوا له : إن هذه الأموال لنا كلها ، وان معاوية آثر علينا في عطائنا ، ولم يعطنا درهماً فما فوقه حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشتراها بجزء من مائة من ثمنها ، فرد عليهم حاكم المدينة بأقسى القول وأمره .

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الانصـاري فلم يأذن له تحقيراً وتوهيناً به فانصرف عنه ، فوجـه له معـاوية بستمائة درهم فردها جابر وكتب إليه .

واني لاختـار القنوع على الغنى   اذا اجتمعا والماء بالبارد المحض

واقضي على نفسي إذ الأمر نابني   وفي الناس من يُقضى عليه ولا يقضي
والبس أثواب الحياء وقد ارى   مكان الغنى الا أهين لـه عرضي

وقال لرسول معاوية : « قل له : والله يابن آكلة الاكباد لاتجد في صحيفتك حسنة أنا سببها أبداً .

وانتشر الفقر في بيوت الانصار ، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه ، ولما حج معاوية واجتـاز على يثرب استقبله الناس ، ومنهم الانصار وكان اكثرهم مشاة فقال لهم :

« ما منعكم من تلقي كما يتلقاني الناس ! ! ؟ »

فقال له سعيد بن عبادة :

« منعنا من ذلك قلة الظهر ، وخفة ذات اليد ، والحاح الزمـان علينا ، وايثارك بمعروفك غيرنا » .

فقال له معاوية باستهزاء وسخرية .

« اين أنتم عن نواضح المدينة ؟ »

فسدد له سعيد سهما من منطقه الفياض قائلاً :

« نحرناها يوم بدر ، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان » (١)

لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة في يثرب وحرمان اهلها من الصلة والعطاء ، يقول عبد الله بن الزبير : في رسالته الى يزيد « فلعمري ما تؤتينا مما في يدك من حقنا الا القليل وانك لتحبس عنا منه العريض . . »

وقد اوعز معاوية الى الحكومه المركزية في يثرب برفع اسعار المواد الغذائية فيها حتى تعم فيها المجاعة . وقد ألمع الى ذلك يزيد في رسالته التى بعثها للمدنيين ووعدهم فيها بالاحسان ان خضعوا لسلطانه ، وقد جاء فيها .

« ولهم علي عهد أن اجعل الحنطة كسعر الحنطة عندنـا ، والعطاء

انساب الاشراف ج١ ق٢/٧٣

الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي لهم وفراً كاملا »(١)

وقد جعل معاوية الولاة على الحجاز تارة مروان بن الحكم ، واخرى سعيد بن العاص وكان يعزل الأول ويولي الثاني ، وقد جهدا في اذلال اهل المدينة وفقرهم

٢ - العراق :

اما العراق فقد قابله معاوية بالمزيد من العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيسي للمعارضة ، والقطر الوحيد الساخط على حكومته ، وكان واليه المغيرة بن شعبة يحبس العطاء والارزاق عن أهل الكوفة ، وقد سار حكام الامويين من بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان اهله ، فان عمر بن عبدالعزيز اعدلهم لم يساو بين العراقيين والشاميين في العطاء ، فقد زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير ولم يزد فيعطاء اهل العراق (٢)

لقد عانى العراق في عهد الحكم الأموي اشد الوان الضيق مما جعل العراقيين يقومون بثورات متصلة ضد حكمهم .

٣ - مصر :

ونالت مصر المزيد من الاضطهاد الاقتصادي فقد كتب معاوية الى عامله : « ان زد على كل امرىء من القبط قيراطــا » فانكر عليه عامله وكتب إليه : « كيف ازد عليهم وفي عهدهم ان لايزاد عليهم » (٣)

وشمل الضيق الاقتصــادي سائر الاقطار الاسلامية ليشغلهــا عن معارضة حكمه .

---

(١) الامامة والسياسة ١/١٥١

(٢) العقد الفريد ٤/٢٥٩

(٣) حياة الامام موسى بن جعفر ١/٣٠٢

الرفاه على الشام :

وبينما كانت البلاد الاسلامية تعاني الجهد والحرمان نجد الشام في رخاء شامل واسعار موادها الغذائية منخفضة جداً ، لأنها اخلصت للبيت الأموي ، وعملت على تدعيم حكمه ، فكان الرفاه يعد فيها شائعاً ، اما مايؤيد ذلك فهي رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل . وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما المع الى ذلك مالك بن هبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير.

يقول له : « هلمّ فلنبايع لهذا الغلام - اي خالد بن يزيد - الذي نحن ولدنا اباه وهو ابن اختنا ، فقد عرفت منزلتنا من ابيه فانه كان يحملنا على رقاب العرب » (١)

استخدام المال في تدعيم ملكه :

واستخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه ، واتخذ المال سلاحاً يمكنه من قيادة الأمة ورئاسة الدولة ، يقول السيد مير علي الهندي : « وكانت الثروات التي جمعها معاوية من عمالته على الشام يبذرها هو وبطانته على جنوده المرتزقة الذين ساعدوه بدورهم على اخفات كل همسة ضدهم . » (٢)

وكانت هذه السياسة غريبة على المسلمين لم يفكر فيها أحد من الخلفاء السابقين ، وقد سار عليها من جاء بعده من خلفاء الأمويين فاتخذوا المال

---

(١) الطبري ٣٨/٧

(٢) روح الاسلام (ص٢٩٦)

وسيلة لدعم سلطانهم ، يقول الدكتور محمد مصطفى : « وكان من عناصر سياسة الامويين استخدام المال سلاحاً للارهاب ، واداة للتقريب فحرموا منه فئة من الناس ، واغدقوه اضعافاً مضاعفة لطائفة اخرى ثمناً لضمائرهم ، وضماناً لصمتهم . » (١)

وجعل شكري فيصل المال احد العاملين الاساسيين اللذين خضع لها المجتمع الاسلامي خضوعاً عجيباً ، وكان من جملة الأسباب في فنّ السياسة ، وسيطرة الطبقة الحاكمة من قريش ، كما انه احد الاسباب في وقوع الخلاف مابين العرب والعجم بل وما بين العرب انفسهم (٢)

المنح الهائلة لأسرته :

ومنح معاوية الاموال الهائلـــة لأسرته فوهبهم الثراء العريض (٣) وذلك لتقوية مركزهم ، وبسط نفوذهم على العـــالم الاسلامي ، في حين اشاع البؤس والحرمان عند اغلب فئات الشعب .

منح خراج مصر لعمرو :

ووهب معاوية خراج مصر لابن العاص ، وجعله طعمة له مادام حيا ، وذلك لتعاونه معه على مناجزة الامام امير المؤمنين رائد الحق والعدالة في الأرض ، وقد المعنا الى تفصيل ذلك في البحوث السابقة .

(١) اتجاهات الشعر العربي (ص٢٧)
(٢) المجتمعات الاسلامية في القرن الاول (ص ٥٠) لشكري فيصل
(٣) الفخري (ص ١٤٥)

هبات الأموال للمؤيدين :

واغدق معاوية الأموال الهائلة على المؤيدين له والمنحرفين عن الامام امير المؤمنين وقد اسرف في ذلك الى حد بعيـــد ، ويقول الرواة : ان يزيد بن منبه قدم عليه من البصرة يشكو له دينا قد لزمه ، فقال معاوية : لخازن بيت المال اعطه ثلاثين الفا ، ولما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين الفا أخرى (١) لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاءاً لمواقفه ومواقف أخيه الذي امدّ المتمردين في حرُب الجمل بالأموال التي نهبها من بيت مال المسلمين ، وقد حفل التأريخ ببوادر كثيرة من هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الامام ، والمؤيدة له .

شراء الاديان :

وفتح معاوية بابا جديداً في سياسته الاقتصادية وهي شراء الاديـــان وخيانة الذمم ، فقد وفد عليه جماعة من اشراف العرب فاعطى كل واحد منهم مائة الف واعطى الحتات عم الفرزدق سبعين الفا ، فلما علم الحتات بذلك رجع مغضبا الى معاوية فقال له :

« فضحتني في بني تميم ، اما حسبي فصحيح ، أو لست ذا سن ؟ الست مطاعا في عشيرتي ؟ »

« بلى . »

« فما بالك خست بي دون القوم واعطيت من كان عليك اكثر ممن

(١) العقد الفريد ١/١٩٤ .

كان لك ! ! »

فقال معاوية بلا حياء ولا خجل :

« إني اشتريت من القوم دينهم ، ووكلتك الى دينك »

« ازا اشتري مني ديني »

فأمر له بإتمام الجائزة (١) لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر وتحولها الى سلعة تباع وتشرى .

عجز الخزينة المركزية :

ومنيت الخزينة المركزية بعجز مالي خطير نتيجة الاسراف في الهبات لشراء الذمم والاديان ولم تتمكن الدولة من تسديد رواتب الموظفين مما اضطر معاوية الى أن يكتب لابن العاص راجياً منه أن يسعفه بشيء من خراج مصر الذي جعله طعمة له فقد جاء في رسالته : « اما بعد : فان سؤال أهل الحجاز ، وزوّار أهل العراق قد كثر وا علي ، وليس عندي فضل من اعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة . . » ولم يستجب له ابن العاص وراح ينكر عليه ، ويذكره باياديه التي اسداها عليه وقد اجابه بهذه الابيات :

معاوي إن تدركك نفس شحيحة	فما ورثتني مصر امـي ولا ابي
وما نلتها عفواً ولكن شرطتهـا	وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي الاشعري وصحبه	لألفيتها ترغو كراغيـة السقب

ولما قرأ معاوية الأبيات تأثر منه ، ولم يعاوده بشيء من امر مصر. (٢)

---

(١) حياة الامام الحسن ٢/١٥٣

(٢) الاخبار الطوال (ص ٢٠٤)

مصادرة اموال المواطنين :

واضطر معاوية بعد اسرافه وتبذيره الى مصـــادرة اموال المواطنين ليسد العجز المالي الذي منيت به خزينة الدولة ، وقد صـــادر مواريث الحتات عم الفرزدق فانكر عليه الفرزدق وقال يهجوه :

ابوك وعمي يامعاوى أورثا	تراثا فيختار التراث اقاربه
فما بال ميراث الحتات اخذته	وميراث صخر جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الامر في جاهلية	علمت من المرء القليل حلائبه
ولو كان في دين سوى ذا شنئتم	لنا حقنا أو غص بالماء شاربه
الست اعز الناس قوما وأسرة	وامنعهم جاراً اذا ضيم جانبه
وما ولدت بعد النبي وآله	كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وبيتي الى جنب الثريا فناؤه	ومن دونه البدر المضيء كواكبه
أنا ابن الجبال الشم في عدد الحصى	وعرق الثرى عرقي فمن ذا يحاسبه
وكم من أب لي يامعاوى لم يزل	اغر يبارى الريح ازور جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن	ابوك الذي من عبد شمس يقاربه (١)

ومعنى هذه الابيات ان الأموال التي خلفها صخر جد معاوية قـــد انتقلت الى وراثة في حين ان ميراث عم الفرزدق قد صادره معاوية ، ولو كان ذلك في الجاهلية لكان معاوية اقصر باعاً من أن تمتد يده إليه ، فان الفرزدق ينتمي الى اسرة هي من اعز الأسر العربية وامنعها .

(١) ابن الأثير ٣/٢٣٢ ، ديوان الفرزدق (ص ٢٤٦)

ضريبة النيروز :

وفرض معاوية على المسلمين ضريبة النيروز ليسد بها نفقاته ، وقد بالغ في ارهاق الناس واضطهادهم على ادائها ، وقد بلغت فيما يقول المؤرخون عشرة ملايين درهم (١) وهي من الضرائب التي لم يألفها المسلمون ، وقد اتخذها الخلفاء من بعده سنة فارغموا المسلمين على ادائها .

نهب الولاة والعمال :

واصبحت الولاية في عهد معاوية مصدراً من مصادر النهب والسرقة ، ومصدراً للثراء وجمع الاموال ، يقول انس بن أبي اناس لحارثة الغداني صاحب زياد بن أبيه حينما ولي على (سرق) وهي احدى كور الاهواز :

احار بن بدر قد وليت امارة ... فكن جرذاً فيها تخون وتسرق
وباه تميماً بالغنى ان للغنى ... لساناً به المرء الهيوبة ينطق
ولا تحقرن ياحار شيئاً أصبته ... فحظك من ملك العراقين سرق (٢)

ويصف عقبة بن هبيرة الأسدي ظلم الولاة واستصفائهم اموال الرعية بقوله :

معاوي اننا بشر فاسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد (٣)
اكلتم ارضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد

---

(١) الحركات الفكرية في الاسلام (ص ٤٢) تأريخ التمدن الاسلامي ٢/٢٢

(٢) الشعر والشعراء (ص ٤٦٢)

(٣) السجح : السهولة واللين

فهينا أمــة ذهبت ضياعــاً ‌‌ ‌ يزيـد أميرهــا وابـو يزيــد
أتطمع في الخلافة اذ هلكنا ‌ ‌ وليس لنــا ولالك من خلود
ذروا خول الخلافة واستقيموا ‌ ‌ وتــأمير الاراذل والعبيــد
واعطونــا السوية لانزوركم ‌ ‌ جنود مردفات بالجنود (١)

وقد عانى المسلمون ضروبا شاقة وعسيرة من جور الولاة وظلم الجباة ، فقد تمرسوا بالسلب والنهب ، ولم يتركوا عند احد من الناس فضلا من المال الا صادروه :

جباية الخراج :

اما جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة واهوائهم ، وقـد سأل صاحب اخنا عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية فنهره ابن العاص وقال له :

« لو اعطيتني من الأرض الى السقف مـا اخبرتك ماعليك انما انتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خُفف عنا خففنا عنكم . . »(٢)

وهدمت هذه الاجراءات الظالمة جميع قواعد العدل والمساوات التي جاء بها الاسلام .

اصطفاء الذهب والفضة :

وأوعز معاوية الى زياد بن أبيه ان يصطفي له الذهب والفضة فقام

---

(١) خزانة الأدب ٢/٢٢٥

(٢) تأريخ التمدن الاسلامي ٢/٧٩ ـ ٨٠

زياد مع عماله باجبار المواطنين على مصادرة ما عندهم من ذلك وارساله الى دمشق (١) وقد ضيق بذلك على الناس ، وترك الفقر آخذاً بخناقهم .

شل الحركة الاقتصادية :

وشلت الحركة الاقتصادية في جميع انحاء البلاد فخربت الزراعة والتجارة ، واصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تبذير معاوية واسرافه ، وقد اعلن ذلك عبد الله بن همام السلولي فقد كتب شعراً في رقاع والقاها في المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل والمظالم القظيعة التي صبها معاوية وعماله على الناس وهذه هي الابيات :

الا ابلغ معاوية بن صخر فقد خرب السواد فلا سوادا
ارى العمال اقساء علينا بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك ان تدارك بالدنيا وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعاً ابداً هواه يخرب من بلادته البلادا
اذا ماقلت اقصر عن هواه تمادى في ضلالته وزادا (٢)

وقد صور السلولي بهذه الابيات سوء الحالة الاقتصادية وتسلط الولاة على ظلم الرعية ودعا السلطة الى عزلهم واقصائهم عن وظائفهم فقد جهدوا في خراب السواد وامتصوا الدماء ، واتبعوا الهوى ، وظلوا عن الطريق القويم .

---

(١) حياة الامام موسى بن جعفر ٣٠١/١

(٢) الاسلام والحضارة العربية ١٤٩/٢ ١٥٠

حجة معاوية :

ويرى معاوية ان اموال الأمة وخزينتها المركزية ملك له يتصرف فيها حيث ما شاء يقول : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما اخذ من مال الله فهو لي ، وما تركته كان جائزاً الي . » (١)

وهذا المنطق بعيد عن روح الاسلام ، وبعيد عن اتجاهاته فقد قنن اسسه الاقتصادية على اساس ان المال مال الشعب ، وان الدولة ملزمة بتنميته وتطويره ، وليس لرئيس الدولة وغيره ان يتلاعب باقتصاد الأمة وينفقه على رغباته واهوائه فان ذلك يؤدي الى اذاعة الحاجة ونشر البطالة ويعرض البلاد للازمات الاقتصادية . . . لقد اعتبر الاسلام الفقر كارثة اجتماعية ووباءاً شاملاً يجب مكافحته بكل الطرق والوسائل ، وليس لرئيس الدولة ان يصطفي من مـــال الأمة اي شيء ، هذا هو رأي الاسلام ، ولكن معاوية — بصورة لاتقبل الجدل — لم يع ذلك ، فتصرف باموال المسلمين حسب رغباته واهوائه .

هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن واشاعت البؤس والحرمان في البلاد .

سياسة التفريق :

وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين وتشتيت شملهم ،وبث روح التفرقة والبغضاء بينهم ، ايمانا منه بأن الحكم لايمكن أن يستقر له الا في

---

(١) حياة الامام موسى بن جعفر ١/٣٠١

تفلل وحدة الأمة ، واشاعة العداء بين ابنائها ، يقول العقاد : « وكانت له – اي لمعاوية – حيلته التي كررها واتقنها وبرع فيها ، واستخدمها مع خصومـــه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهـــات بينهم ، واثارة الأحن فيهم ، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه . . كان لايطيق ان يرى رجلين ذوي خطر على وفاق ، وكان التنافس الفطري بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بهم » . (١)

لقد شتتت كلمة المسلمين ، وفصم عرى الاخوة الأسلامية التي عقد أواصرها الرسول الكريم ، وبنى عليها مجتمعه .

اضطهاد الموالي :

وبالغ معاوية في اضطهـــاد الموالي واذلالهم ، وقد رام ان يبيدهم ابادة شاملة يقول المؤرخون : انه دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وقال لهما : « اني رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وأراها قد قطعت على السلف ، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن اقتل شطراً منهم ، وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق » .

ولم يرتض الاحنف وسمرة هذا الأجراء الخطير فأخذا يلطفان به حتى عدل عن رأيه . (٢)

لقد سنّ معاوية اضطهاد الموالي ، واخذت الحكومات التي تلت من بعده تشيع فيهم الجور والحرمان بالرغم من اشتراكهم في الميادين العسكرية

---

(١) معاوية في الميزان (ص٦٤)

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٠ .

وغيرها من اعمال الدولة ، يقول شاعر الموالي شاكياً مماألمّ بهم من الظلم :

ابلغ امية عني إن عرضت لها … وابن الزبير وابلغ ذلك العربا

ان الموالي اضحت وهي عاتبة … على الخليفة تشكو الجوع والحربا

وانبرى احد الخراسانيين الى عمر بن عبد العزيز يطالبه بالعدل فيهم قائلاً له : « ياامير المؤمنين عشرون الفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ، ولا رزق ، ومثلهم قد اسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج . » (١) وكان الشعبي قاضي عمر بن عبد العزيز قد يغض المسجد حتى صار ابغض إليه من كناسة داره — حسب مايقول — لأن الموالي كانت تصلي فيه (٢) وقد اضطر الموالي الى تأسيس مسجد خاص لهم اسموه (مسجد الموالي) كانوا يقيمون الصلاة فيه (٣) ويميل خودا بخش الى الظن انهم انما اضطروا الى تأدية صلاتهم فيه بعدما رؤوا تعصب العرب ضدهم ، وانهم لم يكونوا يسمحون لهم بالعبادة معهم في مسجد واحد (٤) وكان الموالي يلطفون بالرد على العرب ويدعونهم الى الهدى قائلين :

« اننا لاننكر تباين الناس ، ولا تفاضلهم ، ولا السيد منهم والمسود ، والشريف والمشروف ، ولكننا نزعم ان تفاضل الناس فيما بينهم هو ليس بآبائهم ، ولا بأحسابهم ولكنه بافعالهم واخلاقهم ، وشرف انفسهم ، وبُعد همهم ، فمن كان دنيء الهمة ، ساقط المرؤءة لم يشرف وان كان من بني هاشم في ذؤابتها !! إنما الكريم من كرمت افعاله ، والشريف من

(١) الطبري ١٣٤/٨ ، الكامل ١٩/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ١٧٥/٦ .

(٣) الطبري في احداث سنة ٢٤٥ .

(٤) الحضارة الاسلامية ٤٣/١ .

شرفت همته . » (١)

ولم يع الامويون ومن ســار في ركابهم هذا المنطق المشتق من واقع الاسلام وهديه الذي أمر ببسط المساواة والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قومياتهم .

وعلى أي حال فقد ادت هذه السياسة العنصرية الى اشاعة الاحقــاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم ، كما ادت الى تجنيد الموالي لكل حركة ثورية تقوم ضد الحكم الأموي وكانوا بالأخير هم القوة الفعــالة التي اطاحت بالأمويين وطوت معالمهم وآثارهم .

العصبية القبلية :

وتبعا لسياسة التحزب والتفريق التي سار عليها الأمويون فقد احيوا العصبيات القبلية ، وقد ظهرت في الشعر العربي صوراً مريعة ومؤلمة من الوان ذلك الصراع الذي كانت تخلقه السلطة الأموية لاشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية ، وابعادهم عمــا يقننه معاوية من الظلم والجور ، ويقول المؤرخون : إنه عمد الى اثارة الاحقاد القديمة مابين الأوس والخزرج محاولاً بذلك التقليل من أهميتهم ، واسقــاط مكانتهم امام العالم العربي والاسلامي . . كما تعصب لليمنيين على المضريين، واشعل نار الفتنة فيما بينهم حتى لاتتحد لهم كلمة تضر بمصالح دولته .

وسار عمال معاوية على وفق منهج سياسته التخريبية فكــان زياد بن أبيه يضرب القبائل بعضها ببعض ويؤجج نار الفتنة فيما بينها حتى تكون تحت مناطق نفوذه يقول ولهاوزن : « وعرف زياد كيف يخضع القبــائل

(١) العقد الفريد ٢ ٢٥٨ - ٢٥٩

بأن يضرب احداها بالأخرى ، وكيف يجعلها تعمل من اجله ، وافلح في ذلك . . » (١)

وحفلت مصادر التأريخ ببوادر كثيرة من الوان التناحر القبلي الذي اثاره معاوية وعماله مما ادى الى انتشار الضغائن بين المسلمين ، وقد عانى الاسلام من جراء ذلك أشد الوان المحن فقد أوقف كل نشاط مثمر له ، وخولف ما كان يدعو له النبي (ص) من التآخي والتعاطف بين المسلمين.

سياسة البطش والجبروت :

وساس معاوية الأمة سياسة بطش وجبروت فاستهان بمقدراتها وكرامتها ، وقد اعلن — بعد الصلح — انه انما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتـأمر عليهم ، وان جميع ماأعطاه للامام الحسن (ع) من شروط فهي تحت قدميه لايفي بشيء منها ، وقد ادلى بتصريح عبر فيه عن كبريائه وجبروته فقال :

« نحن الزمان من رفعناه ارتفع ، ومن وضعناه اتضع . . (٢)

وسار عماله وولاته على هذه الخطة الغادرة فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال :

« ياحاملي الأم أنوف رُكبت بين أعين ، إنى قلمت اظفاري عنكم ليلين مسيئكم وسألتكم اصلاحكم اذا كان فسادكم باقياً عليكم فاما إذا أبيتم الا الطعن على السلطـان والنقص للسلف ، فوالله لاقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فان حسمت اداواءكم والا فان السيف من ورائكم ، فكم حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنهـا آذانكم ، ولست ابخل

(١) الدولة العربية (ص ٢٠٧) .
(٢) نهاية الارب ٦/٧ .

بالعقوبة اذا جدتم بالمعصية . . » (١)

وخاطب المصريين في خطاب آخر له فقال :

« ياأهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً فان لله ذبيحـاً لعثمان لاتصيروا الى وحشة الباطل بعد انس الحق باحياء الفتنة ، وامـاتة السنن فأطأكم والله وطأة لارمق معها حتى تنكروا ماكنتم تعرفون » . (٢)

ومثلت هذه القطع من خطابه مدى احقاده على الأمة وتنكره لجميع قيمها وأهدافها ومن اولئك الولاة الذين كفروا بالحق والعدل ، خـالد القسري ، فقد خطب في مكة ، وهو يهدد المجتمع بالدمار والفناء ، فقد جاء في خطابه :

« أيها الناس عليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات فاني — والله — ماأوتي لي باحد يطعن على امامه الا صلبته في الحرم . . (٣)

وكانت هذه الظاهرة ماثلة عند جميع حكـام الأمويين وولاتهم يقول الوليد بن يزيد :

فدع عنك ادكارك آل سعـدى فنحن الأكثرون حصى ومـالا

ونحن المالكون النـاس قسراً نسومهم المذلـة والنكـالا

ونوردهم حياض الخسف ذلا وما نألوهم الا خبـالا (٤)

وصورت هذه الأبيات مدى استهانته بالأمة ، فانه مع بقية الحكـام من اسرته ، قد ملكوا النـاس بالغلبة والقوة ، وانهم يسومونهم الذل ، ويوردونهم حياض الخسف . . . ومن اولئك الملوك عبد الملك بن مروان

---

(١) تهذيب الكامل للمبرد ١ / ١٧

(٢) العقد الفريد ٢ / ١٥٩ .

(٣) تأريخ الطبري ٨ / ٨٠ .

(٤) حياة الامام موسى بن جعفر ١ / ٣٨٧ .

فقد خطب في يثرب امام ابناء المهاجرين والأنصار فقال :

« الا وإني لا أداوي أمر هذه الأمة الا بالسيف حتى تستقيم قناتكم، وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ، ولا تعملون مثل عملهم ، وانكم تأمروننا بتقوى الله ، وتنسون انفسكم والله لايأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا - الا ضربت عنقه . . » (١)

وحفل هـــذا الخطاب بالطغيان القاجر على الأمـــة ، فهو لايرى حلا لأزماتها الا بسفك الدماء واشاعة الجور والأرهاب ، اما بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية بين الناس فلم يفكر به ولا دار بخلده ولا في خلـــد واحد من حكام الأمويين .

احتقار الفقراء :

وتبنى الحكم الأموي في جميع ادواره اضطهاد الفقراء واحتقار الضعفاء ، ويقول المؤرخون ان بني امية كانوا لايسمحون للفقراء بالدخول الى دوائرهم الرسمية الا في آخر الناس يقول زياد بن ابيه لعجلان حاجبه :

- كيف تأذن للناس ؟

- على البيوتات ، ثم على الاسنان ، ثم على الأدب .

- من تؤخر ؟

- الذين لايعبأ الله بهم .

- من هم ؟

- الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف ، وكسوة الصيف في الشتاء . (٢)

---

(١) تأريخ ابن الاثير ٤ / ٣٣ .

(٢) نهاية الأرب ٦ / ٨٦ .

وهدمت هذه السياسة قواعد العدل والمساواة التي جاء بهـا الاسلام فانه لم يفرق بين المسلمين وجعلهم سواسية كاسنان المشط .

سياسة الخداع :

واقام معاوية دولته على المخاتلة والخداع فلا ظل للواقع في اي تحرك من تحركاته السياسية ، فما كان مثل ذلك الضمير المتحجر ان يعي الواقع أو يفقه الحق ، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة من خداعه ، وهذه بعضها:

١ ـ لما دس معاوية السم الى الزعيم الكبير مالك الاشتر اقبل على اهل الشام فقال لهم :

« ان علياً وجه الأشتر الى مصر فادعوا الله ان يكفيكموه . »

فكان اهل الشام يدعون عليه في كل صلاة ، ولما اخبر بموته انبأ اهل الشام بأن موته نتج عن دعائهم لأنهم حزب الله ، ثم همس في اذن ابن العاص قائلا له : « ان لله جنوداً من عسل » (١)

٢ ـ ومن خداع معاوية وأضاليله ان جرير البجلي لما اوفده الامام الى معاوية يدعوه الى بيعته ، طلب معاوية حضور شر حبيل الكندي ، وهو من ابرز الشخصيات في الشام وقد عهد الى جماعة من اصحـابه ان ينفرد كل واحد منهم بـه ، ويلقي في روعه ان عليـاً هو الذي قتل عثمان بن عفان ، ولما قدم عليه شر حبيل اخبره معاوية بوفادة جرير ، وانه يدعوه الى بيعة الامام ، وقد حبس نفسه في البيعة حتى يأخـذ رأيه لأن الامام قد قتل عثمان ، وطلب منه شرحبيل ان يمهله لينظر في الأمر ، فلما خرج التقى به القوم كل على انفراده ، واخبروه ان الامـام هو المسؤول

---

(١) شرح النهج ٢ / ٢٣ .

عن اراقة دم عثمان فلم يشك الرجل في صدقهم فانبرى الى معاوية وهو يقول له :

« يامعاوية اين الناس ؟ الا ان علياً قتل عثمان ، والله ان بايعت لنخرجنك من شامنا ولنقتلنك . »

فقال معاوية مخادعاً له :

« ماكنت لأخالف عليكم ما أنا الا رجل من أهل الشام . . » (١)

بمثل هذا الخداع والبهتان اقام دعائم سلطانه ، وبنى عليه عرش دولته .

٣ – ومن الوان خداعه لأهل الشام انه لما راسل الزعيم قيس بن سعد يستميله ويمنيه بسلطان العراقين وبسلطان الحجاز لمن احب من اهل بيته ان صار معه فرد عليه قيس باعنف القول فاظهر معاوية لأهل الشام انه قد بايع ، وأمرهم بالدعاء له واختلق كتاباً نسبه إليه وقد قرأه عليهم وهذا نصه :

« اما بعد : ان قتل عثمان كان حدثاً في الاسلام عظيما ، وقد نظرت لنفسي وديني فلم ار بوسعي مظاهرة قوم قتلوا امامهم مسلما محرماً براً تقياً فنستغفر الله لذنوبنا الا واني قد القيت لكم بالسلام ، واحببت قتال قتلة امام الهدى المظلوم ، فاطلب مني ماحببت مني من الأموال والرجال اعجله إليك . . » (٢)

وبهذه الأساليب المنكرة خدع أهل الشام وزج بهم لحرب وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه .

٤ – لقد كان الخداع من ذاتيات معاوية ، ومن العناصر المقومة لسياسته ، وقد بهر ولده يزيد حينما بويع وكان الناس يمدحونه فقال لأبيه :

(١) شرح النهج ١ /١٢٩ .

(٢) شرح النهج ٢ / ٢٣ .

« ياامير المؤمنين ماندري انخدع الناس ام يخدعوننا ؟ ؟ » .

فاجابه معاوية :

« كل من اردت خديعته فتخادع له حتى تبلغ منـــه حاجتك فقد خدعته » (١)

لقد جر معاوية ذيله على الخداع وغذى به أهل مملكته حتى نشأ جيل كانت هذه الظاهرة من ابرز ما عرف منه .

اشاعة الانتهازية :

وعملت حكومة معاوية على اشاعة الانتهازية والوصولية بين الناس ، ولم يعد ماثلاً عند الكثيرين منهم ما جاء به الاسلام من ايثار الحق ونكران الذات ، ومن مظـــاهر ذلك التذبذب ما رواه المؤرخون ان يزيـــد بن شجرة الرهاوي قد وفد على معاوية ، وبينما هو مقبل على سماع حديثه اذ اصابه حجر عاثر فادماه فاظهر تصنعاً عدم الاعتناء به فقال له معاوية :

« لله انت مانزل بك ! ! ؟ »

« ماذاك ياامير المؤمنين ؟ »

« هذا دم وجهك يسيل . . »

« إن حديث امير المؤمنين الهاني حتى غمز فكري فما شعرت بشيء حتى نبهني امير المؤمنين . »

فبهر معاوية وراح يقول :

« لقد ظلمك من جعلك في الالف من العطاء ، واخرجك من عطاء ابناء المهـــاجرين ، وكماة أهل صفين . » وامر له بخمسمائة الف درهم ،

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ٣٠٥

وزاد في عطائه الف درهم . . (١)

وكانت هذه الظاهرة سائدة في جميع ادوار الحكم الأموي فقد ذكر المؤرخون ان اسماعيل بن يسـار كان زبيري الهوى فلما ظفر آل مروان بآل الزبير انقلب اسماعيل عن رأيـه واصبح مروانياً ، وقد استأذن على الوليد فأخره ساعة فلما اذن له دخل وهو يبكي فسألـه الوليد عن سبب بكائه فقال : « اخرتني وأنت تعلم مروانيتي ، ومروانية أبي »

وأخذ الوليد يعتذر منه ، وهو لايزداد الا اغراقاً في البكاء ، فهونّ عليه الوليد واحسن صلته ، فلما خرج تبعه شخص ممن يعرفه فسألـه عن مروانيته التي ادعاها متى كانت ؟ فقال له :

« بغضنا لآل مروان ، وهي التي حملت أباه يسار في حال موته ان يتقرب الى الله بلعن مروان بن الحكم ، وهي التي دعت امه ان تلعن آل مروان مكان ماتتقرب به الى الله من التسبيح . . » (٢)

ونقل المؤرخون بوادر كثيرة من الوان هذا الخداع الذي سـاد في تلك العصور وهو من دون شك من مخلفات سياسـة معاوية الذي ربى جيله على التذبذب والانحراف عن الحق .

الخلاعة والمجون :

وعرف معاوية بالخلاعة والمجون ، يقول ابن ابي الحديد : « كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح ، وكان في أيام عمـر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه الا انه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في

(١) التاج في اخلاق الملوك (ص٥٥) .

(٢) الاغاني ٤ / ١٢٠

آنية الذهب والفضة ، ويركب البغلات ذوات السروج المحلات بها - اي بالذهب - وعليها جلال الديباج والوشي ، وكان حينئذ شاباً وعنده نزق الصبا ، واثر الشبيبة وسكر السلطان والامرة ، ونقل الناس عنه في كتب السيرة انه كان يشرب الخمر في ايام عثمان في الشام . . .

ولا خلاف في انه سمع الغناء ، وطرب عليه ، ووصل عليه ايضاً.. وتأثر به ولده يزيد فكان مدمناً خليعـاً مستهتراً ، وتأثر بهذا السلوك جميع خلفاء بني أمية ، يقول الجاحظ : « وكان يزيد - يعني بن معاوية - لا يمسي الا سكرانـاً ، ولايصبح الا مخموراً ، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لايعقل في السماء هو أو في الماء . . وكان الوليد ابن عبد الملك يشرب يوماً ، ويدع يوماً ، وكان سليمان بن عبـد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة ، وكان هشام يشرب في كل جمعة ، وكان يزيد بن الوليد ، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب ، فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار ، ولايوجد ابداً الا ومعه احدى هاتين ، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت . (١)

وولى هشام بن عبد الملك الوليد على الحج سنة (١١٩ هـ) فحمل معه كلاباً في صناديق فسقط منها صندوق وفيه كلب . . وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها عليها ، وحمل معه خمراً ، واراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها فخوفه اصحابه ، وقالوا له : لانأمن الناس عليك وعلينا فترك (٢) ووفد علي بن عباس على الوليد بن يزيد في خلافته ، وقد أتي بابن شراعة من الكوفة ، فبادره قائلاً :

« والله مابعثت اليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله : . »

---

(١) التاج في اخلاق الملوك (ص ١٥١) .

(٢) الطبري ٨ / ٢٨٨ :

فضحك ابن شراعة وقال :

- انك لو سألتني عنها لوجدتني حماراً .

- أنا ارسلت إليك لأسألك عن القهوة - أي الخمر -

اخبرني عن الشراب ؟

- يسأل امير المؤمنين عما بدا له .

- ماتقول في الماء ؟

- لابد منه والحمار شريكي فيه .

وأخذ يسأله عن المشروبات حتى انتهى الى الخمر فقال له :

- ما تقول في الخمر ؟

أوآه تلك صديق روحي .

- أنت والله صديق روحي . (١)

وأرسل الوليد الى عامله على الكوفة يطلب منه أن يبعث إليه الخلعاء والشعراء الماجنين ليستمع مايلهو به من الفسق والمجون ، وقد سخر جميع اجهزة دولته للذاته وشهواته ، وكتب الى واليه على خراسان أن يبعث إليه ببرابط وطنابير ، وقال احد شعراء عصره ساخراً منه :

ابشر ياامين الله	ابشر بتباشير
بأبل يحمل المال	عليها كالأنابير (٢)
بغال تحمل الخمر	حقائبها طنابير
فهذا لك في الدنيا	وفي الجنة تحبير (٣)

وسادت اللذة واللهو في المجتمع العربي ، وتهالك الناس على الفسق

(١) نهاية الأرب ٤ / ٩٣ ، العقد الفريد ٣ / ١٨٤ .

(١) الأنابير : اكداس من الطعام .

(٣) تأريخ الطبري ٨ / ٢٩٨ :

والفجور ، ومن طريف ما ينقل في هذا الموضوع انه أوتي بشيخ الى هشام ابن عبد الملك وكان معه قيان وخمر وبربط ، فقـال : اكسروا الطنبور على رأسه فبكى الشيخ فقال له احد الجالسين : عليك بالصبر ، فقال له الشيخ اتراني أبكي للضرب ؟ انما ابكي لاحتقاره البربط اذ سماه طنبوراً(١)

لقد كانت سيرة الامويين في جميع ادوارهم امتداداً لسيرة معاوية الذي اشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد للقضاء على اصالة الأمة ، وسلب وعيها الديني والاجتماعي .

اشاعة المجون في الحرمين :

وعمد معاوية الى اشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيتها واسقاط مكانتها الاجتماعية في نفوس المسلمين ، يقول العلائلي : « وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة الى حد الاباحة ، فقـد استأجر طوائف من الشعراء والمخنثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لاتليق ، ولاتجعلها صالحتين للزعامة الدينية . وقد قال الاصمعي : دخلت المدينة فما وجدت الا المخنثين ، ورجلا يضع الاخبار والطرف : » (٢) وقد شاعت في يثرب مجالس الغنـاء ، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها (٣) وانحسرت بذلك روح الاخلاق ، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الاسلام .

(١) تأريخ الطبري ٨ / ٢٨٥ .
(٢) سمو المعنى في سمو الذات (ص ٣٠) .
(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٤١ .

الاستخفاف بالقيم الدينية :

واستخف معاوية بكافة القيم الدينية ، ولم يعن بجميع ما جاء به الاسلام من الاحكام فاستعمل اواني الذهب والفضة ، واباح الربـا ، وتطيب في الاحرام ، وعطل الحدود ، (١) وقد الغيت معظم الاحكام الاسلامية في اغلب ادوار الحكم الاموي ، وفي ذلك يقول شاعر الاسلام الكميت :

وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنحـل
أأهل كتـاب نحن فيه وانتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
كأن كتاب الله يعني بأمره وبالنهي فيه الكوذني المركل(٢)
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتام حتام العنـاء المطول
وماضرب الامثال في الجور قبلنا لاجور من حكامنا المتمثل (٣)

واستخف معاوية بالمقدسات الاسلامية واحتقرها ، يقول الرواة إنه لما تغلب قيل لـه ! لو سكنت المدينة ، فهي دار الهجرة ، وبها قبر النبي (ص) فقال : قد ظللت اذاً وما أنا من المهتدين (٤) واقتدى به في ذلك جميع بني أمية فقد انبرى يحيى بن الحكم الى عبد الله بن جعفر فقال له :

« كيف تركت الخبيثة - يعني مدينة رسول الله (ص) - ؟ »

فانكر عليه ابن جعفر وصاح به :

---

(١) ذكرنا مصادر هـذه الاحداث في الجزء الثاني من كتابنـا (حياة الامام الحسن) .

(٢) الكوذني : البليد

(٣) للهاشميات (ص ١١١) :

(٤) المناقب والمثالب (ص ٧٠) للقاضي نعمان المصري .

« سماها رسول الله (ص) طيبة وتسميها خبيثة ، قد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة . . »

قال يحيى : « والله لإن أموت وادفن بأرض الشام المقدسة أحب إلي من ان أدفن بها . »

فقال له :

« اخترت مجاورة اليهود والنصارى على مجاورة رسول الله (ص) والمهاجرين » . (١)

استلحاق زياد :

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الاسلامية استلحاقه زياد بن عبيد الرومي ، والصاقه بنسبه من دون بينة شرعية ، وانما اعتمد على شهادة ابي مريم الخمار وهو مما لايثبت به نسب شرعي ، وقد خالف بذلك قول رسول الله (ص) : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » .

لقد قام بذلك انطلاقاً وراء اهدافه السياسية ، وتدعيما لحكمه وسلطانه . . . ومن طريف ماينقل في الموضوع ان نصر بن حجاج خاصم عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد عند معاوية في عبد الله مولى خالد بن الوليد فأمر معاوية حاجبه أن يؤخرهما حتى يحتفل مجلسه ، فلما اكتمل مجلسه ، أمر بحجر فادني منه ، والقى عليه طرفاً من ثيابه ثم اذن لهما ، فترافعا عنده في شأن عبد الله فقال له نصر :

« إن اخي وابن أبي عهد الي انه – يعني عبد الله – منه »

وقال عبد الرحمن : « مولاي وابن عبد ابي وامته ولد على فراشه »

(١) انساب الاشراف ج ١ ق ١ .

واصدر معاوية الحكم في المسألة فقال ياحرسي: خذ هذا الحجر فادفعه الى نصر بن حجاج ، فقد قال رسول الله (ص) : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » .

وانبرى نصر فقال : « افلا اجريت هذا الحكم في زياد ؟ »

فقال معاوية : « ذاك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله (١)

انكار الامام الحسين :

وانكر الامام الحسين (ع) على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله (ص) فكتب إليه مذكرة تضمنت الاحداث الجسام التي اقترفها معاوية وقد جاء فيها :

« أولست المدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك ، وقد قال رسول الله (ص) « الولد للفراش وللعاهر الحجر » فتركت سنة رسول الله تعمداً واتبعت هواك بغير هدى من الله

لقد اثار استلحاق معاوية لزياد موجة من الغضب والاستياء عند الاخيار والمتحرجين في دينهم ، وقد بسطنا الكلام في ذلك في كتابنا (حياة الامام الحسن [ع]) .

الحقد على النبي :

وحقد معاوية على النبي (ص) فقد مكث في ايام خلافته اربعين

(١) الطبري : ج ١٠ / ٤٨٠ ، العقد الفريد : ٦ / ١٣٣ .

جمعة لايصلي عليه ، وسأله بعض اصحابه عن ذلك فقال : « لايمنعني عن ذكره الا ان تشمخ رجال بآنافها (١) وسمع المؤذن يقول : اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، فلم يملك اهابه ، واندفع يقول :

« لله ابوك ياابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ، مارضيت لنفسك الا ان يقرن اسمك باسم رب العالمين . » (٢)

ومن مظاهر حقده على الرسول الاعظم (ص) مارواه مطرف بن المغيرة قال : وفدت مع أبي على معاوية ، فكان أبي يتحدث عنده ثم ينصرف إلي ، وهو يذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يرى منه ، واقبل ذات ليلة ، وهو غضبان فامسك عن العشاء ، فانتظرته ساعة ، وقد ظننت انه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له :

- مالي اراك مغتماً منذ الليلة ؟

- يابني جئتك من اخبث الناس .

- ما ذاك ؟

- خلوت بمعاية فقلت له : إنك قد بلغت مُنـــاك ياامير المؤمنين فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً ، فـــانك قد كُبرت ، ولو نظرت الى أخوتك من بني هاشم فوصلت ارحامهم فوالله ماعندهم اليوم شيء تخافه . :

فثار معاوية واندفع يقول :

« هيهات ! ! هيهات ملك أخو تيم فعدل ، وفعل مافعل فوالله ماعدا ان هلك فهلك ذكره ، الا أن يقول قائل ابو بكر : ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ماعدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل عمر ، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثـــل نسبه

(١) النصائح الكافية (ص ٩٧) .

(٢) النهج ١٠ / ١٠١ .

فعمل به ماعمل فوالله ماعدا ان هلك فهلك ذكره وان اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات : اشهد ان محمداً رسول الله (ص) فاي عمل يبقى بعد هذا لاام لك الا دفنا دفناً . . » (١) .

ودلت هذه البادرة على مدى زعزعة العقيدة الدينية في نفس معاوية وانها لم تكن الا رداءً رقيقا يشف عما تحته من حب الجاهلية والتأثر بهـا الى حد بعيد ، وكانت النزعة الالحـادية ماثلة عند اغلب ملوك الأمويين يقول الوليد في بعض خمرياته منكراً للبعث والنشور :

ادر الكأس يمينـاً	لاتدرهـا ليسـار
اسق هـذا ثم هذا	صاحب العود النضـار
من كميت عتقوهـا	منذ دهـر في حرار
ختموها بالاماويه (٢)	وكافـور وقـار
فلقـد ايقنت أني	غير مبعوث لنـار
سـأروض النـاس	حتى يركبوا دين الحمار
وذروا مـن يطلب	الجنة يسعى لتبار (٣)

وتأثر الكثيرون من ولاتهم بهذه النزعة الالحادية ، فكان الحجـاج يخاطب الله امام الجماهير الحاشدة قائـلاً : « ارسولك افضل ام خليفتك يعني ان عبد الملك افضل من النبي العظيم (ص) . » (٤) وكان ينقم على الذين يزورون قبر رسول الله (ص) ويقول : « تبا لهم انما يطوفون باعواد

(١) شرح النهج ٢ / ٢٩٧ .
(٢) الاماويه : من انواع الطيب .
(٣) رسالة الغفران (ص ١٤٥) .
(٤) النزاع والتخاصم للمقريزي (ص ٢٧) رسائل الجاحظ (ص ٢٩٧) العقد الفريد ٣ / ٣٥٥ .

ورمة بالية ، هلا طافوا بقصر امير المؤمنين عبد الملك الا يعلمون ان خليفة المرء خير من رسوله » (١) .

وهكذا كان جهاز الحكم الأموي في كثير من ادواره قد تنكر للرسول الاعظم (ص) وازدرى برسالته .

تغيير الواقع الأسلامي :

وعمد معاوية الى تغيير الواقع الاسلامي المشرق الذي تبنى الحركات النضالية والقضايا المصيرية لجميع الشعوب ، فأهـاب بالمسلمين أن لايقروا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم ، وقد تبنى هذا الشعار المقدس الصحابي العظيم ابو ذر الغفاري الذي فهم الاسلام ، عن واقعه ، فرفع راية الكفاح في وجه الحكم الأموي ، وطالب عثمان ، ومعاوية بانصاف المظلومين والمضطهدين وتوزيع ثروات الأمة على الفقراء والمحرومين .

لقد اراد معاوية اقبار هذا الوعي الديني ، وامـاتة الشعور بالمسؤولية فأوعز الى لجان الوضع التي ابتدعها ان تفتعل الاحاديث على لسان المحرر العظيم الرسول (ص) في الزام الأمة بالخضوع للظلم ، والخنوع للجور ، والتسليم لما تقترفه سلطاتها من الجور والاستبداد وهذه بعض الاحاديث :

١ - روى البخاري بسنده عن رسول الله (ص) انه قال لاصحابه : « انكم سترون بعدى اثرة ، واموراً تنكرونها . قالوا فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : ادّوا إليهم حقهم ، واسألوا الله حقكم . . » (٢)

٢ - روى البخاري بسنده عن رسول الله (ص) أنه قال : « من

---

(١) شرح النهج ١٥ / ٢٤٢ .

(٢) صحيح البخاري ٨ / ٨٧ .

رأى من أميره شيئاً يكره فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية . . » (١)

٣ - روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي أنه سأل رسول الله (ص) فقال له : يانبي الله ارأيت ان قامت علينا امراء يسألونا حقهم ، ويمنعونا حقنا فما ترى ؟ فاعرض « ص » عنه فسأله ثانياً وثالثاً والرسول معرض فجذبه الأشعث بن قيس ، فقال رسول الله (ص) : اسمعوا واطيعوا فان عليهم ماحملوا وعليكم ماحملتم . » (٢)

٤ - روى البخاري بسنده عن عجرفة قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً ماكان . » (٣)

الى غير ذلك من الموضوعات التى خدرت الأمة ، وشلت حركتها الثورية ، وجعلتها قابعة ذليلة تحت وطأة الاستبداد الأموي وجوره ، وقد هب الامام الحسين (ع) الثائر الأول في الاسلام الى اعلان الجهاد المقدس ليوقظ الأمة من سباتها ويعيد للاسلام نضارته وروحه النضالية التى انحسرت في عهد الحكم الأموي .

مع أهل البيت :

وسخر معاوية جميع اجهزته للحط من قيمة اهل البيت (ع) الذين هم وديعة رسول الله (ص) والعصب الحساس في هذه الأمة ، وقد

(١) صحيح البخاري ٨ / ٨٧ .
(٢) صحيح البخاري ٢ / ١١٩ .
(٣) صحيح البخاري ٢ / ١٣١ .

استخدم اخطر الوسائل في محاربتهم واقصائهم عن واقع الحياة الاسلامية ، وكان من بين ما استخدمه في ذلك مايلي :

١ ـ تسخير الوعاظ .

وسخر معاوية الوعاظ في جميع انحـاء البلاد ليحولوا القلوب عن أهل البيت (١) ويذيعوا الاضاليل في انتقاصهم تدعيما للحكم الأموي ،

٢ ـ استخدام معاهد التعليم .

واستخدم معاوية معاهد التعليم واجهزة الكتاتيب لتغذية النشىء ببغض أهل البيت (ع) وخلق جيل معاد لهم (٢) وقد قامت تلك الاجهزة بدور خطير في بث روح الكراهية في نفوس النشىء لعترة النبي (ص) .

٣ ـ افتعال الاخبار .

واقام معاوية شبكة لوضع الاخبار تعد من اخطر الشبكات التخريبية في الاسلام فعهد إليها بوضع الاحاديث على لسان النبي (ص) للحط من قيمة أهل البيت (ع) اما الاعضاء البارزون في هذه اللجنة فهم :

١ ـ ابو هريرة الدوسي .

٢ ـ سمرة بن جندب .

٣ ـ عمرو بن العاص .

٤ ـ المغيرة بن شعبة .

وقد افتعلوا آلاف الاحاديث على لســان النبي (ص) وكانت عدة طوائف مختلفة حسب التخطيط السياسي للدولة وهي :

الطائفة الأولى : وضع الاخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت ، وقد عدّ الامام الباقر(ع) اكثر من مائة حديث منها :

---

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ١٦١ الطبعة الثانية .

(٢) حياة الامام الحسن ٢ / ١٦١ الطبعة الثانية .

أ ـ ان عمر محدث ـ بصيغة المفعول ـ اي تحدثه الملائكة .
ب ـ إن السكينة تنطق على لسان عمر .
ج ـ إن عمر يلقنه الملك .
د ـ إن الملائكة لتستحي من عثمان (١) .

الى كثير من امثال هذه الاخبار التي وضعت في فضل الصحابة ، يقول المحدث ابن عرفة المعروف بنفطويه : « ان اكثر الاحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في ايام بني امية تقرباً إليهم بمايظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم . . » (٢) كما وضعوا في فضل الصحابة الاحـاديث المماثلة للاحاديث النبوية في فضل العترة الطاهرة كوضعهم : « ان سيدي كهول أهـل الجنة ابو بكر وعمر » وقد عارضوا بذلك الحديث المتواتر « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » (٣) .

الطائفة الثانية : وضع الاخبار في ذم العترة الطاهرة والحط من شأنها فقد اعطى معاوية سمرة بن جندب اربع مائة الف على أن يخطب في أهل الشام ، ويروي لهم أن الآية الكريمة نزلت في علي وهي قوله تعـالى : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد » (٤) فروى لهم سمرة ذلك واخذ العوض الضخم من بيت مال المسلمين (٥) . . . ومما رووا أن النبي (ص) قال في آل

---

(١) حياة الأمام الحسن ٢ / ١٦٢ الطبعة الثانية .
(٢) النصائح الكافية (ص ٧٤) .
(٣) حياة الامام الحسن ٢ / ١٦٢ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٠٣ و ٢٠٤ .
(٥) النصائح الكافية (ص ٢٥٣) .

أبي طالب « إن آل أبي طالب ليسوا بأوليآء لي انما ولي الله وصالح المؤمنين » (١) وروى الأعمش انه لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة (سنة ٤١) جاء الى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مراراً ، وقال : ياأهل العراق أتزعمون أني اكذب (٢) على رسول الله (ص) واحرق نفسي بالنار ؟ لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : ان لكل نبي حرماً ، وان حرمي بالمدينة مابين عير الى ثور فمن احدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، واشهد بالله ان عليا احدث فيها ! ! فلما بلغ معاوية قوله اجازه واكرمه وولاه امارة المدينة (٣) .

الى كثير من امثال هذه الموضوعات التي تقدح في العترة الطاهرة التي هي مصدر الوعي والاحساس في العالم الاسلامي .

الطائفة الثالثة افتعال الاخبار في فضل معاوية لمحو العار الذي لحقه ولحق أباه وامرته في مناهضتهم للاسلام ، واخفاء ما أثر عن النبي (ص) في ذمهم ، وهذه بعض الأخبار المفتعلة :

١ - قال (ص) : « معاوية بن أبي سفيان احلم أمتي واجودها » (٤)

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ٣ / ١٥ .

(٢) علق على ذلك العلامة فقيد الاسلام الشيخ محمود ابو رية في كتابه ابو هريرة (ص ٢٣٦) بقوله « يدل هذا القول على أن كذب أبي هريرة على النبي كان قد اشتهر حتى عم الآفاق واصبح الناس يتحدثون به في كل مكان . »

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٥٩ .

(٤) البداية والنهاية ٨ / ١٢١ ، تطهير الجنان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة (ص ٢٦) .

٢ ـ قال (ص) : « صاحب سري معاوية بن أبي سفيان » (١)
٣ ـ قال (ص) « اللهم علمه ـ يعني معاوية ـ الكتاب وقه العذاب وادخله الجنة . . » (٢) .
٤ ـ قال (ص) « اذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه (٣) فانه امين هذه الامة » (٤) الى غير ذلك من الاحاديث الموضوعة التي تعكس الصراع الفكري ضد الاسلام عند معاوية وانه حاول جاهداً محو هذا الدين والقضاء عليه .

حديث مفتعل على الحسين :

من الأحاديث الموضوعة على الامام الحسين ما روى أنه وفد على معاوية زائراً في يوم الجمعة وكان قائماً على المنبر خطيباً فقال له رجل من القوم ائذن للحسين يصعد المنبر فقال له معاوية : ويلك دعني افتخر ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ووجه خطابه للحسين قائلاً له :

ـ سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا ابن بطحاء مكة ؟
ـ اي والذي بعث جدي بشيراً .
ـ سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا خال المؤمنين ؟
ـ اي والذي بعث جدي نبياً .

(١) تطهير الجنان (ص٢٦) .
(٢) تطهير الجنان (ص٢٦) .
(٣) وضع هذا الحديث لمعارضة الحديث الصحيح المروي عن رسول الله (ص) اذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه » .
(٤) تأريخ بغداد .

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا كاتب الوحي ؟

- اي والذي بعث جدي نذيراً .

ثم نزل معاوية عن المنبر ، فصعد الحسين فحمد الله بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون بمثلها ثم قال : حدثني أبي عن جدي عن جبرائيل عن الله تعالى ان تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يا شيعة آل محمد لا يأتي أحدكم يوم القيامة الا ادخله الله الجنة » .

فقال له معاوية : سألتك يا أبا عبد الله من شيعة آل محمد ؟ فقال عليه السلام : الذين لا يشتمون الشيخين أبا بكر وعمر ، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية .

وعلق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله : « هذا حديث منكر ولا أرى سنده متصلاً الى الحسين (١) .

وقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً بهذه الموضوعات التي دونت في كتب السنة ، وظن الكثيرون من المسلمين أنها حق ، فاضفوا على معاوية ثوب القداسة ، وألحقوه بالرعيل الأول من الصحابة المتحرجين في دينهم وهم من دون شك لو علموا واقعها لتبرؤا منها - كما يقول المدايني - (٢)

ولم تقتصر الموضوعات على تقديس معاوية والحط من شأن أهـل البيت (ع) وانما تدخلت في شؤون الشريعة فالصقت بهـا المتناقضات والمستحيلات مما شوهت الواقع الاسلامي وأفسدت عقائد المسلمين .

---

(١) تأريخ ابن عساكر ٤ / ٣١٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٣ / ١٦ .

سب الامام امير المؤمنين :

وتمادى معاوية في عدائه للامام أمير المؤمنين (ع) فاعلن سبه ولعنه في نواديه العامة والخاصة وأوعز إلى جميع عماله وولاته أن يذيعوا سبه بين الناس ، وسرى سب الامام في جميع انحاء العالم الاسلامي ، وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم :

« ايها الناس ، ان رسول الله (ص) قال لي : إنك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الارض المقدسة - يعني الشام - فان فيها الابدال ، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب » .

وعج أهل الشام بسب الامام (١) وخطب في اولئك الوحوش فقال لهم :

« ما ظنكم برجل - يعني علياً لا يصلح لاخيه - يعني عقيلاً - يا أهل الشام إن أبا لهب المذموم في القرآن هو عم علي بن أبي طالب » (٢).

ويقول المؤرخون : انه كان اذا خطب ختم خطابه بقوله : « اللهم ان أبا تراب الحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلا ، وعذبه عذاباً اليما . . . »

وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر (٣) ولما ولي معاوية المغيرة بن شعبة امارة الكوفة كان أهم ماعهد إليه ان لايتسامح في شتم الامام (ع) والترحم على عثمان ، والعيب لاصحاب علي واقصائهم ، واقام المغيرة

---

(١) النصائح الكافية (ص ٧٢) .

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٣ / ٣٦١ .

(٣) النصائح الكافية (ص)

والياً على الكوفة سبع سنين وهو لايدع ذم علي والوقوع فيه (١) . وقد اراد معاوية بذلك ان يصرف القلوب عن الامـــام (ع) وان يحول بين الناس وبين مبادئه التي اصبحت تطارده في قصوره يقول الدكتور محمود صبحي : « لقد اصبح علي جثة هامدة لايزاحمهم في سلطانهم ، ويخيفهم بشخصه ، ولا يعني ذلك – اي سب الامام – الا ان مبادئه في الحـــكم وآراءه في السياسة كانت تنغص عليهم في موته كما كانت في حياته .. »(٢)

لقد كان الامام رائد العدالة الانسانية والمثل الأعلى لهذا الدين ، يقول الجاحظ : « لايعلم رجل في الأرض متى ذكـر السبق في الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكر النخوة والذب عن الاسلام ، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الامور التي تناصر الناس عليها كان مذكوراً في هذه الخلال كلها الا في علي . » (٣)

ويقول الحسن البصري :

« والله لقد فارقـكم بالامس رجل كان سهما صائباً من مرامي الله عز وجل، رباني هذه الأمة بعد نبيها (ص) وصاحب شرفها وفضلها وذا القرابـــة القريبة من رسول الله (ص) غير مسؤم لأمر الله ، ولاسروقة لمال الله اعطى القرآن عزائمه فاورده رياضا مونقة ، وحدائق مغدقة ذلك علي بن ابي طالب . » (٤)

لقد عادت اللعنات التي كان يصبها معاوية وولاته على الامام باظهار فضائله فقد برز الامام للناس اروع صفحة في تأريخ الانسانية كلها ، وظهر للمجتمع انه المنادي الأول بحقوق الانسان ، والمؤسس الأول للعدالة الاجتماعية

---

(١) تأريخ الطبري ٦ / ١٤١ طبع اوربا .

(٢) نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية (ص ٢٨٢) .

(٣) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ١٤٥ .

(٤) مناقب ابن المغازلي رقم الحديث ٦٩ .

في الأرض لقد انطوت السنون والاحقاب ، واندكت معالم تلك الدول التي ناوئت الامام سواء أكانت من بني امية أم من بني العباس ، ولم يبق لها أثر ، وبقى الامام (ع) وحده قد احتل قمة المجد فهـا هو رائد الانسانية الاول وقائدها الاعلى واذا بحكمه القصير الأمد يصبح طغراء في حكام هذا الشرق ، واذا الوثائق الرسمية التي أثرت عنه تصبح مناراً لكل حكم صالح يستهدف تحقيق القضايا المصيرية للشعوب ، واذا بحكم معاوية اصبح رمزاً للخيانـة والعمالة ورمزاً لاضطهاد الشعوب واحتقارها .

ستر فضائل أهل البيت :

وحاول معـاوية بجميع طاقاته حجب فضائل آل البيت (ع) وستر مآثرهم عن المسلمين ، وعدم اذاعة ماأثر عن النبي (ص) في فضلهم ، يقول المؤرخون: إنه بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة فقاموا إليه تكريما ولم يقم إليه ابن عباس ، فبادره معاوية قائلا :

يابن عباس مامنعك من القيام ؟ كما قام أصحابك إلا لموجدة عـلي بقتالي إياكم يوم صفين ! ! يابن عباس إن ابن عمي عثمان قتل مظلوما . !

فرد عليه ابن عباس ببليغ منطقه قائلا :

ـ فعمر بن الخطاب قد قُتل مظلوما ، فسلم الأمر الى ولده ، وهذا ابنه ـ واشار الى عبد الله بن عمر ـ

اجابه معاوية بمنطقه الرخيص .

« إن عمر قتله مشرك . . »

فانبرى ابن عباس قائلا :

ـ فمن قتل عثمان ؟

ــ قتله المسلمون .

وامسك ابن عباس بزمامه فقال له :

« فذلك ادحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخـذلوه فليس الا بحق » ولم يجد معاوية مجالا للرد عليه ، فسلك حديثاً آخر أهم عنده من دم عثمان فقال له :

« إنا كتبنا الى الآفاق ننهي عن ذكر مناقب علي وأهل بيته فكف لسانك يابن عباس »

فانبرى ابن عباس بفيض من منطقه وبليغ حجته يسدد سهامـاً لمعاوية قائلا :

ــ فتنهانا عن قراءة القرآن ؟

ــ لا

ــ فتنهانا عن تأويله ؟

ــ نعم

ــ فنقرأه ولانسأل عما عنى الله به ؟

ــ نعم

ــ فايهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

ــ العمل به .

ــ فكيف نعمل به حتى نعلم ماعنى الله بما أنزل علينا ؟

ــ سل عن ذلك ممن يتأوله على غير ماتتأوله أنت وأهل بيتك .

ــ انما نزل القرآن على اهل بيتي ، فأسأل عنه آل ابي سفيان وآل ابي معيط ؟ ! !

ــ فاقرأوا القرآن ، ولاترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، ومما قالـه رسول الله (ص) فيكم ، وارووا ماسوى ذلك .

وسخر منه ابن عباس ، وتلا قوله تعالى : « يريدون أن يطفؤا نور الله بافواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون »

وصاح به معاوية :

« اكفني نفسك ، وكف عني لسانك ، وإن كنت فاعلا فليكن سراً ، ولاتسمعه أحداً علانية . . » (١)

ودلت هذه المحاورة على عمق الوسائل التي اتخذها معاوية في مناهضته لأهل البيت ، واخفاء مآثرهم .

وبلغ الحقد بمعاوية على الامام أنه لما ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمد بن ابي بكر ، وقتله استولى على كتبه ومذكراته وكان من بينها عهد الامام له ، وهو من اروع الوثائق السياسية ، فرفعه ابن العاص الى معاوية فلما رآه قال لخاصته : إنا لانقول هذا من كتب علي بن ابي طالب ولكن نقول : هذا من كتب ابي بكر التي كانت عنده (٢)

التحرج من ذكر الامام :

واسرف الحكم الاموي الى حد بعيد في محاربة الامام امير المؤمنين (ع) فقد عهد بقتل كل مولود يسمى علياً ، فبلغ ذلك علي بن رباح فخاف ، وقال : لااجعل في حل من سماني عليا فان اسمي علي — بضم العين — (٣) ويقول المؤرخون : ان العلماء والمحدثين تحرجوا من ذكر الامام علي والرواية عنه خوفاً من بني أمية فكانوا اذا إرادوا أن يرووا عنه يقولون :

---

(١) حياة الامام الحسن ٢ /٣٤٣ .

(٢) شرح النهج ٢ / ٢٨ .

(٣) تهذيب التهذيب ٧ / ٣١٩ .

« روى أبو زينب » (١) وروى معمر عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : « إن الله عز وجل منع بني اسرائيل قطر السماء لسوء رأيهم في انبيائهم ، واختلافهم في دينهم ، وانه اخذ على هذه الأمة بالسنين ، ومنعهم قطر السماء ببغضهم علي بن ابي طالب » .

قال معمر : حدثني الزهري في مرضة مرضها ، ولم اسمعه يحدث عن عكرمة قبلها ولا بعدها فلما ابل من مرضه ندم على حديثه لي وقال :

« يايماني اكتم هذا الحديث ، واطوه دوني فان هؤلاء — يعني بني أمية — لايعذرون احداً في تقريض علي وذكره . »

قال معمر : « فما بالك عبت عليـا مع القوم ، وقد سمعت الذي سمعت ؟ . . »

قال الزهري : « حسبك ياهذا انهم اشركونا مهامهم فاتبعناهم في اهوائهم . . » (٢)

وقد امتحن المسلمون امتحانا عسيرا في مودتهم للامام وتحرجوا اشد التحرج في ذلك ، يقول الشعبي : « ماذا لقينا من علي إن احببناه ذهبت دنيانا وان ابغضناه ذهب ديننا » ويقول الشاعر :

حب علي كلـه ضرب يرجف من تذكـاره القلب

هذه بعض المحن التي عاناها المسلمون في مودتهم لاهل البيت (ع) التي هي جزء من دينهم .

(١) شرح النهج ١١ / ١٤ .

(٢) مناقب ابن المغازلي رقم الحديث (١٤٩) .

مع الشيعة :

واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهاداً رسمياً في جميع انحاء البلاد ، وقوبلوا بمزيد من العنف والشدة ، فقد انتقم منهم معاوية كأشد مايكون الانتقام قسوة وعذابا ، فقد قاد مركبة حكومته على جثث الضحايا منهم ، وقد حكى الامام الباقر (ع) صوراً مريعة من بطش الأمويين بشيعة آل البيت (ع) يقول : « وقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الايدي والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره » (١) وتحدث بعض رجال الشيعة الى محمد بن الحنفية عمـا عانوه من المحن والخطوب بقوله :

« فما زال بنا الشين في حبكم حتى ضُربت عليه الاعناق ، وأبطلت الشهادات ، وشردنا في البلاد ، وأوذينا حتّى لقد هممت أن أذهب في الأرض قفراً ، فاعبد الله حتّى القاه ، لولا أن يخفى علي أمر آل محمد (ص) وحتّى هممت أن اخرج مع اقوام (٢) شهادتنا وشهادتهم واحدة على امرائنا فيخرجون فيقاتلون . » (٣)

لقد كان معاوية لايتهيب من الإقدام على اقتراف اية جريمة من اجل ان يضمن ملكه وسلطانه ، وقد كانت الشيعة تشكل خطراً على حكومتـه فاستعمل معهم اعنف الوسائل واشدها قسوة من اجل القضاء عليهم ، ومن بين الإجراءات القاسية التّي استعملها ضدهم ما يلي :

(١) شرح ابن ابي الحديد ٣ / ١٥ .
(٢) الاقوام : هم الخوارج .
(٣) طبقات ابن سعد ٥ / ٩٥ .

القتل الجماعي :

واسرف معاوية الى حد كبير في سفك دماء الشيعة ، فقد عهد الى الجلادين من قادة جيشه بتتبع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا ، وقد قتل بسر بن أبي ارطاة - بعد التحكيم - ثلاثين الفا عدا من احرقهم بالنار (١) وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة (٢) واما زياد بن ابيه فقد ارتكب افظع المجازر فقطع الايدي والارجل وسمل العيون ، وانزل بالشيعة من صنوف العذاب مالا يوصف لمرارته وقسوته ؟

ابادة القوى الواعية :

وعمد معاوية الى ابادة القوى المفكرة والواعية من الشيعة ، وقد ساق زمراً منهم الى ساحات الاعدام ، واسكن الثكل والحداد في بيوتهم ، وفيما يلي بعضهم .

١ - حجر بن عدي :

لقد رفع حجر بن عدي علم النضال ، وكافح عن حقوق المظلومين والمضطهدين ، وسحق ارادة الحاكمين من بني امية الذين تلاعبوا في مقدرات الأمة وحولوها الى مزرعة جماعية لهم ولعملائهم واتباعهم . . . لقد استهان حجر من الموت وسخر من الحياة ، واستلذ الشهادة في سبيل عقيدته ، فكان احد المؤسسين لمذهب اهل البيت (ع) .

(١) شرح النهج ٢ / ٦ .
(٢) الطبري ٦ / ٣٢ .

وامتحن حجر كأشد ماتكون المحنة قسوة حينما رأى السلطة تعلن سب الامام امير المؤمنين (ع) وترغم الناس على البراءة منه فانكر ذلك ، وجاهر بالرد على ولاة الكوفة ، واستحل زياد بن ابيه دمه فالقى عليه القبض ، وبعثه مخفوراً مع كوكبة من اخوانه الى معاوية ، واوقفوا في (مرج عذراء) فصدرت الأوامر من دمشق باعدامهم ، ونفذ الجلادون فيهم حكم الاعدام فخرت جثثهم على الأرض وهي ملفعة بدم الشهادة والكرامة وهي تضيء للناس معالم الطريق نحو حياة افضل لاظلم فيها ، ولا طغيان .

مذكرة الامام الحسين:

وفزع الامام الحسين حينما وافته الانباء بمقتل حجر فرفع مذكرة شديدة اللهجة الى معاوية ذكر فيها احداثه وبدعه ، والتي كان منها قتله لحجر والبررة من اصحابه ، وقد جاء فيها :

« الست القاتل حجراً اخا كندة ، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ، ولا يخافون في الله لومة لائم . . . قتلتهم ظلما وعدوانا من بعد ماكنت اعطيتهم الايمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم . . » (١)

واحتوت هذه المذكرة على ما يلي :

١ - الانكار الشديد على معاوية لقتله حجراً واصحابه من دون أن يقترفوا جرماً أو يحدثوا فساداً في الارض .

٢ - انها اشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشهداء من انكار الظلم ،

---

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ٣٦٥ .

ومقاومة الجور واستعظام البدع والمنكرات التي احدثتها حكومة معاوية ، وقد هبوا الى ميادين الجهاد لاقامة الحق ومناهضة المنكر .

٣ ـ انها اثبتت ان معاوية قد اعطى حجراً واصحابه عهداً خاصاً في وثيقة وقعها قبل ابرام الصلح ان لايعرض لهم باي إحنة كانت بينه وبينهم ، ولايصيبهم بأي مكروه ، ولكنه قد خاس بذلك فلم يف به كما لم يف للامام الحسن بالشروط التي اعطاها له ، وانما جعلها تحت قدميه كما اعلن ذلك في خطابه الذي القاه في النخيلة .

لقد كان قتل حجر من الاحداث الجسام في الاسلام ، وقد توالت صيحات الانكار على معاوية من جميع الاقاليم الاسلامية ، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الامام الحسن «ع») .

١ ـ رشيد الهجري :

وفي فترات المحنة الكبرى التي مُنيت بها الشيعة في عهد ابن سمية تعرض رشيد الهجري لانواع المحن والبلوى فقد بعث زياد شرطته إليه فلما مثل عنده صاح به « ما قال لك خليلك ـ يعني علياً ـ انا فاعلون بك ؟ . . » فاجابه بصدق وايمان :

« تقطعون يديّ ورجليّ ، وتصلبوني »

وقال الخبيث مستهزءاً وساخراً :

« اما والله لأكذبن حديثه ، خلوا سبيله . »

وخلت الجلاوزة سراحه ، وندم الطاغية فأمر باحضاره فصاح به : « لانجد شيئاً اصلح مما قال صاحبك : إنك لاتزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت ، اقطعوا يديه ورجليه » وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه ، وهو غير حافل بما يعانيه من الآلام ، ويقول المؤرخون : انه اخذ يذكر مثالب بني امية ، ويدعو الى ايقاظ الوعي والثورة ، مما غاظ ذلك زياداً فأمر بقطع

لسانه (١) الذي كان يطالب بالحق والعدل ، وينافح عن حقوق الفقراء والمحرومين .

٣ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي :

ومن شهداء العقيدة : الصحابي العظيم عمرو بن الحمق الخزاعي الذي دعا له النبي (ص) أن يمتعه الله بشبابه ، واستجاب الله دعاء نبيه فقد اخذ عمرو بعنق الثمانين عاما ولم تر في كريمته شعرة بيضاء (٢) وتأثر عمرو بهدي اهل البيت واخذ من علومهم فكان من اعلام شيعتهم : ؟ :

وفي اعقاب الفتنة الكبرى التي منيت بها الكوفة في عهد الطاغية زياد بن سمية شعر عمرو بتتبع السلطة له ففر مع زميله رفاعة بن شداد الى الموصل ، وقبل أن ينتهيا إليه كمنا في جبل ليستجيا فيه ، وارتابت الشرطة فبادرت الى القاء القبض على عمرو اما رفاعة ففر ولم تستطع ان تلقي عليه القبض وجيء بعمرو مخفوراً الى حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي ، فرفع امره الى معاوية فأمره بطعنه تسع طعنات بمشاقص (٣) لأنه طعن عثمان بن عفـان ؛ وبادرت الجلاوزة الى طعنه فمات في الطعنة الأولى ، واحتز رأسه الشريف وارسل الى طاغية دمشق فأمر ان يطاف به في الشام ، ويقول المؤرخون انه اول رأس طيف به في الاسلام ، ثم أمر به معاوية ان يحمل الى زوجته السيدة آمنة بنت شريد ، وكانت في سجنه ، فلم تشعر الا ورأس زوجها قد وضع في حجرها ، فذعرت وكادت أن تموت وحملت من السجن الى معاوية وجرت بينها وبينه محادثات دلت على ضعة معاوية واستهانته بالقيم العربية والاسلامية القاضية بمعاملة المرأة معاملة كريمة ولا تؤخذ بأي ذنب يقترفه زوجها أو غيره .

---

(١) سفينة البحار ١ / ٥٢٢ .

(٢) الاصابة ٢ / ٥٢٦ .

(٣) المشاقص :ـ جمع مفردة مشقص ـ النصل العريض أو سهم فيه نصل عريض

مذكرة الامام الحسين :

والتاع الامام الحسين (ع) أشد ما تكون اللوعة حينما علم بمقتل عمرو فرفع مذكرة الى معاوية عدد فيها احداثه وما تعانيه الأمة في عهده من الاضطهاد والجور ، وجاء فيما يخص عمرواً :

« اولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي ابلته العبادة فنحل جسمه ، واصفر لونه ، بعدما امنته ، واعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو اعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل ، ثم قتلته جراءة على ربك واستخفافاً بذلك العهد . . » (١)

لقد خاس معاوية بما اعطاه لهذا الصحابي الجليل — بعد الصلح — من العهد والمواثيق بان لايعرض له بسوء ولامكروه .

٤ — اوفى بن حصن :

وكان اوفى بن حصن من خيار الشيعة — في الكوفة — واحد اعلامهم النابهين ، وهو من أشد الناقمين على معاوية فكان يذيع مساوءه واحداثه ؛ ولما علم به ابن سمية أوعز الى الشرطة بالقاء القبض عليه ولما علم اوفى بذلك اختفى ، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى فشك في امره فسأل عنه فاخبر باسمه ، فامر باحضاره فلما مثل عنده سأله عن سياسته فعابها وانكرها ؛ فأمر زياد بقتله ، فهوى الجلادون عليه بسيوفهم وتركوه جثة هامدة (٢) .

---

(١) حياة الامام الحسن .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ١٨٠ ، الطبري ٦ / ١٣٠ — ١٣٢ .

٥ ـ الحضرمي مع جماعته :

وكان عبد الله الحضرمي من اولياء الامـــام امير المؤمنين ومن خاص شيعته كما كان من شرطة الخميس ؛ وقد قال له الامـــام يوم الجمل : « ابشر ياعبد الله فانك واباك من شرطة الخميس ، لقد اخبرني رسول الله بإسمك واسم ابيك في شرطة الخميس ولما قتل الامام جزع عليه الحضرمي وبنى له صومعة يتعبد فيها وانضم إليه جماعة من خيار الشيعة ، فأمر ابن سمية باحضارهم ، ولما مثلوا عنده أمر بقتلهم ، فقتلوا صبراً (١) .

لقد كانت فاجعة عبد الله كفاجعة حجر بن عدي فكلاهما قتل صبراً وكلاهما اخذ بغير ذنب سوى الولاء لعترة رسول الله (ص) .

انكار الامام الحسين :

وفزع الامام الحسين كأشد ما يكون الفزع الما ومحنة على مقتل الحضرمي وجماعته الاخيار فانكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له وقد جاء فيهـــا . « اولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنـــه على دين علي (ع) فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي ، فقتلهم ومثل فيهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي اجلسك مجلسك الذي انت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف . »

ودلت هذه المذكرة ـ بوضوح ـ على أن معاوية قد عهد الى زياد بقتل كل من كان على دين علي (ع) الذي هو دين رسول الله (ص) كما دلت على ان زياداً قد مثّل بهؤلاء البررة بعد قتلهم تشفيـــا منهم لولائهم لعترة

(١) بحار الأنوار ١٠ / ١٠١ .

رسول الله (ص) .

٦ ــ جويرية العبدي :

ومن عيون شيعة الامام جويرية بن مسهر العبدي ، وفي فترات المحنة الكبرى التي امتحنت بها الشيعة أيام ابن سمية ، بعث خلفــه فأمر بقطع يده ورجله وصلبه على جذع قصير (١) .

٧ ــ صيفي بن فسيل :

ومن ابطال العقيدة الاسلاميــة صيفي بن فسيل الذي ضرب اروع الامثلة للايمان فقد سُعي به الى الطاغية زياد فلما جيء به إليه صاح به :

ــ ياعدو الله ماتقول في ابي تراب ؟

ــ ما اعرف أبا تراب (٢)

ــ ما اعرفك به ؟

ــ اما تعرف علي بن أبي طالب ؟

ــ بلى

ــ فذاك أبو تراب .

ــ كلا ذاك أبو الحسن والحسين .

وانبرى مدير شرطة زياد منكراً عليه :

« يقول لك الأمير : هو أبو تراب ، وتقول : أنت لا : ! ! »

فصاح به البطل العظيم مستهزءاً منه ومن أميره .

« وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب ؟ وأشهد على باطل كما شهد

---

(١) شرح ابن ابي الحديد .

(٢) كان الأمويون يرمزون بهذه الكنية الى جعل الامــام كقاطع طريق جاء ذلك في التأريخ السياسي للدولة العربية ٢ /٧٥ ، وجاء في الاغاني ١٣ / ١٦٨ ان زياداً كان يحتقر الشيعة ويسميهم الترابية .

وتحطم كبرياء الطاغية ، وضاقت به الأرض فقال له :

« وهذا ايضاً مع ذنبك »

وصاح بشرطته علي بالعصا ، فاتوه بها ، فقال له :

« ماقولك ؟ »

وانبرى البطل بكل بسالة واقدام غير حافل به قائلا :

« أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين . . »

واوعز السفاك الى جلاديه يضرب عاتقــه حتّى يلتصق بالأرض ، فسعوا إليه بهراواتهم فضربوه ضربا مبرحا حتّى وصل عاتقه الى الأرض ، ثم أمرهم بالكف عنه ، وقال له :

« إيه ماقولك في علي ؟ »

وحسب الطاغية ان وسائل تعذيبه سوف تقلبه عن عقيدته فقال له :

والله لو شرحتني بالمواسي والمدى ، ماقلت الا ماسمعت مني »

وفقد السفاك اهابه فصاح به ؛

« لتلعنه أو لأضربن عنقك . . »

وهتف صيفي يقول :

« إذاً تضربها والله قبل ذلك ، فإن أبيت الا أن تضربهـــا رضيت بالله وشقيت أنت . . »

وأمر به ان يوقر في الحديـــد ، ويلقى في ظلمات السجون (١) ثم بعثه مع حجر بن عدي فاستشهد معه (٢) .

٨ ـــ عبد الرحمن :

وكان عبد الرحمن العنزي من خيار الشيعة وقد وقع في قبضة جلاوزة

(١) الطبري ٤ / ١٩٨ .

(٢) حياة الامام الحسن ٢ / ٣٦٢ .

زياد فطلب منهم مواجهة معاوية لعله أن يعفو عنه فاستجابوا له وارسلوه مخفوراً الى دمشق فلما مثل عند الطاغية قال له :

« إيه أخا ربيعة ماتقول في علي ؟ . . »

« دعني ولا تسألني فهو خير لك ... »

« والله لا ادعك .. »

فانبرى البطل الفذ يدلي بفضائل الامام ، ويشيد بمقامه قائلا :

أشهد انه كان من الذاكرين الله كثيراً ، والآمرين بالحق ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس »

« والتاع معاوية فعرج نحو عثمان لعله أن ينال منه فيستحل اراقة دمه فقال له :

« ما قولك في عثمان ؟ »

فاجابه عن انطباعاته عن عثمان ، فغاظ ذلك معاوية وصاح به :

« قتلت نفسك »

« بل اياك قتلت ، ولا ربيعة بالوادي . »

وظن عبد الرحمن أن اسرته ستقوم بحمايته وانقاذه ، فلم ينبر إليه احد ولما أمن منهم معاوية بعثه الى الطاغية زياد ، وأمره بقتله فبعثه زياد الى « قس الناطف » (١) فدفنه وهو حي (٢)

لقد رفع هذا البطل العظيم راية الحق ، وحمل معول الهدم على قلاع الظلم والجور ، واستشهد منافحاً عن اقدس قضية في الاسلام .

هؤلاء بعض الشهداء من اعلام الشيعة الذين حملوا مشعل الحريـــة ، واضاؤا الطريق لغيرهم من الثوار الذين اسقطوا هيبة الحكم الأموي ، وعملوا على انقاضه .

---

(١) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة .

(٢) الطبري ٦ / ١٥٥ .

المروعون من اعلام الشيعة :

وروع معاوية طائفة كبيرة من الشخصيات البارزة من رؤساء الشيعة وفيما يلي بعضهم :

١ ـ عبد الله بن هاشم المرقال :
٢ ـ عدي بن حاتم الطائي .
٣ صعصعة بن صوحان .
ـ ٤ عبد الله بن خليفة الطائي :

وقد ارهق معاوية هؤلاء الاعلام ارهاقا شديداً ، فطاردتهم شرطته وافزعتهم الى حد بعيد وقد ذكرنا ماعانوه من الخطوب في كتابنا « حياة الامام الحسن » :

ترويع النساء :

ولم يقتصر معاوية في تنكيله على السادة من رجال الشيعة ، وانما تجاوز ظلمه الى السيدات من نسائهم ، فاشاع فيهن الذعر والارهاب ، فكتب الى بعض عماله بحمل بعضهن إليه ، فحملت له هذه السيدات :

١ ـ الزرقاء بنت عدي .
٢ ـ أم الخير البارقية .
٣ ـ سودة بنت عمارة
٤ ـ ام البراء بنت صفوان .

٥ ـ بكارة الهلالية .
٦ ـ اروى بنت الحارث .
٧ ـ عكرشة بنت الاطرش .
٨ ـ الدارمية الحجونية .

وقد قابلهن معاوية بمزيــد من التوهين والاستخفاف ، واظهر لهن الجبروت والقدرة على الانتقام غير حافل بوهن المرأة وضعفها ، وقد ذكرنا ما جرى عليهن في مجلسه من التحقير في كتابنا « حياة الامام الحسن »

هدم دور الشيعة :

واوعز معاوية الى جميع عماله بهدم دور الشيعة ، فقاموا بنقضها (١) وتركوا شيعة آل البيت (ع) بلا مأوى يأوون إليــه ، ولم يكن هناك اي مبرر لهذه الإجراءات القاسية سوى تحويل الناس عن عترة رسول الله (ص)

حرمان الشيعة من العطاء :

ومن المآسي الكئيبة التي عانتها الشيعة في أيام معاوية أنه كتب الى جميع عماله نسخة واحدة جاء فيها « انظروا الى من قامت عليه البينة انه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه » (٢) وبادر عماله في الفحص في سجلاتهم فمن وجدوه محبا لآل البيت (ع) محوا اسمه واسقطوا عطاءه .

(١) شرح النهج ١١ / ٤٤ .
(٢) شرح النهج ١١ / ٤٤ .

عدم قبول شهادة الشيعة :

وعمد معاوية الى اسقاط الشيعة اجتماعيا فعهد الى جميع عماله بعدم قبول شهادتهم في القضاء وغيره (١) مبالغة في اذلالهم وتحقيرهم .

ابعاد الشيعة الى خراسان :

واراد زياد بن أبيه تصفية الشيعة من الكوفة ، وكسر شوكتهم فأجلى خمسين الفا منهم الى خراسان المقاطعة الشرقية في فارس (٢) وقد دق زياد بذلك اول مسمار في نعش الحكم الأموي ، فقد اخذت تلك الجماهير التي ابعدت الى فارس تعمل على نشر التشيع في تلك البلاد ، حتى تحولت الى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي ، وهي التي اطاحت به تحت قيادة أبي مسلم الخراساني .

هذا بعض ما عانته الشيعة في عهد معاوية من صنوف التعذيب والارهاب ، وكان ماجرى عليهم من المآسي الاليمة من اهم الاسباب في ثورة الامام الحسين ، فقد رفع علم الثورة لينقذهم من المحنة الكبرى التي امتحنوا بها ويعيد لهم الأمن والاستقرار .

البيعة ليزيد :

وختم معاوية حياته باكبر اثم في الاسلام وافظع جريمة في التأريخ ،

(١) حياة الامام الحسن .

(٢) تأريخ الشعوب الاسلامية ١ / ١٤٧ .

فقد اقدم غير متحرج على فرض خليعه يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودنيـــاهم ، ويخلد لهم الويلات والخطوب ، . . وقد استخدم معاوية شتى الوسائل المنحطة في جعل الملك وراثة في ابنائه ، .ويرى الجاحظ أنه تشبه بملوك الفرس البزنطيين فحول الخلافة الى ملك كسروي ، وعصب قيصري . . وقبل أن نعرض الى تلك البيعة المشومة ، ومارافقها من الاحداث نذكر عرضاً موجزاً لسيرة يزيد ، ومايتصف به من القابليات الشخصية التي عجت بذمها كتب التأريخ من يومه حتى يوم الناس هذا ، وفيما يلي ذلك

ولادة يزيد :

ولد يزيد سنة (٢٥) أو (٢٦ هـ) (١) وقد دهمت الأرض شعلة من نار جهنم وزفيرهـــا تحوط به دائرة السوء وغضب من الله ، وهو اخبث انسان وجد في الأرض فقد خلق للجريمة والاساءة الى الناس ، واصبح علما للانحطاط الخلقي والظلم الاجتماعي وعنوانا بغيضا للاعتداء على الأمة وقهر ارادتها في جميع العصور ، يقول الشيخ محمد جواد مغنية : « اما كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسما لابن معاوية أما هي الآن عنـــد الشيعة فانها رمز للفساد والاستبداد ، والتهتك والخلاعة وعنوان للزندقة والالحـــاد فحيث يكون الشر والفساد فثم اسم يزيد ، وحيثما يكون الخير والحق والعدل فثم اسم الحسين » (٢)

وقد أثر عن النبي (ص) انه نظر الى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر الى عطفيه فقال (ص) : « اي يوم لأمتي منك ، واي يوم سوء

(١) تأريخ القضاعي من مصورات مكتبة الامام الحكيم العامة .

(٢) الشيعة في الميزان (ص ٤٥٥) .

للدريّي منك من جرو يخرج من صلبك يتخذ آيات الله هزواً ويستحل من حرمتي ما حرم الله عز وجل » (١) .

نشأته :

نشأ يزيد عند اخواله في البادية من بني كلاب الذين كانوا يعتنقون المسيحية قبل الاسلام ، وكان مرسل العنان مع شبابهم الماجنين ، فتـأثر بسلوكهم الى حد بعيد فكان يشرب معهم الخمر ويلعب معهم بالكلاب ، يقول العلائلي : « إذا كان يقينا أو يشبه اليقين ان تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة أو بعبارة اخرى كانت مسيحية خالصة ، فلم يبق مايستغرب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الاسلاميـة ، لايحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب ، ولا يقيم لها وزناً بل الذي نستغرب أن يكون على غير ذلك » (٢)

والذي نراه أن نشأته كانت نشأة جاهلية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولاتحمل أي طابع من الدين مهما كان ، فان استهتاره في الفحشاء وامعانه في المنكر والأثم مما يوحي الى الاعتقاد بذلك .

صفاته :

اما صفاته الجسمية فقد كان شديد الأدمة بوجهه آثار الجدري (٣)

---

(١) المناقب والمثالب « ص ٧١ » للقاضي نعمان المصري .

(٢) سمو المعنى في سمو الذات « ص ٥٩ » .

(٣) تأريخ القضاعي .

كما كان ضخماً ذا سمنة كثير الشعر (١) واما صفاته النفسية فقد ورث صفات جده أبي سفيان وأبيه معاوية من الغدر والنفاق ، والطيش والاستهتار يقول السيد مير علي الهندي :

« وكان يزيد قاسياً غداراً كأبيه ، ولكنه ليس داهية مثله كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار من اللباقة الدبلوماسية الناعمة وكانت طبيعته المنحلة ، وخلقه المنحط لاتتسرب إليها شفقة ولاعدل . . كان يقتل ويعذب نشداناً للمتعة واللذة التي يشعر بها ، وهو ينظر الى آلام الآخرين ، وكان بؤرة لأبشع الرذائل ، وهاهم ندماؤه من الجنسين خير شاهد على ذلك . . لقد كانوا من حثالة المجتمع . . » (٢)

لقد كان جافي الخلق مستهتراً ، بعيداً عن جميع القيم الانسانية ، ومن ابرز ذاتياته ميله الى اراقة الدماء ، والاساءة الى الناس ففي السنة الاولى من حكمه القصير اباد عترة رسول الله « ص » وفي السنة الثانية اباح المدينة ثلاثة ايام وقتل سبعمائة رجل من المهاجرين والانصار وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين .

ولعه بالصيد :

ومن مظاهر صفات يزيد ولعه بالصيد فكان يقضي اغلب أوقاته فيه ، ويقول المؤرخون :

« كان يزيد بن معاوية كلفا بالصيد لاهياً به ، وكان يلبس كلاب

---

(١) تأريخ الاسلام للذهبي ١ /٢٦٧ .

(٢) روح الاسلام (ص ٢٩٦)

الصيد الاساور من الذهب والجلال المنسوجة منـــه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه . » (١)

شغفه بالقرود :

وكان يزيد ــ فيما اجمع عليه المؤرخون ــ ولعا بالقرود ، فكان له قرد يجعله بين يديه ويكنيه بأبي قيس ، ويسقيه فضل كأسه ، ويقول : هذا شيخ من بني اسرائيل اصابته خطيئة فمسخ ، وكان يحمله على اتان وحشية ويرسله مع الخيل في حلبة السباق ، فحمله يوما فسبق الخيل فسر بذلك وجعل يقول :

تمسك أبا قيس بفضل زمامها ... فليس عليها ان سقطت ضمان

فقد سبقت خيل الجماعة كلها ... وخيـــل امير المؤمنين اتـــان

وارسله مرة في حلبة السباق فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزنـــا شديداً وأمر بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزوه بمصابـــه الأليم ، وانشأ راثيا له :

كم من كرام وقوم ذوو محافظه ... جاءوا لنا ليعزوا في أبي قيس

شيخ العشيرة امضاها واجملهـــا ... على الرووس وفي الأعناق والريس

لايبعد الله قبراً أنت ساكنـــه ... فيه جمال وفيه لحية التيس (٢)

وذاع بين الناس هيامه وشغفه بالقرود حتى لقبوه بها ، ويقول رجل من تنوخ هاجيا له :

---

(١) الفخري (ص ٤٥) .

(٢) جواهر المطالب في مناقب الامام علي بن أبي طالب (ص ١٤٣) من مصورات مكتبة الامام الحكيم .

يزيد صديق القرد ملّ جوارنا فحنّ الى ارض القرود يزيـــد
فتبا لمن امسى علينا خليفــــة صحابته الادنون منه قرود(١)

ادمانه على الخمر :

والظاهرة البارزة من صفات يزيد ادمانه على الخمر ، وقد اسرف في ذلك الى حـــد كبير فلم ير في وقت الا وهو ثمل لايعي من السكر ، ومن شعره في الخمر

اقول لصحب ضمت الكأس شملهم وداعي صبابـــات الهـــوى يترنم
خـــذوا بنصيب من نعيم ولــــذة فكل وإن طال المدى يتصرم (٢)

وجلس يومـــا على الشراب وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الحسين فقال :

اسقني شربة تروي شاشي ثم صل مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والامانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي (٣)

وفي عهده طرأ تحول كبير على شكل المجتمع الاسلامي فقد ضعف ارتباط المجتمع بالدين ، وانغمس الكثيرون من المسلمين في الدعارة والمجون ولم يكن ذلك التغيير اقليميا ، وانما شمل جميع الاقاليم الاسلامية فقد سادت فيها الشهوات والمتعة والشراب ، وقد تغيرت الاتجاهات الفكرية التي ينشدها الاسلام عند اغلب المسلمين .

وقد اندفع الاحرار من شعراء المسلمين في اغلب عصورهم الى هجاء

---

(١) انساب الاشراف ٢ / ٢

(٢) تاريخ المظفري .

(٣) مروج الذهب ٢ / ٧٤

يزيد لادمانه على الخمر ، يقول الشاعر بن عرادة :

ابني أمية ان آخر ملككم ... جسد بحوّراين ثمّ مقيم
طرقت منيته وعند وساده ... كوب وزق راعف مرثوم
ومرنة تبكي على نشوانه ... بالصنج تقعد تارة وتقوم(١)

ويقول فيه أنور الجندي :

خلقت نفسه الأثيمة بالمكر ... وهامت عيناه بالفحشاء
فهو والكأس في عناق طويل ... وهو والعار والخناء في خباء

ويقول فيه بولس سلامة :

وترفق بصاحب العرش مشغو ... لا عن الله بالقيان الملاح
الف « الله اكبر » لا تساوي ... بين كفي يزيد نهلة راح
تتلظى في الدن بكراً فلم ... تدنس بلثم ولا بماء قراح (٢)

لقد عاقر يزيد الخمر ، واسرف في الادمان حتّى ان بعض المصادر تعزو سبب وفاته الى أنه شرب كمية كبيرة منه فاصابه انفجار فهلك منه (٣)

ندماؤه :

واصطفى يزيد جماعة من الخلعاء والماجنين فكان يقضي معهم لياليه الحمراء بين الشراب والغناء وفي طليعة ندمائه الاخطل الشاعر المسيحي الخليع

(١) تأريخ الطبري ٧ / ٤٣

(٢) ملحمة الغدير (ص ٢٢٧)

(٣) تأريخ المظفري من مصورات مكتبة الامام الحكيم ، وجاء في انساب الاشراف ٤ / ق ٢ / ٢ ان سبب وفاة يزيد انه حمل قرده على اتان ، وهو سكران فركض خلفها فاندقت عنقه فانقطع شيء في جوفه فمات

فكانا يشربان ويسمعان الغناء ، واذا اراد السفر صحبه معه (١) ولما هلك يزيد وآل أمر الخلافة الى عبد الملك بن مروان قربه فكان يدخل عليه بغير إستئذان ، وعليه جبة خز ، وفي عنقه سلسلة من ذهب ، والخمر يقطر من لحيته (٢) .

نصيحة معاوية ليزيد :

ولما شاع استهتار يزيد واقترافه لجميع الوان المنكر والفساد ، استدعاه معاوية فاوصاه بالتكتم في نيل الشهوات لئلا تسقط مكانته الاجتماعية ، قائلا :

يابني ماقدرك على أن تصير الى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروئتك وقدرك ثم انشده .

انصب نهاراً في طلاب العلى … واصبر على هجر الحبيب القريب

حتى اذا الليل اتى بالدجا … واكتحلت بالغمض عين الرقيب

فباشر الليل بما تشتهي … فانما الليل نهار الأريب

كم فاسق تحسبه ناسكاً … قد باشر الليل بأمر عجيب (٣)

دفاع محمد عزة دروزة :

من الكتاب الذين يحملون النزعة الأموية في هذا العصر محمد عزة دروزة فقد جهد نفسه ـ مع الأسف ـ على الدفاع عن منكرات الأمويين

(١) الاغاني ٧ / ١٧٠ .

(٢) الاغاني ٧ / ١٧٠ .

(٣) البداية والنهاية ٨ /٢٢٨ .

وتبرير ما أثر عنهم من الظلم والجور والفساد ، وقد دافع عن معاوية ونزهه عما اقترفه من الموبقات التي هي لطخة عار في تأريخ الانسانية . . . وقد علق على هذه البادرة بقوله : « نحن ننزه معاوية صاحب رسول الله (ص) وكاتب وحيه ، والذي أثرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه ، عن أن يرضى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود بله التشجيع بل نستبعد هذا عن يزيد » (١) وهذا مما يدعو الى السخرية والتفكه ، فقد تنكر دروزة للواضحات التي لايشك فيها أي انسان يملك عقله واختياره ، وقديما قد قيل .

وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

أن ما أثر عن معاويه من الأحداث الجسام كقتله حجر بن عدي ، ورشيد الهجري وعمرو بن الحمق الخزاعي ونظرائهم من المؤمنين ، وسبه للعترة الطاهرة ، ونكايته بالأمة بفرض يزيد خليفة عليها وغير ذلك من الجرائم التي المعنا الى بعضها في البحوث السابقة وهي مما تدل على تشويه اسلامه وانحرافه عن الطريق القويم ، ولكن دروزة وامثاله لاينظرون الى الواقع الا بمنظار اسود فراحوا يقدسون الامويين الذين اثبتوا بتصرفاتهم السياسية والادارية انهم خصوم الاسلام واعداؤه .

اقرار معاوية لاستهتار يزيد :

وهام معاوية بحب ولده يزيد فاقره على فسقه وفجوره ، ولم يردعه عنه ويقول المؤرخون : انه نقل له ان ولده على الشراب فاتاه يتجسس عليه فسمعه ينشد :

(١) تأريخ الجنس العربي ٨ / ٨٦ .

اقول لصحب ضمت الكأس شملهم   وداعي صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة   فكل وإن طال المدى يتصرم
ولا تتركوا يوم السرور الى غد   فان غداً يأتي بما ليس يعلم
الا ان اهنا العيش ما سمحت به   صروف الليالي والحوادث نوم

فعاد معاوية الى مكانه ولم يعلمه بنفسه ، وراح يقول :
والله لاكنت عليه ، ولا نغصت عليه عيشه (١)

حقد يزيد على النبي :

واترعت نفس يزيد بالحقد على النبي (ص) والبغض له ، لأنه وتره باسرته يوم بدر ، ولما أباد العترة الطاهرة جلس على اريكة الملك جذلانا مسروراً يهز اعطافه فقد استوفى ثأره من النبي (ص) وتمنى حضور اشياخه ليروا كيف أخذ بثأرهم وجعل يترنم بابيات ابن الزبعرى :

ليت اشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا   ثم قالوا : يايزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من اشياخهم   وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم   من بني احمد ماكان فعل (٢)

---

(١) تأريخ المظفري من مصورات مكتبة الامام الحكيم .
(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٩٢ .

بغضه للانصار :

وكان يزيد يبغض الانصار بغضاً عارما لأنهم ناصروا النبي (ص) وقاتلوا قريشا ، وحصدوا رؤوس اعلامهم ، كما كانوا يبغضون بني أمية فقد قتل عثمان بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه ، ثم بايعوا عليا ، وذهبوا معه الى صفين لحرب معاوية ، ولما استشهد الامام كانوا من أهم العناصر المعادية لمعاوية ، وكان يزيد يتميز من الغيظ عليهم وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجوهم فامتنع وقال له :

« اردتني الى الاشراك بعد الايمان ، لااهجو قوماً نصروا رسول الله (ص) ولكن ادلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور — يعني الاخطل - »

فدعا يزيد الاخطل ، وطلب منه هجاء الانصار فاجابه الى ذلك ، وهجاهم بهذه الابيات المقذعة :

لعن الآله من اليهود عصابة	ما بين صليصل وبين صرار (١)
قوم اذا هدر القصير رأيتهم	حمراً عيونهم من المسطار (٢)
خلوا المكارم لستم من اهلها	وخذوا مساحيكم بني النجار
ان الفوارس يعلمون ظهوركم	اولاد كل مقبح اكاز (٣)
ذهبت قريش بالمكارم كلها	واللؤم تحت عمائم الانصار (٤)

(١) صليصل وصرار : من الاماكن القريبة للمدينة .

(٢) المسطار : الخمر الصارعة لشاربها .

(٣) اكاز : الحراث .

(٤) طبقات الشعراء (ص ٣٩٢)

لقد ابتدأ الاخطل هجاءه للانصار بذم اليهود وقرن بينهم وبين الانصار لأنهم يساكنونهم في يثرب ، وقد عاب على الانصار بأنهم اهل زرع وفلاحة وانهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم واتهمهم بالجبن عند اللقاء ، ونسب الشرف والمجد الى القرشيين واللؤم كله تحت عمائم الانصار ، وقد أثار هذا الهجاء المر حفيظة النعمان بن بشير الذي هو احد عملاء الأمويين ، فانبرى غضبانا الى معاوية فلما مثل عنده حسر عمامته عن رأسه وقال :

« يامعاوية أترى لؤما ؟ . »

« لابل ارى خيراً وكرما ، فما ذاك ؟ ! ! »

زعم الاخطل أن اللؤم تحت عمائمنا ! ! »

واندفع النعمان يستجلب عطف معاوية قائلا

معاوي الا تعطنا الحق تعترف ... لحق الازد مسدولا عليها العمائم

أيشتمنا عبـــد الاراقم ضلـــة ... فما ذا الذي تجدي عليك الاراقم

فمالي ثـــأر دون قطع لسانـــه ... فدونك من ترضيه عنه الدراهم (١)

قال معاوية :

ـ ماحاجتك ؟

ـ لسانه

ـ ذلك لك

وبلغ الخبر الاخطل فأسرع الى يزيد مستجيراً به وقال له : هذا الذي كنت اخافه فطمأنه يزيد وذهب الى أبيه ، فأخبره بأنه قد اجاره ، فقال معاوية : لاسبيل الى ذمة أبي خالد ــ يعني يزيداً ــ فعفى عنه ، وجعل الاخطل يفخر برعاية يزيد له ، ويشمت بالنعمان بقوله :

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٣٢١ ــ ٣٢٢

أبا خالد دافعت عني عظيمة　　وادركت لحمي قبل أن يتبددا
واطفأت عني نار نعمان بعدما　　أغـذ لأمـر عـاجز وتجردا
ولما رأى النعمان دوني ابن حرة　　طوى الكشح اذ لم يستطعني وعردا (١)

هذه بعض نزعات يزيد واتجاهاته ، وقد كشفت عن مسخه وتمرسه في الجريمة وتجرده من كل خلق قويم ... وان من مهازل الزمن وعثرات الأيام ان يكون هذا الخليع حاكماً على المسلمين واماما لهم .

دعوة المغيرة لبيعة يزيد

وأول من تصدى لهذه البيعة المشؤمة اعور ثقيف المغيرة بن شعبة صاحب الاحداث والموبقات في الاسلام (٢) وقد وصفه بركلمان بأنه رجل انتهازي لاذمة له ولا ذمام (٣) وهو احد دهاة العرب الخمسة (٤) وقد قضى حياته في التآمر على الأمة ، والسعي وراء مصالحه الخاصة .

اما السبب في دعوته لبيعة يزيـد ـ فيما يرويه المؤرخون ـ فهو ان معاوية اراد عزله من الكوفة ليولي عليها سعيد بن العـاص (٥) فلما بلغه ذلك سافر الى دمشق ليقدم استقالته من منصبه حتى لاتكون حزازة عليه في عزله ، واطال التفكير في امره فرأى ان خير وسيلة لاقراره في منصبه

(١) ديوان الاخطل (ص ٨٩)
(٢) من موبقات المغيرة انـه اول من رشي في الاسلام كما يروي البهيقي كما انه كان الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية .
(٣) تأريخ الشعوب الاسلامية ١ / ١٤٥ .
(٤) الطبري
(٥) الامامة والسياسة ٢ / ٢٦٢ .

أن يجتمع بيزيد فيحبذ له الخلافة حتى يتوسط في شأنه الى أبيـه والتقى الماكر بيزيد فابدى له الاكبار ، واظهر له الحب ، وقال له :

قد ذهب اعيان محمد (ص) وكبراء قريش وذوو اسنانهم ، وانما بقي ابناؤهم ، وانت من افضلهم واحسنهم رأيا ، واعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا ادري ما يمنع امير المؤمنين ان يعقد لك البيعة ؟ . . » .

وغزت هـذه الكلمات قلب يزيد فشكره واثنى على عواطفه ، وقال له :

- أترى ذلك يتم ؟

- نعم

وانطلق يزيد مسرعا الى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة ، فسر معاوية بذلك وارسل خلفه ، فلما مثل عنده أخذ يحفزه على المبادرة في أخـذ البيعة ليزيد قائلا :

« ياامير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حدث كان كهفا للناس ، وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة .

واصابت هذه الكلمات الوتر الحساس في قلب معاوية فراح يخادعه مستشيراً في الأمر قائلا :

- من لي بهذا ؟

- اكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

واستحسن معاوية رأيه فشكره عليه واقره على منصبه وأمره بالمبادرة الى الكوفة لتحقيق غايته ، ولما خرج من عند معاوية قال لحاشيته :

« لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد (ص)

وفتقت عليه فتقا لايرتق ثم تمثل بقول الشاعر :

بمثلي شاهد النجوى وغالى بي الاعداء والخصم الغضابا

ففي سبيل المغنم فتق المغيرة على أمة محمد (ص) فتقا لايرتق ، واخلدلها السكوارث والخطوب .

وسار المغيرة الى الكوفة ، وهو يحمل الشر والدمار لأهلها ولعموم المسلمين ، وفور وصوله عقد اجتماعا ضم عملاء الأمويين فعرض عليهم بيعة يزيد فاجابوه الى ذلك ، وأوفد جماعة منهم الى دمشق وجعل عليهم ولده أبا موسى ، فلما انتهوا الى معاوية حفزوه على عقد البيعة ليزيد ، فشكرهم على ذلك وأوصاهم بالكتمان ، والتفت الى ابن المغيرة فقال له :

ـ بكم اشترى ابوك من هؤلاء دينهم ؟

ـ بثلاثين الف درهم .

فضحك معاوية وقال ساخراً :

لقد هان عليهم دينهم .

ثم اوصلهم بثلاثين الف درهم (١) لقد استجاب لهذه البيعة ورضي بها كل من يحمل ضميراً قلقاً عرضه للبيع والشراء .

تبرير معاوية :

ودافع جماعة من المؤلفين والكتاب عن معاوية وبرروا بيعته ليزيد التي كانت من افجع النكبات التي مُني بها العالم الاسلامي ، وفيما يلي بعضهم :

ـ احمد دحلان

ومن اصلب المدافعين عن معاوية احمد دحلان قال : « فلما نظر

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٤٩ .

معاوية إلى قوة شوكتهم - يعني الأمويين - واستحكام عصبيتهم حتى انهم لو خرجت الخلافة عنهم بعده يحدثون فتنة ويقع افتراق للأمة فأراد اجتماع الكلمة بجعل الأمر فيهم ، ثم انه نظر فيمن كان منهم اقوى شوكة فرآه ابنه يزيد لأنه كان كبيراً ، وباشر امارة الجيوش في حياة أبيه وصارت له هيبة عند الأمراء ، وله تمكن ، ونفاذ كلمة فلو جعل الأمر لغيره منهم كان ذلك سبباً لمنازعته لا سيما وله تمكن واقتدار على الاستيلاء على مافي بيت المال من الأموال فيقـــع الافتراق والاختلاف لو جعل الأمر لغيره ، فرأى أن جعل الأمر له بهذا الاجتهاد يكون سبباً للألفة ، وعدم الافتراق وهذا هوالسبب في جعله ولي عهده ، ولم يعلم مايبديه الله بعد ذلك .. » (١) .

حفنة من التراب على أمثال هؤلاء الذين دفعتهم العصبية الآئمة إلى تبرير المنكر وتوجيه الباطل ، فهل ان أمر الخلافة التي هي ظل الله في الأرض يعود الى الأمويين حتى يرعى معاوية عواطفهم ورغباتهم وهم الذين ناهضوا نبي الاسلام ، وناجزوه الحرب ، وعذبوا كل من دخـــل في دين الاسلام فكيف يكون أمر الخلافة بأيديهم ولو كان هناك منطق ووعي ديني لكانوا في ذيل القافلة ولا يحسب لهم أي حساب .

٢ ـ الدكتور عبد المنعم

ومن المبررين لمعاوية في بيعته ليزيد الدكتور عبد المنعم ماجد قال :
« ويبدو أن معاوية قصد من وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأمة الاسلامية ، ووقوع الفتنة مثلما حدث بعد عثمان ، ولعله أيضاً أراد أن يوجد حلا للمسألة التي تركها النبي (ص) دون حل وهي ايجاد سلطة دائمة للاسلام ومن المحقق أن معاوية لم يكن له مندوحة من أن يفعل

(١) تاريخ دول الاسلامية (ص ٢٨) .

ذلك خوفاً من غضب بني أمية الذين لم يكونوا يرضون بتسليم الأمر إلى سواهم . » (١) وهذا الرأي لا يحمل أي طابع من التوازن فان معاوية في بيعته ليزيد لم يجمع كلمة المسلمين وانما فرقها واخلد لهم الشر والخطوب فقد عانت الأمة — في عهد يزيد — من ضروب البلاء والمحن مالا يوصف لفضاعته ومرارته ، فقد جهد حفيد أبي سفيان على تدمير الاسلام ، وسحق جميع مقدساته وقيمه ، فاباد العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم حسب النصوص النبوية المتواترة وأنزل بأهل المدينة في واقعة الحرة من الجرائم ما تندى له جبين الانسانية ، فهل جمع بذلك معاوية كلمة المسلمين ووحد صفوفهم ومما يدعو إلى السخرية ما ذهب اليـــه من أن النبي (ص) ترك مسألة الخلافة بغير حل فجاء معاوية فحل هذه العقدة ، ببيعته ليزيد ! !

إن النبي (ص) لم يترك أي شأن من شؤون أمتـــه بغير حل وانما وضع لها الحلول الحاسمة ، وكان أهم ما عنى به شأن الخلافة فقـــد عهد بها إلى أفضل أمته وباب مدينة علمه الامام أمير المؤمنين (ع) وقد بايعه كبار الصحابة وعموم من كان معه في يوم الغدير ، ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحـــد فزووا الخلافة عن أهل بيت نبيهم فأدى ذلك إلى أن يلي أمر المسلمين يزيد وأمثاله من المنحـــرفين الذين أثبتوا في تصرفاتهم أنهم لا علاقة لهم بالاسلام ، ولا عهد لهم بالدين .

٣ — حسين محمد يوسف

ومن المدافعين — بحرارة — عن معاوية في ولايته ليزيد حسين محمد يوسف وقد أطال الكلام — بغير حجة — في ذلك ، قال في آخر حديثه : وخلاصة القول في موقف معاوية أنه كان مجتهداً في رأيه ، وانه حين دعا

(١) التأريخ السياسي للدولة العربية ٢ / ٦٢ .

الأمة الى بيعة يزيد ، كان حسن الظن به « لأنه لم يثبت عنده أي نقص فيه ، بل كان يزيد يدس على أبيـــه من يحسن له حاله ، حتى اعتقد أنه أولى من أبناء بقية الصحابة كلهم ، فان كان معاوية قد أصاب في اختياره فله أجران ، وان كان قد أخطأ فله أجر واحد ، وليس لأحد بعد ذلك أن يخوض فيما وراء ذلك فانما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى » (١) .

ان من المؤسف – حقاً – أن ينبري هؤلاء ، لتبرير معاوية في اقترافه لهذه الجريمة النكراء التي اغرقت العالم الاسلامي بالفتن والخطوب . . ومتى اجتهد معاوية في فرض ابنه خليفة على المسلمين ؟ فقد سلك في سبيل ذلك جميع المنعطفات والطرق الملتوية ، فأرغم عليها المسلمين ، وفرضها عليهم تحت غطاء مكثف من قوة الحديد . . . . ان معاوية لم يجتهد في ذلك ، وانما استجاب لعواطفــه المترعة بالحنان والولاء لولده من دون أن يرعى أي مصلحة للأمة في ذلك .

هؤلاء بعض المؤيدين لمعاوية في عقده البيعة ليزيد ، وهم مدفوعون بدافع غريب على الاسلام ، وبعيد كل البعد عن منطق الحق .

كلمة الحسن البصري :

وشجب الحسن البصري بيعة يزيد ، وجعلها من جملة موبقات معاوية قال : « أربع خصال : كن في معاوية لو لم يكن فيـــه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : ابتزاؤه على هذه الأمـــة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقـــد

(١) سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي (ص ٢٠٨) .

قال رسول (ص) : الولد للفراش وللعاهرالحجر ، وقتله حجراً وأصحابه ويل له من حجر وأصحابه . . . » (١) ٥

كلمة ابن رشد :

ويرى الفيلسوف الكبير ابن رشد أن بيعــة معاوية ليزيد قد غيرت مجرى الحياة الاسلامية وهدمت الحــكم الصالح في الاسلام ، قال : « ان أحوال العرب في عهد الخلفــاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح فكأنما وصف افلاطون حكومتهم في (جمهوريته) الحكومــة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات ، ولكن معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، وأقام مكانه دولة بني أميــة وسلطانها الشديد ففتح بذلك باباً للفتن التي لا تزال الى الآن قائمــة حتى في بلادنا هذه - يعني الاندلس - » (٢) .

لقد نقم على معاوية في بيعة يزيد جميع اعلام الفكر وقادة الرأي في الأمة الاسلامية منذ عهد معاوية حتى يوم الناس هــذا ، ووصفوها بأنها اعتداء صارخ على الأمة وخروج على ارادتها .

دوافع معاوية :

أما الدوافع التي دعت معاية لفرض ابنه السكير خليفة على المسلمين فكان من ابرزها الحب العارم لولده ، فقــد هام بحبه ، وقد أدلى بذلك

(١) الطبري ٦ / ٢٥٧ وغيره .

(٢) ابن رشد وفلسفته (ص ٦٠) لفرج انطون .

في حديثه مع سعيد بن عثمان حينما طلب منه أن يرشحه للخلافة ، ويدع ابنه يزيد ، فسخر منه معاوية وقال له :

« والله » لو ملئت لي الغوطـة رجالا مثلك لكان يزيد أحب إلي منكم كلكم . . . » (١) .

لقد أعماه حبه لولده ، واضله عن الحق ، وقد قال :

« لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي . . . » (٢) .

وكان يؤمن بأن استخلافه ليزيد من أعظم ما اقترفه من الذنوب ، وقد صارح ولده بذلك فقال له :

« ما ألقى الله بشيء أعظم في نفسي من استخلافي اياك » (٣) .

لقد اقترف معاوية وزراً عظيماً فيا جناه على الأمة بتحويل الخلافة إلى ملك عضوض لا يعنى فيه بارادة الأمة واختيارها .

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة :

أما الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها معاوية في فرض خليعـه على المسلمين فهي :

١ ـ استخدام الشعراء

أما الشعراء فكانوا في ذلك العصر ـ من أقوى أجهزة الأعلام

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٠

(٢) المناقب والمثالب (ص ٦٨) للقاضي نعمان المصري .

(٣) تأريخ الخلفـاء لمؤلف مجهول قامت بنشره أكاديمية العـلوم للاتحاد السوفيتي .

وقد أجزل لهم معاوية العطاء ، وأغدق عليهم الأموال فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على يزيد فأضافوا إليه الصفات الرفيعة ، وخلعوا عليه النعوت الحسنة ، وفيما يلي بعضهم :

العجاج :

ومدحه العجاج مدحاً عاطراً فقال فيه :

اذا زلزل الأقوام لم تزلزل   عن دين موسى والرسول المرسل
وكنت سيف الله لم يفلل   يفرع (١) أحياناً وحيناً يختلي (٢)

ومعنى هذا الشعر أن يزيد يقتفي أثر الرسول موسى والنبي محمد (ص) وانه سيف الله البتار الا انه كان مشهوراً على أولياء الله وأحبائه .

الأحوص :

ومدحه الشاعر الأحوص بقصيدة جاء فيها :

ملك تدين له الملوك مبارك   كادت لهيبته الجبال تزول
يجبى له بلخ ودجلة كلها   وله الفرات وما سقى والنيل

لقد جاءته تلك الهيبة التي تخضع لها الجباه ، وتزول منها الجبال من ادمانه على الخمر ومزاملته للقرود ، ولعبه بالكلاب واقترافه للجرائم والموبقات .

مسكين الدارمي :

ومن الشعراء المرتزقة مسكين الدارمي ، وقد أوعز إليه معاوية أن يحثه على بيعة يزيد أمام من كان عنده من بني أمية وأشراف أهل الشام ،

---

(١) يفرع : يعلو رؤوس الناس .
(٢) شعراء النصرانية بعد الاسلام (ص ٢٣٤) .

فدخل مسكين على معاوية فلما رأى مجلسه حاشداً بالناس رفع عقيرته :

ان ادع مسكيناً فاني ابن معشر من النـــاس أحمي عنهم وأذود
الا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان ام مـــاذا يقول سعيد
بني خلفـــاء الله مهلا فانمـــا يبوئهـــا الرحمن حيث يريـــد
اذا المنبر الغربي خلاه ربـه فان أمـــير المؤمنـــين يزيـــد
على الطائر الميمون والجد ساعد لكل أناس طـــائر وجـــدود
فلا زلت اعلى الناس كعبا ولم تزل وفود تسامها اليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا تشيد أطناب له وعمود (١)

هؤلاء بعض الشعراء الذين مدحوا يزيد ، وافتعلوا له المآثر لتغطية ما ذاع عنه من الدعارة والمجون .

بذل الأموال للوجوه :

وأنفق معاوية الأموال الطائلة بسخاء للوجوه والأشراف ليقروه على فرض ولده السكير خليفـــة على المسلمين ، ويقول المؤرخون : إنه أعطى عبد الله بن عمر مائة الف درهم فقبلها منه (٢) وكان ابن عمر من أصلب المدافعين عن بيعة يزيد وقد نقم على الامام الحسين (ع) خروجه عليه ، وسنذكر ذلك بمزيد من التفصيل في البحوث الآتية .

---

(١) الاغاني ٨ / ٧١ .
(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠ .

مراسلة الولاة :

وراسل معاوية جميع عماله وولاته في الأقاليم الاسلامية بعزمه على عقد البيعة ليزيد ، وأمرهم بتنفيذ ما يلي :

١ ـ اذاعة ذلك بين الجماهير الشعبية ، واعلامها بما صممت عليه حكومة دمشق من عقد الخلافة ليزيد .

٢ ـ الايعاز للخطباء وسائر أجهزة الاعلام بالثناء على يزيد ، وافتعال المآثر له ؛

٣ ـ ارسال الوفود إليه منْ الشخصيات الاسلامية حتى يتعرف على رأيها في البيعة ليزيد (١) وقام الولاة بتنفيذ ما عهد إليهم ، فأذاعوا ما صمم عليه معاوية من عقد البيعة ليزيد ، كما أوعزوا للخطباء وغيرهم بالثناء على يزيد .

وفود الاقطار الاسلامية :

واتصلت الحكومات المحلية في الأقطار الاسلامية بقادة الفكر فعرضت عليهم ما عزم عليه معاوية من توليــة ولده للخلافة ، وطلبوا منهم السفر فوراً إلى دمشق لعرض آرائهم على معاوية ، وسافرت الوفود إلى دمشق وكان في طليعتهم .

١ ـ الوفد العراقي بقيادة زعيم العراق الأحنف بن قيس .

٢ ـ الوفد المدني بقيادة محمد بن عمرو بن حزم (٢) .

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر .

والتهت الوفود إلى دمشق لعرض آرائها على عاهل الشام ، وقد قام معاوية بضيافتهم والاحسان إليهم .

مؤتمر الوفود الاسلامية :

وعقدت وفود الأقطار الاسلامية مؤتمراً في البلاط الأموي في دمشق لعرض آرائها في البيعة ليزيد ، وقد افتتح المؤتمر معاوية بالثناء على الاسلام ، ولزوم طاعة ولاة الأمور ، ثم ذكر يزيد وفضله ، وعلمه بالسياسة ودعاهم لبيعته .

المؤيدون للبيعة :

وانبرت كوكبة من أقطاب الحزب الأموي فأيدوا معاوية وحثوه على الاسراع للبيعة وهم :

١ — الضحاك بن قيس
٢ — عبد الرحمن بن عثمان
٣ — ثور بن معن السلمي
٤ — عبد الله بن عصام
٥ — عبد الله بن مسعدة

وكان معاوية قد عهد إليهم بالقيام بتأييده ، والرد على المعارضين له

خطاب الأحنف بن قيس :

وانبرى إلى الخطابة زعيم العـــراق وسيد تميم الأحنف بن قيس الذي تقول فيه ميسون أم يزيد : « لو لم يكن في العراق إلا هذا لكفاهم » (١) وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ثم التفت إلى معاوية قائلا :

« أصلح الله أمير المؤمنين » ان الناس في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنف ، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره .

يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعصي أمر من يأمرك ، ولا يغررك من يشير عليك ، ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، واعـــلم باستقامة الطاعة مع ان أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً . . » .

وأثار خطاب الأحنف موجـــة من الغضب والاستياء عنـــد الحزب الأموي فاندفع الضحاك بن قيس منددأ به ، وشتم أهـــل العراق ، وقدح بالامام الحسن ، ودعا الوفد العراقي الى الاخلاص لمعاوية والامتثال لما دعا إليه ، ولم يعن به الأحنف فقام ثانياً فنصح معاوية ودعاه إلى الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه من تسليم الأمر إلى الحسن من بعده حسب اتفاقية الصلح التي كان من أبرز بنودها ارجاع الخلافة من بعده الى الامام الحسن كما انه هدد معاوية باعلان الحرب اذا لم يف بذلك .

---

(١) تذكرة ابن حمدون (ص ٨١) .

فشل المؤتمر :

وفشل المؤتمر فشلا ذريعاً بعد خطاب الزعيم الكبير الأحنف بن قيس ، ووقع نزاع حاد بين أعضاء الوفود وأعضاء الحزب الأموي ، وانبرى يزيد بن المقفع فهدد المعارضين باستعمال القوة قائلا :

« أمير المؤمنين هذا — وأشار الى معاوية — فان هلك فهذا — وأشار الى يزيد — ومن أبى فهذا — وأشار الى السيف — » .

فاستحسن معاوية قوله وراح يقول له :

« أجلس فأنت سيد الخطباء واكرمهم » .

ولم يعن به الأحنف بن قيس فانبرى الى معاوية فدعاه إلى الامساك عن بيعة يزيد ، وان لا يقدم أحداً على الحسن والحسين ، واعرض عنه معاوية ، وبقي مصراً على فكرته التي هي أبعد ما تكون عن الاسلام ؛

وعلى أي حال فان المؤتمر لم يصل الى النتيجة التي أرادها معاوية فقد استبان له أن بعض الوفود الاسلامية لا تقره على هذه البيعة ولا ترضى بها .

سفر معاوية ليثرب :

وقرر معاوية السفر إلى يثرب التي هي محط أنظار المسلمين ، وفيها أبناء الصحابة الذين يمثلون الجبهة المعارضة للبيعة ، فقد كانوا لا يرون يزيداً نداً لهم ، ولان أخذ البيعة له خروج على ارادة الأمة ، وانحراف عن الشريعة الاسلامية التي لا تبيح ليزيد أن يتولى شؤون المسلمين لما عرف به من الاستهتار وتفسخ الأخلاق .

وسافر معاوية إلى يثرب في زيارة رسمية ، وتحمل أعبـاء السفر لتحويل الخلافة الاسلامية إلى ملك عضوض لا ظل فيه للحق والعـدل .

اجتماع مغلق :

وفور وصول معـاوية إلى يثرب أمر باحضار عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعقد معهم اجتماعاً مغلقاً ، ولم يحضر معهم الحسن والحسين لأنه قد عاهد الحسن أن تكون الخلافة له من بعده فكيف يجتمع به ، وماذا يقول له ؟ وقد أمر حاجبه أن لا يسمح لأي أحد بالدخول عليه حتى ينتهي حديثه معهم .

كلمة معاوية :

وابتدأ معاوية الحديث بحمد الله والثناء عليـه ، وصلى على نبيـه ثم قال :

« أما بعد : فقد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن ادعى فاجيب ؟ وقد رأيت أن استخلف بعدي يزيد ، ورأيته لكم رضا وأنتم عبادلة قريش ، وخيارهم ، وابناء خيارهم ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً الا انهما أولاد أبيهما علي ، على حسن رأي فيهما وشدة محبتي لهما فردوا على أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله . . . » .

ولم يستعمل معهـم الشدة والارهاب استجلاباً لعواطفهم ولم يخف عليهم ذلك ، فانبروا جميعاً الى الانكار عليه ،

كلمة عبد الله بن عباس :

وأول من كلمه عبد الله بن عباس فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد : فانك قـد تكلمت فانصتنا وقلت : فسمعنا ، وان الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمداً (ص) لرسالته ، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه فاشرف الناس من تشرف به ، واولاهم بالأمر أخصهم به ، وانما على الأمـة التسليم لنبيها اذا اختاره الله لها ، فانه انما اختار محمداً بعلمه ، وهو العليم الخبير ، واستغفر الله لي ولكم . »

وكانت دعوة ابن عباس صريحة في ارجاع الخلافة لأهل البيت (ع) الذين هم الصق الناس برسول الله (ص) وأمسهم به رحمـاً ، فان الخلافة انما هي امتداد لمركز رسول الله (ص) فأهل بيته أحق بمقامه وأولى بمكانته .

كلمة عبد الله جعفر :

وانبرى عبد الله بن جعفر فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد : فان هذه الخلافة إن أخـذ فيها بالقرآن فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله (ص) فاولو رسول الله (ص) وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأي الناس أفضل وأكمل واحق بهذا الأمر من آل الرسول (ص) ؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ، ولأطيع الرحمن ، وعصي الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فانك قد صرت راعياً ونحن رعية فانظر لرعيتك فانك مسؤول عنها غـداً ،

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تحضرهما ، فو الله ما أصبت الحق ، ولا يجوز ذلك الا بهما ، وانك لتعلم انهما معدن العلم والكرم فقل أودع ، واستغفر الله لي ولكم . . » .

وحفل هذا الخطاب بالدعوة الى الحق والاخلاص للأمة فقد رشح أهل البيت (ع) للخلافة وقيادة الأمة ، وحذره من صرفها عنهم كما فعل غيره من الخلفاء فكان من جراء ذلك ان منيت الامة بالأزمات والنكسات وعانت أعنف المشاكل واقسى الحوادث .

كلمة عبد الله بن الزبير :

وانطلق عبد الله بن الزبير للخطابة فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فان هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وافعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية وانصف نفسك فان هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله (ص) وهذا عبد الله ابن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله (ص) وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله (ص) وعلي خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما ؟ فاتق الله يا معاوية ، وانت الحاكم بيننا وبين نفسك . . » .

وقد رشح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة ، وقد حفزهم بذلك لمعارضة معاوية وافساد مهمته .

كلمة عبد الله بن عمر :

واندفع عبد الله بن عمر فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه :

« أما بعد : فان هذه الخلافة ليست بهرقلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائم بها بعد أبي فو الله ما ادخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، الا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً وانما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ممن كان اتقى وارضى ، فان كنت تريد الفتيان من قريش فلعمري أن يزيد من فتيانها ، واعلم انه لا يغني عنك من الله شيئاً . . . » .

ولم تعبر كلمات العبادلة عن شعورهم الفردي ، وانما عبرت تعبيراً صادقاً عن رأي الأغلبية الساحقة من المسلمين الذين كرهوا خلافة يزيد ، ولم يرضوا بها .

كلمة معاوية :

وثقل على معاوية كلامهم ، ولم يجد ثغرة ينفذ منها للحصول على رضاهم ، فراح يشيد بابنه فقال :

« قد قلت : وقلتم : وانه قد ذهبت الآباء ، وبقيت الأبناء فابني أحب إلي من ابنائهم ، مع ان ابني إن قاولتموه وجد مقالا .. وانما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنهم اهل رسول الله فلما مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد

اخرجك الله يا بن الزبير ، وانت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي ان شاء الله . . » (١) .

وانتهى اجتماع معاوية بالعبادلة ، وقد اخفق فيه اخفاقاً ذريعاً ، فقد استبان له ان القوم مصممون على رفض بيعــة يزيد . . . وعلى اثر ذلك غادر يثرب ، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا اجتماعه بسبطي رسول الله (ص) فقد اهملت ذلك واكبر الظن انه لم يجتمع بهما .

فزع المسلمين :

وذعر المسلمون حينما وافتهم الأنباء بتصميم معاوية على فرض ابنــه خليفة عليهم ، وكان من اشد المسلمين خوفاً المدنيون والكوفيون ، فقــد عرفوا واقع يزيد ، ووقفوا على اتجاهاته المعادية للاسلام ، يقول توماس آرنولد : « كان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألفوا البيعة والشورى ، والنظم الأولى في الاسلام وهم بعد قريبون منها ولهذا احسوا — وخاصة في مكة والمدينة حيث كانوا يتمسكون بالأحاديث والسنن النبوية الأولى — ان الأمويين نقلوا الخــلافة الى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية مطبوع بالعظمة وحب الذات بدلا من أن يحتفظوا بتقوى النبي وبساطته » (٢) .

لقــد كان اقدام معاوية على فرض ابنــه يزيد حاكماً على المسلمين تحولا خطيراً في حياة المسلمين الذين لم يألفوا مثل هذا النظام الثقيل الذي فرض عليهم بقوة السلاح .

(١) الامامة والسياسة ١ / ١٨٠ — ١٨٣ ، جمهرة الخطب ٢ / ٢٣٣ — ٢٣٦ .

(٢) الخلافة (ص ١٠) لتوماس .

الجبهة المعارضة :

واعلن الأحرار والمصلحون في العـالم الاسلامي رفضهم القاطع لبيعة يزيد ، ولم يرضوا به حاكماً على المسلمين ، وفيما يلي بعضهم .

١ ـ الامام الحسين

وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الامام الحسين فقد كان يحتقر يزيد ، ويكره طباعه الذميمة ، ووصفه بأنه صاحب شراب وقنص ، وانه قد لزم طاعة الشيطان ، وترك طاعة الرحمن ، واظهر الفساد وعطـل الحـدود واستأثر بالفيء ، وأحل حرام الله وحرم حلاله (١) واذا كان بهذه الضعة فكيف يبايعه ويقره حاكماً على المسلمين ، ولما دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الامام : « أيها الأمير إنا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة بنا فتح الله ، وبنا يختم ، ويزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، وقاتل النفس المحترمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله » .

ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأسرة النبوية تبعا لزعيمهم العظيم ، ولم يشذوا عنه .

الحرمان الاقتصادي

وقابل معاوية الأسرة النبوية بحرمان اقتصادي عقوبة لهم لامتناعهم عن بيعة يزيد ، فقد حبس عنهم العطاء سنة كاملة (٢) ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم في شجب البيعة ورفضها .

---

(١) تأريخ ابن الاثير .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٢ ، الامامة والسياسة ١ / ٢٠٠ .

٢ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر

ومن الذين نقموا على بيعـة يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقد وسمها بأنها هرقلية كلما مات هرقل قام مكانه هرقل آخر (١) وأرسل إليه معاوية مائة الف درهم ليشتري بها ضميره فأبى وقال : لا أبيع ديني (٢) .

٣ ـ عبد الله بن الزبير

ورفض عبد الله بن الزبير بيعـة يزيد ، ووصفه بقوله : « يزيد الفجور ، ويزيد القرود ، ويزيد الكـلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات » (٣) ولما أجبرته السلطة المحليـة في يثرب على البيعة فرّ منها ، إلى مكة .

٤ ـ المنذر بن الزبير

وكره المنذر بن الزبير بيعة يزيد ، وشجبها ، وأدلى بحديث له عن فجور يزيد امام أهل المدينة فقال : « انه قـد أجازني بمائة الف ، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره والله إنه ليشرب الخمر ، والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة » (٤) .

٥ ـ عبد الرحمن بن سعيد

وامتنع عبد الرحمن بن سعيد من البيعة ليزيد ، وقال في هجائه :

---

(١) الاستيعاب .

(٢) الاستيعاب البداية والنهاية ٨ / ٨٩ .

(٣) انساب الاشراف ٤ / ٣٠ .

(٤) الطبري ٤ / ٣٦٨ .

لست منـــا وليس خالك منـــا يا مضيع الصلاة للشهوات (١)

٦ - عابس بن سعيد

ورفض عابس بن سعيد بيعـــة يزيد ، حينما دعاه إليها عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال له : « أنا أعرف به منك ، وقد بعت دينك بدنياك » (٢) .

٧ - عبد الله بن حنظلة

وكان عبد الله بن حنظلة من أشد الناقمين على البيعة ليزيد ، وكان من الخارجين عليه في وقعة الحرة ، وقـــد خاطب أهل المدينة فقال لهم : « فو الله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء .. إن رجلا ينكح الأمهات والبنات ، ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءاً حسناً . . » (٣) وكان يرتجز في تلك الواقعة :

بعداً لمن رام الفساد وطغى وجانب الحق وآيات الهدى

لا يبعد الرحمن الا من عصى (٤)

---

(١) الحسين بن علي ٢ / ٦ .

(٢) القضاة للكندي (ص ٣١٠) .

(٣) طبقات ابن سعد .

(٤) تأريخ الطبري ٧ / ١٢ .

موقف الاسرة الأموية :

ونقمت الأسرة الأموية على معاوية في عقده البيعة ليزيد ، ولكن لم تكن نقمتهم عليه مشفوعة بدافع ديني أو اجتماعي ، وانما كانت من أجل مصالحهم الشخصية الخاصة ، لأن معاوية قلد ابنه الخلافة وحرمهم منها ، وفيما يلي بعض الناقمين :

١ — سعيد بن عثمان

وحينما عقد معاوية البيعة ليزيد أقبل سعيد بن عثمان إلى معاوية وقد رفع عقيرته قائلا :

« علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك فو الله لأبي خير من أبيه ، وأمي خير من أمه ، وأنا خير منه ، وقد وليناك فما عزلناك ، وبنا نلت ما نلت . . . » .

فراوغ معاوية ، وقال له :

« أما قولك : إن أباك خير من أبيه فقد صدقت ، لعمر الله إن عثمان لخير مني ، وأما قولك : ان أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وان يرضاها بعلها ، وينجب ولدها ، وأما قولك : انك خير من يزيد ، فو الله ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة ذهباً مثلك وأما قولك : انكم وليتمونى فما عزلتموني فما وليتموني انما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب فأقررتموني ، وما كنت بئس الوالي لكم ، لقد قمت بثاركم ، وقتلت قتلة أبيكم ، وجعلت الأمر فيكم وأغنيت فقيركم ، ورفعت الوضيع منكم . . . » .

وكلمه يزيد فارضاه ، وجعله والياً على خراسان (١) .

٢ – مروان بن الحكم

وشجب مروان بن الحكم البيعة ليزيد ، وتقديمه عليه فقد كان شيخ الأمويين وزعيمهم ، فقال له :

« اقم يا ابن أبي سفيان : واهدأ من تأميرك الصبيان ، واعلم ان لك في قومك نظراء وان لهم على مناوئتك وزراً » .

فخادعه معاوية وقال له :

« أنت نظير امير المؤمنين بعده ، وفي كل شدة عضده ، فقد وليتك قومك ، وأعظمنا في الخراج سهمك ، وإنا مجيرو وفدك ومحسنو رفدك » (٢) .

وقال مروان : لمعاوية « جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم (٣) .

٣ – زياد بن أبيه

وكره زياد بن أبيه بيعـــة معاوية لولده ، وذلك لما عُرِف به من الاستهتار والخلاعة والمجون ويقول المؤرخون : ان معاوية كتب إليه يدعوه إلى أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ، وانه ليس أولى من المغيرة بن شعبة ، فلما قرأ كتابه دعا برجل من أصحابه كان يأتمنه حيث لا يأتمن أحداً غيره فقال له : اني أريد أن ائتمنك على مالم أئتمن عليه بطون الصحائف إئت معاوية وقل له : يا إمير المؤمنين ان كتابك ورد علي بكذا ، فماذا يقول

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٣٨٩ – ٣٩٠ .

(٢) الامامة والسياسة ١ / ١٢٨ .

(٣) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ٣٩٥ .

الناس انا دعوناهم إلى بيعة يزيد ، وهو يلعب بالكلاب والقرود ، ويلبس المصبغ ، ويدمن الشراب ، ويمسي على الدفوف ، ويحضرهم - أي الناس - الحسين بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، ولكن تأمره أن يتخلق باخلاق هؤلاء حولا أوحولين ، فعسانا أن نموه على الناس ، وسار الرسول الى معاوية فادى اليــه رسالة زياد فاستشاط غضباً ، وراح يتهدده ويقول :

« ويلي على ابن عبيد لقد بلغني أن الحادي جدا له أن الأمير بعدي زياد ، والله لأردنه الى أمه سمية والى أبيه عبيد . » (١) .

هؤلاء بعض الناقدين لمعاوية من الأسرة الأموية وغيرهم في توليتــه لخليعه يزيد خليفة على المسلمين .

ايقاع الخلاف بين الأمويين :

واتبع معــاوية سياسة التفريق بين الأمويين حتى يصفو الأمر لولده يزيد ، فقــد عزل عامله على يثرب سعيد بن العاص ، واستعمل مكانه مروان بن الحــكم ، ثم عزل مروان واستعمل سعيداً مكانه ، وأمرة بهدم داره ، ومصادرة أمواله ، فأبى سعيد من تنفيذ ما أمره به معاوية فعزله ، وولى مكانه مروان ، وأمره بمصادرة أموال سعيد وهــدم داره فلما همّ مروان بتنفيذ ماعهد إليه أقبل إليه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية في شأنه فامتنع مروان من القيام بما أمره معاوية ، وكتب سعيد الى معاوية رسالة يندد فيها بعمله وقد جاء فيها :

« العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا له أن يضغن بعضنا

(١) تأريخ اليعقوبي ٢ / ١٩٦ .

على بعض . . فامير المؤمنين في حمله وصبره على ما يكره من الاخبثين ، وعفوه وادخاله القطيعة بنا ، والشحناء وتوارث الأولاد ذلك » (١) .

وعلق عمر ابو النصر على سياسة التفريق التي تبعها معاوية مع اسرته بقوله :

« إن سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية في ايقاع الخلاف بين اقاربه الذين يخشى نفوذهم على يزيد من بعده فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة إلى عطفه وعنايته . » (٢) .

تجميد البيعة :

وجمد معاوية رسمياً البيعة ليزيد الى اجل آخر حتى يتم له ازالة الحواجز والسدود التي تعترض طريقه ، ويقول المؤرخون : انه بعد ما التقى بعبادلة قريش في يثرب واطلع على آرائهم المعادية لما ذهب اليه اوقف كل نشاط سياسي في ذلك وارجىء العمل الى وقت آخر (٣) .

اغتيال الشخصيات الاسلامية :

ورأى معاوية انه لا يمكن بأي حال تحقيق ما يصبو اليه من تقليد ولده الخلافة مع وجود الشخصيات الرفيعة التي تتمتع باحترام بالغ في نفوس المسلمين فعزم على القيام باغتيالهم ليصفو له الجو فلا يبقى أمامه أي مزاحم

(١) الطبري ٤ / ١٨ .
(٢) السياسة عند العرب (ص ٩٨) لعمر ابو النصر .
(٣) الامامة والسياسة ١ / ١٨٢ .

وقد قام باغتيال الذوات التالية :

١ — سعد بن أبي وقاص

ولسعد المكانة العليا في نفوس الكثيرين من المسلمين فهو أحد اعضاء الشورى وفاتح العراق ، وقد ثقل مركزه على معاوية فدس إليه سماً فمات منه (١) .

٢ — عبد الرحمن بن خالد

واخلص اهل الشام لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأحبوه كثيراً وقد شاورهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته ، فقالوا له : رضينا بعبد الرحمن بن خالد ، فشق ذلك عليه وأسرها في نفسه ، ومرض عبد الرحمن ، فأمر معاوية طبيباً يهوديا كان مكينا عنده ان يأتيه للعلاج فيسقيه سقية تقتله ، فسقاه الطبيب فمات على اثر ذلك (٢) .

٣ — عبد الرحمن بن ابي بكر

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من اقوى العناصر المعادية لبيعة معاوية لولده ، وقد انكر عليه ذلك ، وبعث إليه معاوية بمائة الف درهم فردها عليه ، وقال : لا ابيع ديني بدنياي ولم يلبث أن مات فجأة بمكة (٣) وتعزو المصادر سبب وفاته الى أن معاوية دس اليه سماً فقتله .

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٢٩) .
(٢) الاستيعاب .
(٣) المصدر نفسه .

٤ - الامام الحسن

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة واثم في الاسلام ، فقد عمد إلى اغتيال سبط النبي (ص) وريحانته الامام الحسن (ع) الذي عاهده بأن يكون الخليفة من بعده . . . ولم يتحرج الطاغية من هذه الجريمة في سبيل انشاء دولة أموية تنتقل بالوراثة إلى أبنائه واعقابه ، وقد وصفه « الميجر اوزبورن » بانه مخادع وذا قلب خال من كل شفقة ، وانه كان لايتهيب من الاقدام على أية جريمة من أجل أن يضمن مركزه فالقتل احدى وسائله لازالة خصومه وهو الذي دبر تسميم حفيد الرسول (ص) كما تخلص من مالك الأشتر قائد علي بنفس الطريقة (١) .

وقد استعرض الطاغية السفاكين ليعهد إليهم القيام باغتيال ريحانة النبي (ص) فلم ير أحداً خليقا بارتكاب الجريمة سوى جعيدة بنت الأشعث فانها من بيت قد جبل على المكر وطبع على الغدر والخيانة ، فأرسل الى مروان بن الحكم سماً فاتكاً كان قد جلبه من ملك الروم ، وأمره بأن يغري جعيدة بالأموال ، وزواج ولده يزيد اذا استجابت له ، وفاوضها مروان سراً ، ففرحت ، فأخذت منه السم ، ودسته للامام وكان صائماً في وقت ملتهب من شدة الحر ، ولما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه ، والتفت الى الخبيثة فقال لها :

« قتلتيني قتلك الله ، والله لا تصيبن مني خلفا ، لقد غرك - يعني معاوية - وسخر منك يخزيك الله ، ويخزيه . » .

وأخذ حفيد الرسول (ص) يعاني الآلام الموجعة من شدة السم ،

---

(١) روح الاسلام (ص ٢٩٥) .

وقد ذبلت نضارته واصفر لونه ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، وقد ذكرنا تفصيل وفاته مع ما رافقها من الأحداث في كتابنا (حياة الامام الحسن)

اعلان البيعة رسمياً :

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول (ص) وريحانته ، فقد قضى على من كان يحذر منه ، وقد استتبت له الأمور ، وخلت الساحة من أقوى المعارضين له ، وكتب الى جميع عماله أن يبادروا دونما أي تأخير الى اخذ البيعة ليزيد ، ويرغموا المسلمين على قبولها ، واسرع الولاة في اخذ البيعة من الناس ، ومن تخلف عنها نال اقصى العقوبات الصارمة .

مع المعارضين في يثرب :

وامتنعت يثرب من البيعة ليزيد ، واعلن زعماؤها وعلى رأسهم الامام الحسين (ع) رفضهم القاطع للبيعة ، ورفعت السلطة المحلية ذلك الى معاوية فرأى أن يسافر الى يثرب ليتولى بنفسه اقناع المعارضين ، فان أبوا اجبرهم على ذلك ، واتجه معاوية الى يثرب في موكب رسمي تحوطه قوة هائلة من الجيش ، ولما انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة فجفاهم وهددهم وفي اليوم الثاني ارسل الى الامام الحسين والى عبد الله بن عباس ، فلما مثلا عنده قابلهما بالتكريم والحفاوة ، وأخذ يسأل الحسين (ع) عن ابناء اخيه والامام يجيبه ثم خطب معاوية فأشاد بالنبي (ص) واثنى عليه ، وعرض الى بيعة يزيد ومنح ابنه الألقاب الفخمة والنعوت الكريمة ودعاهما الى بيعته .

خطاب الامام الحسين :

وانبرى أبي الضيم فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية فلن يؤدي المادح وان اطنب في صفة الرسول (ص) من جميع جزءاً ، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله (ص) من ايجاز الصفة ، والتنكب عن استبلاغ النعت ، وهيهات هيهات يا معاوية !! فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ولقد فضلت حتى افرطت ، واستأثرت حتى اجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب ، حتى اخذ الشيطان حظه الأوفر ، ونصيبه الأكمل .

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله ، وسياسته لأمة محمد (ص) تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائبـاً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش والحمـام السبق لأترابهن ، والقيان ذوات المعازف ، وضروب الملاهي تجده ناصراً .

ودع عنك ما تحاول : فما اغناك ان تلقى الله بوزر هـذا الخلق بأكثر مما انت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح باطلا في جور ، وحنقا في ظلم ، حتى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت الا غمضة فتقدم على عمـل محفوظ في يوم مشهود ، ولات حين مناص ، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آبائنا تراثا ، ولعمر الله اورثنا الرسول (ص) ولادة ، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول فاذعن للحجة بذلك ورده الايمان الى النصف فركبتم الاعاليل ، وفعلتم الأفاعيل وقلتم : كان

ويكون حتى اتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك فهناك فاعتبروا يا أولي الابصار .

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله (ص) وتأميره له ، وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعتـــه له ، وما صار لعمر الله يومئذ مبعثهم حتى انف القوم امرته ، وكرهوا تقديمه وعدوا عليه افعاله ، فقال (ص) : لا جرم يا معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري ، فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في اوكد الأحكام ، وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعا ، وحولك من لا يؤمن في صحبته ، ولا يعتمد في دينه وقرابته ، وتتخطاهم الى مسرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بهـــذا الباقي في دنياه وتشقى بها في آخرتك ، ان هـــذا لهو الخسران المبين ، واستغفر الله لي ولكم . . » .

وفند الامام في خطابه جميع شبهات معاوية وسد عليه جميع الطرق والنوافذ ، وحمله المسؤولية الكبرى فيما اقدم عليه من ارغام المسلمين على البيعة لولده ، كما عرض للخلافة وما منيت به من الانحراف عما أرادها الله من أن تكون في العترة الطاهرة الا ان القوم زووها عنهم ، وحرفوها عن معدنها الأصيل .

وذهل معاوية من خطاب الامام ، وضاقت عليـــه جميع السبل فقال لابن عباس :

« ما هذا يا بن عباس ؟ » .

« لعمر الله إنها لذرية الرسول (ص) وأحـــد اصحاب الكساء ، ومن البيت المطهر قاله : عما تريد ، فان لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله

بامره وهو خير الحاكمين . . . » (١) .

ونهض ابي الضيم وترك معاوية يتميز من الغيظ ، وقد استبان له أنه لا يتمكن أن يخدع الامام الحسين ويأخذ البيعة منه .

ارغام المعارضين :

وغادر معاوية يثرب متجهاً الى مكة وهو يطيل التفكير في أمر المعارضين فرأى أن يعتمد على وسائل العنف والارهاب ، وحينما وصل الى مكة احضر الامام الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعرض عليهم مرة أخرى البيعة إلى يزيد فاعلنوا رفضهم لها ، فانبرى إليهم مغضباً وقال :

« اني أتقدم إليكم انه قد اعذر من انذر اني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فاحمل ذلك واصفح ، واني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يسبقني رجل الا على نفسه . . . » .

ودعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء ، رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ، ثم خرج وخرجوا معه فرقى المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ،

---

(١) الامامة والسياسة ١ / ١٩٥ – ١٩٦ .

ولا يقضى الا عن مشورتهم ، وانهم رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . . . » .

فبايعه الناس ، ثم ركب رواحله ، وغادر مكـة (١) وقد حسب معاوية ان الأمر قد تم لولده ، واستقر الملك في بيته ، ولم يعلم أنه قد جر الدمار على دولته ، واعد المجتمع للثورة على حكومة ولده .

موقف الامام الحسين :

كان موقف الامام الحسين مع معاوية يتسم بالشدة والصرامة ، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر الى مقاومة معاوية ، ويحذرهم من سياسته الهدامة الحاملة لشارات الدمار الى الاسلام .

وفود الاقطار الاسلامية :

واخذت الوفود تترى على الامام من جميع الأقطار الاسلامية وهي تعج بالشكوى إليه وتستغيث به مما ألم بها من الظلم والجور ، وتطلب منه القيام بانقاذها من الاضطهاد ، ونقلت الاستخبارات في يثرب الى السلطة المحليـة تجمع الناس واختلافهم على الامام الحسين ، وكان الوالي مروان ففزع من ذلك وخاف إلى حد بعيد .

(١) الكامل ٣ / ٢٥٢ ، الامالي ٢ / ٧٣ ، ذيل الامالي (ص ٧٧) عيون الاخبار ٢ / ٢١٠ البيان والتبيين ١ / ٣٠٠ .

مذكرة مروان لمعاوية :

ورفع مروان مذكرة لمعاوية سجل فيها تخوفه من تحرك الامـــام ، واختلاف الناس عليه ، وهذا نصها :

« أما بعد فقد كثر اختلاف الناس الى حسين ، والله اني لأرى لكم منه يوماً عصيبا » (١) .

جواب معاوية :

وأمره معاوية بعدم القيام بأي حركة مضادة للامام فقد كتب إليه :

« اترك حسيناً ما تركك ، ولم يظهر لك عداوته ، ويبد صفحته ، واكمن عنه كون الثرى ان شاء الله والسلام . . » (٢) .

لقد خاف معاوية من تطور الأحداث ، فعهد الى مروان بعدم التعرض له بأي أذى أو مكروه .

رأي مروان في ابعاد الامام :

واقترح مروان على معاوية ابعاد الامـــام عن يثرب وفرض الاقامة الجبرية عليه في الشام ، ليقطعه عن الاتصال بأهل العـــراق ، ولم يرتض معاوية ذلك فرد عليـــه « اردت والله أن تستريح منه وتبتليني به ، فان صبرت عليه صبرت على ما أكره وان اسأت اليه قطعت رحمه . . » (٣) .

---

(١) و (٢) أنساب الاشراف ق ١ ج ١ .

(٣) العقد الفريد ٢ / ١١٦ .

رسالة معاوية للحسين :

واضطرب معاوية من تحرك الامام واختلاف الناس عليه فكتب إليه رسالة ، وقد رويت بصورتين .

١ — رواها البلاذري وهذا نصها : « أما بعد : فقد انهيت إلي عنك امور إن كانت حقاً فاني لم اظنها بك رغبة عنها ، وان كانت باطلة فأنت اسعد الناس بمجانبتها ، وبحظ نفسك تبدأ ، وبعهد الله توفي فلا تحملني على قطيعتك والاسائة إليك ، فانك متى تنكرني انكرك ، ومتى تكدني اكدك فاتق الله يا حسين في شق عصا الأمة ، وان تردهم في فتنة . » (١) .

٢ — رواها ابن كثير وهذا نصها : « ان من اعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء ، وقد انبئت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعوك الى الشقاق ، وأهل العراق من قد جربت ، قد افسدوا على أبيك وأخيك ، فاتق الله ، واذكر الميثاق فانك متى تكدني اكدك » (٢) .

واحتوت هذه الرسالة حسب النص الأخير على ما يلي :

١ — ان معاوية قد طالب الامام بتنفيذ ما شرطه عليه في بنود الصلح أن لا يخرج عليه ، وقد وفى له الامام بذلك الا ان معاوية لم يف بشيء مما أبرمه على نفسه من شروط الصلح .

٢ — ان معاوية كان على علم بوفود أهـــل الكوفة التي دعت الامام للخروج عليه وقد وسمهم بأنهم أهل الشقاق وانهم قد غدروا بعلي والحسن من قبل .

٣ — التهديد السافر للامام بأنه متى كاد معاوية فانه يكيده .

---

(١) انساب الأشراف ق ١ ج ١ .

(٢) تأريخ ابن كثير ٨ / ١٦٢ .

جواب الامام :

ورفع الامـــام إلى معاوية مذكرة خطيرة كانت جواباً لرسالته حمله مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء ، وفقدان الأمن ، وتعريض الأمة للأزمات ، وهي من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكرالأحداث التي صدرت من معاوية وهذا نصها :

« أما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير ، وان الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى .

أما ما ذكرت أنه رقي إليك عني ، فانه انما رقاه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون . ما أردت لك حربا ، ولا عليك خلافا ، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ، ومن الاعذار فيه إليك وإلى اوليائك القاسطين حزب الظلمة .

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كنـــدة واصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ، ويستعظمون البدع ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ثم قتلتهم ظلما وعدوانا ، من بعد ما أعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكـــدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده .

أولست قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذى ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه ، فقتلته بعـــد ما أمنته واعطيته مالو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال .

أولست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت أنه ابن أبيك ، وقد قال رسول الله (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر

فتركت سنة رسول الله (ص) تعمداً وتبعت هواك بغير هدى من الله ثم سلطته على أهل الاسـلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويسمل أعينهم ، ويصلبهم على جذوع النخل ، كأنك لست من هـذه الأمـة وليسوا منك .

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي ، فقتلهم ، ومثل بهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف .

وقلت : فيما قلت : انظر لنفسك ودينك ولأمة محمد (ص) واتق شق عصا هذه الأمة ، وان تردهم الى فتنة ، واني لا اعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ، ولا اعظم لنفسي ولديني ولأمة محمد (ص) أفضل من ان أجاهرك ، فان فعلت فانه قربة إلى الله ، وان تركته فاني استغفر الله لديني ، واسأله توفيقه لارشاد أمري .

وقلت : فيما قلت : إني إن انكرتك تنكرني ، وإن اكدك تكدني فكدني مابدا لك . فاني أرجو أن لا يضرني كيدك ، وان لا يكون على أحـد أضر منه على نفسك ، لأنك قـد ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك .

ولعمري ما وفيت بشرط ، ولقـد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعـد الصلح والايمان والعهود والمواثيق فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا ، ولم تفعل ذلك بهم الا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا ، مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا ، أو ماتوا قبل أن يدركوا :

فابشر يا معاوية بالقصاص ، واستيقن بالحساب ، واعلم أن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها . وليس الله بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ، ونفيك اياهم من دورهم الى دار الغربة واخذك الناس ببيعة ابنك الغلام الحدث يشرب الشراب ، ويلعب بالكلاب ما أراك الا قد خسرت نفسك ، وتبرت دينك (١) وغششت رعيتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل واخفت الورع التقي والسلام » (٢) .

لا اكاد أعرف وثيقـــة سياسية في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجلت الجرائم التي ارتكبها معاوية ، والدماء التي سفكها ، والنفوس التي أرعبها غير هذه الوثيقة ، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد « ولله كم هي هذه الكلمة رقيقة شاعرة (كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك) هذه الكلمة المشبعة بالشعور القومي الشريف وقديماً قال الصابي : « إن الرجل من قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم » وهو اتهام من الحسين لمعـــاوية في وطنيته وقوميته ، واتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنواناً على ذلك » (٣) .

لقـــد حفلت هذه المذكرة بالأحداث الخطيرة التي اقترفها معاوية وعماله خصوصاً زياد بن سمية الذي نشر الارهاب والظلم بين الناس فقتل على الظنة والتهمة ، واعـــدم كل من كان على دين الامام امير المؤمنين الذي هو دين ابن عمه رسول الله (ص) وقـــد اسرف هذا الطاغية في سفك الدماء بغير حق ، ومن الطبيعي انه لم يقترف ذلك الا بايعاز من معاوية فهو الذي عهد إليه بذلك :

---

(١) تبرت : اهلكت دينك .

(٢) الامامـــة والسياسة ١ / ٢٨٤ ، رجال الكشي (ص ٣٢) الدرجات الرفيعة (ص ٣٣٤) .

(٣) الامام الحسين (ص ٣٣٨) .

صدى الرسالة :

ولما انتهت رسالة الامام الى معاوية ضاق بها ذرعاً ، وراح يراوغ على عادته ويقول : « ان أثرنا بأبي عبد الله الا أسداً » (١) .

المؤتمر السياسي العام :

وعقد الامام في مكة مؤتمراً سياسياً عاما دعا فيه جمهوراً غفيراً ممن شهد موسم الحج من المهاجرين والانصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين فانبرى (ع) خطيباً فيهم ، وتحدث ببليغ بيانه بما ألم بعترة النبي (ص) وشيعتهم من المحن والخطوب التي صبها عليهم معاوية وما اتخذه من الاجراءات المشددة من أخفاء فضائلهم ، وستر ما أثر عن الرسول الأعظم في حقهم والزم حضار مؤتمره باذاعة ذلك بين المسلمين ، وفيما يلي نص حديثه فيما رواه سليم بن قيس قال :

« ولما كان قبل موت معاوية بسنة حج الحسين بن علي ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، فجمع الحسين بني هاشم ونساءهم ومواليهم ، ومن حج من الأنصار ممن يعرفهم الحسين وأهل بيته ، ثم أرسل رسلا ، وقال لهم : لا تدعوا أحداً حج العام من أصحاب رسول الله (ص) المعروفين بالصلاح والنسك الا اجمعوهم لي ، فاجتمع إليه بمنى اكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادق ، عامتهم من التابعين ، ونحو من مائتي رجل من اصحاب النبي (ص) فقام فيهم خطيباً « فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فان هذا الطاغية – يعني معاوية – قد فعل بنا وبشيعتنا

(١) سير الاعلام النبلاء ٣ / ١٩٨ .

ما قد رأيتم ، وعلمتم وشهدتم ، واني أريد أن اسألكم عن شيء فان صدقت فصدقوني ، وإن كذبت فكذبوني ، اسمعوا مقالتي ، واكتبوا قولي ، ثم ارجعوا إلى امصاركم وقبائلكم ، فمن أمنتم من الناس ، ووثقتم به فادعوهم الى ما تعلمون من حقنا ، فاني أتخوف أن يدرس هــذا الأمر ويغلب ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

وما ترك شيئاً مما أنزله الله فيهم من القرآن الا تلاه وفسره ولا شيئاً مما قاله رسول الله (ص) في أبيه وأخيه وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه .

وكل ذلك يقول أصحابه : اللهم نعم ، قد سمعنا وشهدنا ، ويقول التابعي : اللهم قد حدثني به من أصدقه وأئتمنه من الصحابة فقال (ع) .

« أنشدكم الله الا حدثتم به من تثقون به وبدينه . . » (١) .

وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر اسلامي عرفه المسلمون في ذلك الوقت وقد شجب فيه الامــام سياسة معاوية ودعا المسلمين لاشاعة فضائل أهل البيت (ع) ، واذاعة مآثرهم التي حاولت السلطة حجبها عن المسلمين .

رسالة جعدة للامام :

وكان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب من اخلص الناس للامام الحسين عليه السلام ، واكثرهم مودة له وقــد اجتمعت عنده الشيعة ، وأخذوا يلحون عليه في مراسلة الامام للقدوم الى مصرهم ليعلن الثورة على حكومة معاوية ، ورفع جعدة رسالة للامام وهذا نصها :

« أما بعد : فان من قبلنا من شيعتك متطلعة انفسهم اليك ، لا يعدلون بك أحداً ، وقدكانوا عرفوا رأي الحسن اخيك في الحرب . وعرفوك باللين

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ٢١٦ ــ ٢١٧ .

لأوليائك والغلظة على أعدائك ، والشدة في أمر الله ، فان كنت تحب أن تطلب هذا الأمر فاقدم علينا فقد وطنا أنفسنا على الموت معك . » .

جواب الامام :

ولم يكن من رأي الامام الحسين الخروج على معاوية ، وذلك لعلمه بفشل الثورة وعدم نجاحها ، فان معاوية بما يملك من وسائل دبلوماسية وعسكرية لابد أن يقضي عليها ، ويخرجها من اطارها الاسلامي الى حركة غير شرعية ويوسم القائمين بها بالتمرد والخروج على النظام ، وقد اجابهم عليه السلام بعد البسملة والثناء على الله بما يلي :

« أما اخي فاني ارجو أن يكون الله قد وفقه وسدده ، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذاك ، فالصقوا رحمكم الله بالأرض ، واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً ، فان يحدث الله به حدثاً وأنا حي كتبت إليكم برأيي والسلام . . » (١) .

لقد أمر (ع) شيعته بالخلود إلى الصبر والامساك عن المعارضة ، وأن يلزموا بيوتهم خوفاً عليهم من سلطان معاوية الذي كان يأخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر ويقتل على الظنة والتهمة ، واكبر الظن ان هذه الرسالة كانت في عهد زياد الذي سمل عيون الشيعة ، وصلبهم على جذوع النخل ودمرهم تدميراً ساحقاً .

(١) الأخبار الطوال (ص ٢٠٣) انساب الأشراف ج ١ ق ١

نصيحة الخدري للامام :

وشاعت في الأوساط الأجتماعية أنباء وفود أهل الكوفة ، على الامام الحسين (ع) واستنجادهم به لانقاذهم من ظلم معاوية وجوره ، ولما علم ابو سعيد الخدري بذلك خف مسرعاً للامام ينصحه ويحذره ، وهذا نص حديثه : « يا أبا عبد الله اني انا ناصح ، واني عليكم مشفق ، وقد بلغني أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة ، يدعونكم الى الخروج اليهم ، فلا تخرج إليهم ، فاني سمعت أباك يقول بالكوفة ، والله لقد مللتهم ، وابغضتهم وملوني وأبغضوني ، وما يكون منهم وفاء قط ، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر ، ولا صبر على السيف » (١)

وليس من شك في أن أبا سعيد الخدري كان من ألمع أصحاب الامام امير المؤمنين واكثرهم اخلاصاً وولاءً لأهل البيت ، وقد دفعه حرصه على الامام الحسين ، وخوفه عليه من معاوية أن يقوم بالنصيحة له في عدم خروجه على معاوية ، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا جواب الامام الحسين له .

استيلاء الحسين على اموال للدولة :

وكان معاوية ينفق اكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه ، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أمية لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي ، وكان الامام الحسين يشجب هذه السياسة ، ويري ضرورة انقاذ الأموال من من معاوية وانفاقها على المحتاجين ، وقد اجتازت على يثرب أموال من اليمن الى خزينة دمشق ، فعمد الامام الى الاستيلاء عليها ، ووزعها على

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦١ ، تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٧ .

المحتاجين من بني هاشم وغيرهم وكتب الى معاوية :

« من الحسين بن علي الى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد : فان عيراً مرت بنا من اليمن تحمل مالا وحللا وعنبراً وطيباً إليك ، لتودعها خزائن دمشق ، وتعل بها بعد النهل بني أبيك ، واني احتجت إليها فاخذتها والسلام . . » .

وأجابه معاوية

« من عبد الله معاوية الى الحسين بن علي ، أما بعد : فان كتابك ورد علي تذكر ان عيراً مرت بك من اليمن تحمل مالا ، وحللاً وعنبراً وطيباً إلي لأودعها خزائن دمشق ، واعل بها بعد النهل بني أبي ، وانك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها اذ نسبتها إلي لأن الوالي أحق بالمال ، ثم عليه المخرج منه ، وايم الله لو تركت ذلك حتى صار إلي لم ابخسك حظك منه ولكنني قد ظننت يا بن أخي ان في رأسك نزوة ، وبودي أن يكون ذلك في زماني فاعرف لك قدرك ، واتجاوز عن ذلك ولكنني والله اتخوف أن تبلى بمن لا ينظرك فواق ناقة » .

وكتب في اسفل كتابه هذه الأبيات :

يا حسين بن علي ليس مـا	جئت بالسائغ يومـاً والعلل
أخـذك المال ولم تؤمر به	ان هـذا من حسين لعجل
قـد اجزناها ولم نغضب لها	واحتملنا من حسين ما فعـل
يا حسين بن علي ذا الأمـل	لك بعدي وثبـة لا تحتمل
وبودي انني شاهدهـا	فاليها منك بالخلق الأجـل
انني أرهب ان تصـل بمن	عنده قد سبق السيف العذل (١)

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٣٢٧ الطبعة الأولى .

وفي هذا الكتاب تهديد للامام بمن يخلف معاوية وهو ابنه يزيد الذي لا يؤمن بمقام الحسين ومكانته من رسول الله (ص) .

وعلى أي حال فقد قام الامام بانقاذ هذه الأموال من معاوية وانفقها على الفقراء في حين أنه لم يكن يأخذ لنفسه أي صلة من معاوية ، وقد قدم له مالا كثيراً وثياباً وافرة وكسوة فاخرة فرد الجميع عليـــه (١) ، وقد روى الامام موسى بن جعفر (ع) ان الحسن والحسين كانا لا يقبلان جوائز معاوية (٢) .

حديث موضوع :

من الأخبار الموضوعة ما روي ان الامام الحسين وفد مع أخيه الحسن على معاوية فأمر لهما بمائة ألف درهم وقال لهما :

« خذها وأنا ابن هند ، ما اعطاها أحـــد قبلي ، ولا يعطيها أحد بعدي . . » .

فانبرى إليه الامام الحسين قائلا :

« والله ما أعطى احد قبلك ولا بعدك لرجلين اشرف منا . . » .

ولا مجال للقول بصحة هذه الرواية فان الامام الحسين (ع) لم يفد على معاوية بالشام ، وانما وفد عليه الامام الحسن (ع) لا لأجل الصلة والعطاء كما يذهب لذلك بعض السذج من المؤرخين ، وانما كان الغرض ابراز الواقـــع الأموي ، والتدليل على مساوىء معاوية ، كما اثبتت ذلك

(١) الحسين ١ / ١١٧ لعلي جلال .

(٢) حياة الامام موسى بن جعفر ٢ / ٣٣٢ .

مناظراته مع معاوية وبطانته ، والتي لم يقصد فيها الا تلك الغاية ، وقد أوضحنا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا (حياة الامام الحسن) .

الحسين مع بني أمية :

كانت العداوة بين الحسين وبين بني أميــة ذاتية فهي عداوة الضد للضد ، وقد سأل سعيد الهمداني الامام الحسين عن بني أمية فقال (ع) « إنا وهم الخصمان اللذان اختصما في ربهم . . » (١) .

أجل انهما خصمان في أهدافهما ، وخصمان في اتجاههما ، فالحسين (ع) كان يمثل جوهر الايمان بالله ، ويمثل القيم الكريمة التي يشرف بها الانسان وبنو أمية كانوا يمثلون مساوىء الجاهلية التي تهبط بالانسان الى مستوى سحيق وكان الأمويون بحسب طباعهم الشريرة ، يحقدون على الامام الحسين ويبالغون في توهينه ، وقد جرت منازعة بين الحسين وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في مال كان بينهما فتحامل الوليد على الحسين في حقه ، فثار الامام في وجهه وقال :

« احلف بالله لتنصفني من حقي أو لاخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله (ص) وادعون بحلف الفضول . . » .

لقد أراد أن يحيي حلف الفضول الذي أسسه الهاشميون والذي كان شعاره انصاف المظلومين والأخذ بحقوقهم ، وقد حاربه الأمويون في جاهليتهم لأنه يتنافى مع طباعهم ومصالحهم .

وانبرى عبد الله بن الزبير فانضم للحسين وانتصر له وقال :

---

(١) الكنى والأسماء ١ / ٧٧ لأبي بشر الدولابي .

« وأنا احلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معـــه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً . » .

وبلغ المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري الحـــديث فانضم للحسين ، وقال بمثل مقالته وشعر الوليد بالوهن والضعف ، فتراجع عن غيه ، وانصف الحسين (ع) من حقه (١) .

ومن الوان الحقـــد الأموي على الحسين أنه كان جالساً في مسجد النبي (ص) فسمع رجلا يحدث اصحابه ، ويرفع صوته ليسمع الحسين وهو يقول :

« انا شاركنا آل أبي طالب في النبوة حتى نلنا منها مثـــل ما نالوا منها من السبب والنسب ، ونلنا من الخلافة مالم ينالوا فبمّ يفخرون علينا ؟ » .

وكرر هذا القول ثلاثاً ، فأقبل عليه الحسين فقال له : اني كففت عن جوابك في قولك الأول حلماً ، وفي الثاني عفواً ، وأمـــا في الثالث فاني مجيبك اني سمعت أبي يقول : ان في الوحي الـــذي أنزله الله على محمد (ص) اذا قامت القيامة الكبرى حشر الله بني أميـــة في صور الذر يطأهم الناس حتى يفرغ من الحساب ثم يؤتى بهم فيحاسبوا ، ويصار بهم الى النار (٢) ولم يطق الأموي جواباً وانصرف وهو يتميز من الغيظ . .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف الامام مع معاوية وبني أمية ، ونعرض فيما يلي الى وفاة معاوية وما رافقها من الأحداث .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٢ .

(٢) المناقب والمثالب للقاضي نعمان المصري (ص ٦١) .

مرض معاوية :

ومرض معاوية وتدهورت صحته ، ولم تجد معه الوصفات الطبية ، فقد تناهبت جسمه الأمراض ، وقد شعر بدنو اجله ، وكان في حزن على ما اقترفه في قتله لحجر بن عدى فكان ينظر إليه شبحاً مخيفاً ، وكان يقول : ويلي منك يا حجر ! إن لي مع ابن عدي ليوما طويلا (١) وتحدث الناس عن مرضه ، فقالوا إنه الموت ، فأمر أهله أن يحشوا عينيه اثمداً ، ويسبغوا على رأسه الطيب ، ويجلسوه ثم أذن للناس فدخلوا وسلموا عليـــه قياماً فلما خرجوا من عنده أنشد قائلا :

وتجلدي للشامتين أريهم　　　أنى لريب الدهر لا اتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه .

واذا المنيـــة أنشبت أظفارها　　　الفيت كل تميمة لا تنفع (٢)

وصاياه :

ولما ثقل حال معاوية عهد بوصيته إلى يزيد ، وقد جاء فيها « يابني اني قد كفيتك الشر والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء واخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك ، واكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل كل يوم عامــلا فافعل فان عزل عامل

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٢٤٥ .

(٢) حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٩ .

أيسر من أن يشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر أهـــل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان رابك من عـــدوك شيء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فأردد أهل الشام الى بلادهم فان أقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم . . وانى لست اخاف عليك أن ينازعك في هـــذا الأمر الا أربعـــة نفر من قريش الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، فاما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة ، فاذا لم يبق احد غيره بايعك واما الحسين بن علي فهو رجـــل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فان خرج وظفرت به فاصفح عنـــه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيما وقرابة من محمد ، وأما ابن ابي بكر فان رأى اصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلـــه ليس له همة الا في النساء واللهو ، واما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان هوفعلها بك فظفرت به فقطعه ارباً اربا واحقن دماء قومك ما استطعت . . . » (١) .

واكبر الظن ان هذه الوصية من الموضوعات فقـــد افتعلت لاثبات حـــلم معاوية وانه عهد الى ولده بالاحسان الشامل الى المسلمين وهو غير مسؤول عن تصرفاته . . ومما يؤيد وضعها ما يلي :

١ ــ ان المؤرخين رووا أن معاوية أوصى يزيد بغير ذلك فقال له : ان لك من أهل المدينة يوماً فان فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فانه رجل قد عرفنا نصيحته (٢) وكان مسلم بن عقبة جزاراً جلاداً لا يعرف الرحمة والرأفة ، وقد استعمله يزيد بعهد من أبيه في واقعة الحرة فاقترف كل موبقة

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٩ .

(٢) تأريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٩ .

واثم ، فكيف تلتقي هـذه الوصية بتلك الوصية التي عهد فيها بالاحسان الى أهل الحجاز .

٢ ـ انه اوصاه برعاية عواطف العراقيين ، والاستجابة لهم اذا سألوه في كل يوم عزل من ولاه عليهم ، وهـذا يتنافى مع ما ذكره المؤرخون انه عهد بولاية العراق الى عبيد الله بن زياد ، وهو يعلم شدته وصرامته وغدره ، فهو ابن زياد الذي أغرق العراق بدماء الأبرياء فهل العهد إليه بولاية العراق من الاحسان الى العراقيين والبر بهم ؟ ! !

٣ ـ انه جاء في هذه الوصية انه يتخوف عليه من عبد الله بن عمر وقد وصفه بأنه قـد وقذته العبادة ، واذا كان كذلك فهو بطبيعة الحال منصرف عن السلطة والمنازعات السياسية فما معنى التخوف منه ؟ ! !

٤ ـ انه جاء في هذه الوصية انه يتخوف عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد نص المؤرخون انه توفي في حياة معاوية ، فما معنى التخوف عليه من انسان ميت ؟

٥ ـ انه أوصاه برعاية الحسين (ع) وان له رحما ماسة وحقاً عظيما وقرابة من رسول الله (ص) ومن المؤكـد ان معاوية بالذات لم يرع أي جانب من جوانب القرابة من رسول الله ، فقد قطع جميع أواصرها فقد فرض سبها على رؤوس الاشهاد ، وعهد إلى لجان التربيـة والتعليم بتربية النشيء ببغض أهل البيت ، ولم يتردد في ارتكاب أي وسيلة للحط من شأنهم ، وقد علق الاستاذ عبد الهادي المختار على هذه الفقرات من الوصية بقوله :

« وتقول بعض المصادر ان معاوية أوصى ولده يزيد برعاية الحسين والذي نعتقده أنه لا أثر لها من الصحة ، فان معاوية لم يتردد في اغتيال

الامام الحسن حتى بعد ما بايعه ، فكيف يوصي ولده بالعفو عن الحسين ان ظفر به .

لم يكن معاوية بالذي يرعى لرسول الله (ص) حرمـــة أو قرابة حتى يوصي ابنه برعاية آل محمد ، كلا ابداً فقد حارب الرسول في الجاهلية حتى أسلم كرها يوم فتح مكة ، ثم حارب صهر الرسول وخليفته وابن عمه علياً ، ونزا على خلافة المسلمين ، وانتزعها قهراً ، وسم ابن بنت الرسول الحسن ، فهل يصدق بعد هذا كله أن يوصي بمثل ما أوصى به .

قـــد يكون أوصاه أن يغتاله سراً ويدس له السم ، أو يبعث له من يطعنه بليل - ربما كان هذا الفرض اقرب الى الصحة من تلك الوصية - ولكن المؤرخين سامحهم الله أرادوا أن يبرؤا ساحة الأب ، ويلقوا جميع التبعات على الابن وهما في الحقيقة غرس اثم واحـــد وثمرة جريمة واحدة وأضاف يقول :

ولو ان الوصية المزعومة كانت صحيحة لما كان يزيد لا هم له بعد موت أبيه الا تحصيل البيعة من الحسين وتشديده على عامله بالمدينة بلزوم اجبار الحسين على البيعة . » (١) .

موت معاوية :

واستقبل معاوية الموت غير مطمئن فكان يتوجـــع ويظهر الجزع على ما اقترفه من الاسراف في سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم ، وقد وافاه الأجل في دمشق محروما عن رؤية ولده الذي اغتصب له الخـــلافة وحمله

(١) مجلة الغري السنة الثامنة العدد ٩ و ١٠ .

على رقاب المسلمين ، وكان يزيد فيما يقول المؤرخون مشغولا عن أبيه
- في اثناء وفاته - برحلات الصيد وعربدات السكر ، ونغمة العيدان .
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية ، وما رافقها من
الأحداث الجسام .

حُكومَة يزيد



وتسلم يزيد بعد هلاك أبيه قيادة الدولة الاسلامية ، وهو في غضارة العمر ، لم تهذبه الأيام ولم تصقله التجارب ، وانما كان – فيما اجمع عليه المؤرخون – موفور الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد وممعناً كل الامعان في اقتراف المنكر والفحشاء ، ولم يكن حين هلاك أبيه في دمشق ، وانما كان في رحلات الصيد في حوارين الثنيــة (١) فأرسل إليه الضحاك بن قيس رسالة يعزيه فيها بوفاة معاوية ، ويهنئه بالخلافة ، ويطلب منه الاسراع الى دمشق ليتولى أزمة الحكم ، وحينما قرأ الرسالة اتجه فوراً نحو عاصمته في ركب من أخواله ، وكان ضخماً كثير الشعر ، وقد شعث في الطريق وليس عليه عمامة ، ولا متقلداً بسيف ، فأقبل الناس يسلمون عليه ، ويعزونه ، وقد عابوا عليه ما هو فيه ، وراحوا يقولون :

« هذا الاعرابي الذي ولاه معاوية أمر الناس ، والله سائله عنه » (٢)

واتجه نحو قبر أبيه فجلس عنده وهو باك العين ، وانشأ يقول :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فاوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابكم ... قال الخليفة آمسى مدنفا وجعا (٣)

ثم سار متجهاً نحو القبة الخضراء في موكب رسمي تحف به علوج أهل الشام واخواله وسائر بني أمية .

---

(١) الفتوح ٤ / ٢٦٥ .

(٢) تأريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٧ .

(٣) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦١ .

خطاب العرش :

واتجه يزيد نحو منصة الخطابة ليعلن للناس سياسته ، ومخططات حكومته ، فلما استوى عليها ارتج عليه ، ولم يطق الكلام ، فقام اليه الضحاك بن قيس ، فصاح به يزيد ما جاء بك ؟ قال له الضحاك : كلم الناس وخذ عليهم ، فأمره بالجلوس (١) ، وانبرى خطيباً فقال :

« الحمد لله الذي ما شاء صنع ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع ان امير المؤمنين — يعني معاوية — كان حبلا من حبال الله مده ، ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون من قبله ، وخيراً مما يأتي بعده ، ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه ، فان يعف عنه فبرحمته وإن يعاقبه فبذنبه ، وقد وليت بعده الأمر ولست اعتذر من جهل ، ولا اني على طلب علم ، وعلى رسلكم اذا كره الله شيئاً غيره واذا أحب شيئاً يسره . . » (٢) .

ولم يعرض يزيد في هذا الخطاب لسياسة دولته ، ولم يدل بأي شيء مما تحتاج إليه الأمة في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية ، ومن المقطوع به ان ذلك مما لم يفكر به ، وانما عرض لطيشه وجبروته واستهانته بالأمة فهو لا يعتذر اليها من أي جهل يرتكبه ، ولا من سيئة يقترفها ، وانما على الأمة الاذعان والرضا لظلمه وبطشه .

---

(١) تأريخ الخلفاء ، نشر اكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي

(٢) العقد الفريد ٤ / ١٥٣ عيون الأخبار ٢ / ٢٣٩ :

خطابه في أهل الشام :

وخطب في أهل الشام خطاباً أعلن فيـــه عن عزمه وتصميمه على الخوض في حرب مدمرة مع أهل العراق ، وهذا نصه :

« يا أهل الشام فان الخير لم يزل فيـــكم ، وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد ، وقد رأيت في منامي كأن نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطا ، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم اقدر على ذلك حتى جاءني عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي ، وأنا أنظر إليه . » .

وانبرى أهل الشام فأعلنوا تأييدهم ودعمهم الكامل له قائلين :

« يا امير المؤمنين امض بنا حيث شئت ، واقدم بنا على من أحببت فنحن بين يديك ، وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين . » .

فشكرهم يزيد واثنى على اخلاصهم وولائهم له (١) وقد بات من المقطوع به عند أوساط الشام ان يزيد سيعلن الحرب على أهل العـــراق لكراهتهم لبيعته ، وتجاوبهم مع الامام الحسين .

مع المعارضة في يثرب :

ولم يرق ليزيد أن يرى جبهة معارضة ، لا تخضع لسلطانه ، ولا تدين بالولاء لحكومته وقد عزم على التنكيل بها بغير هوادة ، فقـــد استتبت له الأمور وخضعت له الرقاب ، وصارت أجهزة الدولة كلها بيده فما الذي يمنعه من ارغام اعدائه ومناوئيه .

وأهم ما كان يفكر به من المعارضين الامام الحسين (ع) لأنه يتمتع

(١) الفتوح ٥ / ٦ .

بنفوذ واسع النطاق ، ومكانة مرموقة بين المسلمين فهو حفيد صاحب الرسالة وسيد شباب أهل الجنة ، أما ابن الزبير فلم تكن له تلك الأهمية البالغة في نفسه .

الاوامر المشددة الى الوليد :

وأصدر يزيد أوامره المشددة الى عامله على يثرب الوليد بن عتبة بارغام المعارضين له على البيعة ، وقد كتب إليه رسالتين :

الأولى وقد رويت بصورتين وهما :

١ — رواها الخوارزمي وهذا نصها : أما بعد : فان معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه ، واستخلصه ، ومكن له ثم قبضه الى روحه وريحانه ورحمته ، عاش بقدر ومات بأجل ، وقد كان عهد إلي وأوصاني بالحذر من آل أبي تراب لجرأتهم على سفك الدماء ، وقد علمت يا وليد ان الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق وطلاب العدل فاذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة » (١) .

وقد احتوت هذه الرسالة على ما يلي :

١ — نعي معاوية إلى الوليد

٢ — تخوف يزيد من الأسرة النبوية لأنه قد عهد إليه أبوه بالحذر منها ، وهذا يتنافى مع تلك الوصية المزعومة لمعاوية التي جاء فيها اهتمامه بشأن الحسين (ع) والزام ولده بتكريمه ورعاية مقامه .

٣ — الاسراع في اخذ البيعة من أهل المدينة :

٢ — رواها البلاذري ، وهذا نصها : « أما بعد : فان معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله أكرمه الله ، واستخلفه ، وخوله ،

(١) مقتل الخوارزمي ١ / ١٧٨ .

ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمة الله عليه ، فقد عاش محموداً ومات براً تقياً والسلام . . » (١) :

واكبر الظن ان هذه الرواية هي الصحيحة فانها قد اقتصرت على نعي معاوية الى الوليد من دون أن تعرض إلى أخذ البيعة من الحسين وغيره من المعارضين ، اما على الرواية الأولى ، فانه يصبح ذكر الرسالة التالية - التي بعثها يزيد الى الوليد لارغام الحسين على البيعة لغواً .

الثانية : رسالة صغيرة ، وصفت كأنها اذن فأرة ، وقد رويت بثلاث صور :

١ - رواها الطبري والبلاذري ، وهذا نصها : « أما بعد ، فخذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » (٢) .

٢ - رواها اليعقوبي وهذا نصها : « اذا أتاك كتابي فاحضر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، فخذهما بالبيعة فان امتنعا فاضرب أعناقهما ، وابعث إلي برؤوسهما وخذ الناس بالبيعة فمن امتنع فانفذ فيه الحكم ، وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير والسلام » (٣) .

وليس في الرواية الثانية ذكر لعبد الله بن عمر ، واكبر الظن أنه أضيف اسمه الى الحسين وابن الزبير لالحاقه بالجبهة المعارضة وتبريره من التأييد السافر لبيعة يزيد .

٣ - رواها الحافظ ابن عساكر ، وهذا نصها : « إن ادع الناس

(١) انساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٤ .
(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٨٤ أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٤
(٣) تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥ .

فبايعهم ، وابدأ بوجوه قريش وليكن اول من تبدأ به الحسين بن علي فان أمير المؤمنين - يعني معاوية - عهد إلي في أمره الرفق واستصلاحه » (١)

وليس في هـــذه الرواية ذكر لابن الزبير وابن عمر اذ لم تكن لهما أية أهمية في نظر يزيد إلا انا نشك فيما جاء في أخر هذه الرسالة من أن معاوية قد عهد إلى يزيد الرفق بالحسين واستصلاحه ، فان معاوية قـــد وقف موقفاً ايجابياً يتسم بالعداء والكراهية لعموم أهل البيت (ع) واتخذ ضدهم جميع الاجراءات القاسية كما المعنا الى ذلك في البحوث السابقة ، واكبر الظن ان هذه الجملة قد اضيفت إليها لتبرير معاوية ، ونفي المسؤلية عنه فيما ارتكبه ولده من الجرائم ضد العترة الطاهرة :

بقي هنا شيء وهوان هذه الرسالة قد وصفها المؤرخون كأنها اذان فأرة لصغرها ولعل السبب في ارسالها بهذا الحجم هو ان يزيد قد حسب ان الوليد سينفذ ماعهد إليه من قتل الحسين وابن الزبير ، ومن الطبيعي ان لذلك كثيراً من المضاعفات السيئة ومن أهمهـــا ما يلحقه من التذمر والسخط الشامل بين المسلمين فأراد أن يجعل التبعة على الوليد ، وأنه لم يعهد إليه بقتلها ، وانه لو أمره بذلك لاصدر مرسوماً خاصاً مطولا به .

وحمل الرسالتين زريق مولى معاوية فاخذ يجد في السير لا يلوي على شيء حتى انتهى الى يثرب (٢) وكان معه عبد الله بن سعد بن أبي سرح متلثماً لا يبدو منه الا عيناه فصادفه عبد الله بن الزبير فاخذ بيده وجعل

(١ تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ :

(٢) تأريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٩ ، تأريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٢ وجاء في تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ وكتب يزيد مع عبد الله بن عمر ، وابن ادريس العامري عامر بن لؤي هذه الرسالة .

يسأله عن معاوية وهو لا يجيبه ، فقال له : امات معاوية ؟ فلم يكلمه بشيء فاعتقد بموت معاوية ، وقفـل مسرعاً الى الحسين وأخبره الخبر (١) ، فقال له الحسين : إني أظن ان معاوية قد مات ، فقد رأيت البارحة في منامي كأن منبر معاوية منكوس ، ورأيت داره تشتعل ناراً فأولت ذلك في نفسي بموته (٢) :

واقبل زريق الى دار الوليد فقال للحاجب استأذن لي ، فقال قـد دخل ولا سبيل إليه ، فصاح به زريق : انى جئته بأمر ، فدخل الحاجب وأخبره بالأمر فاذن له ، وكان جالساً على سرير فلما قرأ كتاب يزيد بوفاة معاوية جزع جزعاً شديداً ، وجعل يقوم على رجليه ، ويرمي بنفسه على فراشه (٣) .

فزع الوليد :

وفزع الوليد مما عهد إليه يزيد من التنكيل بالمعارضين ، فقـد كان على يقين من أن أخذ البيعـة من هؤلاء النفر ليس بالأمر السهل ، حتى يقابلهم بالعنف ، او يضرب أعناقهم - كما أمره يزيد - ان هؤلاء النفر لم يستطع معاوية مع ما يتمتع به من القابليات الدبلوماسية أن يخضعهم لبيعة يزيد ، فكيف يصنع الوليد أمراً عجز عنه معاوية .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ١١٥ :

(٢) الفتوح ٥ / ١٤ :

(٣) تأريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٢ .

استشارته لمروان :

وحار الوليد في امره فرأى انه في حاجة الى مشورة مروان عميد الأسرة الأموية فبعث خلفه ، فاقبل مروان وعليه قميص أبيض وملاءه موردة (١) فنعى إليه معاوية فجزع مروان وعرض عليه ما أمره يزيد من ارغام المعارضين على البيعة له واذا اصروا على الامتناع فيضرب أعناقهم ، وطلب من مروان أن يمنحه النصيحة ، ويخلص له في الرأي .

رأي مروان :

واشار مروان على الوليد فقال له : ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم الى البيعة والدخول في طاعة يزيد ، فان فعلوا قبلت ذلك منهم ، وان ابوا قدمهم ، واضرب أعناقهم قبل أن يدروا بموت معاوية ، فانهم إن علموا ذلك وثب كل رجل منهم فاظهر الخلاف ، ودعا إلى نفسه ، فعند ذلك اخاف أن يأتيك من قبلهم مالا قبل لك به ، الا عبد الله بن عمر فانه لا ينازع في هذا الأمر أحداً . . مع اني اعلم ان الحسين بن علي لا يجيبك إلى بيعة يزيد ، ولا يرى له عليه طاعة ، ووالله لو كنت في موضعك لم اراجع الحسين بكلمة واحدة حتى أضرب رقبته كائنا في ذلك ما كان .

وعظم ذلك على الوليد وهو احنك بني أمية وأملكهم لعقله ورشده فقال لمروان :

« يا ليت الوليد لم يولد ولم يك شيئاً مذكورا . » .

---

(١) تأريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٩ .

فسخر منه مروان وراح يندد به قائلا :

« لا تجزع مما قلت لك : فان آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر ولم يزالوا وهم الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان ، ثم ساروا إلى أمير المؤمنين — يعني معاوية — فحاربوه . . » .

ونهره الوليد فقال له :

« ويحك يا مروان عن كلامك هذا ، واحسن القول في ابن فاطمة فانه بقية النبوة » (١) .

واتفق رأيهم على استدعاء القوم ، وعرض الأمر عليهم للوقوف على مدى تجاوبهم مع السلطة في هذا الأمر .

أضواء على موقف مروان :

لقد حرض مروان الوليد على التنكيل بالمعارضين ، واستهدف بالذات الامام الحسين ، فالح بالفتك به ان امتنع من البيعة وفيما أحسب انه انما دعاه لذلك ما يلي :

١ — ان مروان كان يحقد على الوليد ، وكانت بينهما عداوة متأصلة وهو — على يقين — ان الوليد يحب العافية ، ولا ينفذ ما عهد إليه في شأن الامام الحسين ، فاستغل الموقف ، وراح يشدد عليه في اتخاذ الاجراءات الصارمة ضد الامام ، ليستبين لطاغية الشام موقفه فيسلب ثقته عنه ، ويقصيه عن ولاية يثرب ، وفعلا قد تحقق ذلك فان يزيد حينما علم بموقف الوليد مع الحسين (ع) غضب عليه وأقصاه عن منصبه .

(١) الفتوح ٥ / ١٢ — ١٣ .

٢ ـ ان مروان كان ناقماً على معاوية حينما عهد بالخلافة لولده ولم يرشحه لها ، لأنه شيخ الأمويين واكبرهم سناً ، فأراد أن يورط يزيد في قتل الامام ليكون به زوال ملكه .

٣ ـ كان مروان من الحاقدين على الحسين لأنه سبط رسول الله (ص) الذي حصد رؤوس بني أمية ، ونفى اباه الحكم عن يثرب ، وقد لعنه ولعن من تناسل منه ، وقد بلغ الحقد بمروان للأسرة النبوية أنه منع من دفن جنازة الحسن (ع) مع جده رسول الله (ص) ويقول المؤرخون : إنه كان يبغض أبا هريرة لأنه يروي ما سمعه من رسول الله (ص) في فضل سبطيه وريحانتيه ، وقد دخل على أبي هريرة عائداً له فقال له :

« يا أبا هريرة ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا الا في حبك الحسن والحسين » .

فأجابه ابو هريرة :

« اشهد لقد خرجنا مع رسول الله (ص) فسمع الحسن والحسين يبكيان ، فقال : ما شأن ابني ؟ فقالت فاطمة : العطش .. يا مروان كيف لا أحب هذين ، وقد رأيت من رسول الله ما رأيت . » (١) .

لقد دفع مروان الوليد الى الفتك بالحسين لعله يستجيب له فيروي بذلك نفسه المترعة بالحقد والكراهية لعترة النبي (ص) .

٤ ـ كان مروان ـ على يقين ـ انه سيلي الخلافة ، فقد أخبره الامام امير المؤمنين وصي النبي (ص) وباب مدينة علمه حينما تشفع الحسنان به بعد واقعة الجمل ، فقال : ان له امرة كلعقة الكلب انفه ، وقد اعتقد بذلك مروان ، وقد حرض الوليد على الفتك بالحسين ليكون

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٠٨ .

ذلك سبباً لزوال ملك بني سفيان ، ورجوع الخلافة إليه .

هذه بعض الأسباب التي حفزت مروان الى الاشارة على الوليد بقتل الامام الحسين وانه لم يكن بذلك مشفوعاً بالولاء والاخلاص الى يزيد .

استدعاء الحسين :

وأرسل الوليد في منتصف الليل (١) عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث خلف الحسين وابن الزبير ، وانما بعثه في هذا الوقت لعله يحصل على الوفاق من الحسين ولو سراً على البيعة ليزيد ، وهو يعلم انه اذا اعطاه ذلك فلن يخيس بعهده ، ولن يتخلف عن قوله .

ومضى الفتى يدعو الحسين وابن الزبير للحضور عند الوليد فوجدهما في مسجد النبي (ص) فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له ، وأمراه بالانصراف وذعر ابن الزبير ، فقال للامام :

- ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ؟

- أظن أن طاغيتهم - يعني معاوية - قد هلك فبعث إلينا بالبيعة قبل أن يفشو بالناس الخبر .

- وأنا ما اظن غيره فما تريد أن تصنع ؟

- اجمع فتيالي الساعة ، ثم اسير إليه ، واجلسهم على الباب .

- إني اخاف عليك اذا دخلت .

- لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع (٢) :

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦٠ .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤ .

وانصرف أبي الضيم الى منزله فاغتسل ، وصلى ودعا الله (١) وأمر أهل بيته بلبس السلاح والخروج معه ، فخلوا محدقين به ، فأمرهم بالجلوس على باب الدار ، وقال لهم : اني داخل فاذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا علي بأجمعكم ، ودخل الامام على الوليد فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة فأمرهما الامام بالتقارب والاصلاح ، وترك الاحقاد ، وكانت سجية الامـــام (ع) التي طبع عليها الاصلاح حتى مع أعدائه وخصومه ، فقال (ع) لهما :

« الصلة خير من القطيعة ، والصلح خير من الفساد ، وقـــد آن لكما أن تجتمعا ، اصلح الله ذات بينكما . » (٢) .

ولم يجيباه بشيء فقـــد علاهما صمت رهيب ، والتفت الامام إلى الوليد فقال له : هل اتاك من معاوية خبر ؟ فانه كان عليلا وقد طالت علته ، فكيف حاله الآن ؟

فقال الوليد بصوت خافت حزين النبرات :

« آجرك الله في معاوية فقد كان لك عم صدوق ، وقد ذاق الموت وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد . . . » .

فاسترجع الحسين ، وقال له :

« لماذا دعوتني ؟ » .

« دعوتك للبيعة » (٣) .

فقال (ع) : إن مثلي لا يبايع سراً ، ولا يجتزىء بها مني سراً ، فاذا خرجت الى الناس ودعتهم للبيعة ، دعوتنا معهم كان الأمر واحداً .

---

(١) الدر النظيم (ص ١٦٢) .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤ .

(٣) الفتوح ٥ / ١٧ .

لقد طلب الامام تأجيل الأمر الى الصباح ، حتى يعقد اجتماع جماهيري فيدلي برأيه في شجب البيعـة ليزيد ، ويستنهض همم المسلمين على الثورة والاطاحة بحكمه ، وكان الوليد – فيما يقول المؤرخون – يحب العافيـة ويكره الفتنة فشكر الامام على مقالته ، وسمح له بالانصراف الى داره ، وانبرى الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيظ محنق فصاح بالوليد :

« لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منـه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فان بايع والا ضربت عنقه » .

ووثب أبي الضيم الى الوزغ ابن الوزغ فقال له :

« يا بن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو ؟ كذبت والله ولؤمت » (١)

وأقبـل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعـة ليزيد قائلا :

« أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة ، بنا فتح الله ، وبنا ختم ، ويزيد رجل فاسق ، شارب خمر قاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر ، وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة » (٢) .

وكان هذا اول اعلان له على الصعيد الرسمي – بعد هلاك معاوية – في رفض البيعة ليزيد ، وقـد أعلن ذلك في بيت الامارة ورواق السلطة بدون مبالاة ولا خوف ولا ذعر .

لقد جاء تصريحه بالرفض لبيعة يزيد معبراً عن تصميمه ، وتوطين نفسه حتى النهاية على التضحية عن سمو مبدئه ، وشرف عقيـدته ، فهو بحكم مواريثه الروحية ، وبحكم بيته الذي كان ملتقى لجميع الكمالات الانسانية

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤ .
(٢) الفتوح ٥ / ١٨ .

كيف يبايع يزيد الذي هو من عناصر الفسق والفجور ، ولو اقره اماماً على المسلمين لساق الحياة الاسلامية الى الانهيار والدمار وعصف بالعقيدة الدينية في متاهات سحيقة من مجاهل هذه الحياة .

وكانت كلمة الحق الصارخة التي أعلنها ابو الأحرار قد احدثت استياءً في نفس مروان فاندفع يعنف الوليد ويلومه على اطلاق سراحه قائلا :

« عصيتني ! لا والله لا يمكنك مثلها من نفسه أبداً » :

وتأثر الوليد من منطق الامام ، وتيقظ ضميره فاندفع يرد أباطيل مروان قائلا :

« ويحك ! ! انك أشرت علي بذهاب ديني ودنياي ، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها ، واني قتلت حسيناً : سبحان الله ! ! أقتل حسينا ان قال : لا ابايع ، والله ما اظن احداً يلقى الله بدم الحسين الا وهو خفيف الميزان ، لاينظر الله إليه يوم القيامة ، ولايزكيه وله عذاب اليم »

وسخر منه مروان وطفق يقول :

« اذا كان هذا رأيك فقد اصبت ! ! » (١) :

وعزم الحسين على مغادرة يثرب والتوجه الى مكة ليلوذ بالبيت الحرام ويكون بمأمن من شرور الأمويين واعتدائهم .

الحسين مع مروان :

والتقى أبي الضيم في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي اعلن فيها رفضه لبيعة يزيد ، فبادره مروان قائلا :

---

(١) الطبري .

« اني ناصح ، فاطعني ترشد وتسدد . . » .

« وماذاك يامروان ؟ » .

« اني آمرك ببيعة اميرالمؤمنين يزيد فانه خير لك في دينك ودنياك . »

والتاع كاشد ما تكون اللوعة واسترجع ، وأخذ يرد على مقالة مروان ببليغ منطقه قائلا : « على الاسلام السلام ، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد ، ويحك يا مروان ! ! أتأمرني ببيعة يزيد ، وهو رجل فاسق : لقد قلت : شططا من القول . . لا الومك على قولك ، لأنك اللعين الذي لعنك رسول الله (ص) وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص وأضاف الامام يقول :

« إليك عني يا عدو الله ! ! فانا أهل بيت رسول الله (ص) والحق فينا ، وبالحق تنطق ألسنتنا ، وقد سمعت رسول الله (ص) يقول : الخلافة محرمة على آل أبي سفيان ، وعلى الطلقاء وابناء الطلقاء ، وقال : اذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه ، فوالله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدي فلم يفعلوا ما أمروا به . . » :

وتميز الخبيث الدلس مروان غيظا وغضبا ، واندفع يصيح :

« والله لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغراً فانكم آل أبي تراب ، قد اشربتم بغض آل أبي سفيان ، وحق عليكم أن تبغضوهم ، وحق عليهم أن يبغضوكم » وصاح به الامام :

« إليك عني فانك رجس ، وأنا من أهل بيت الطهارة الذين انزل الله فيهم على نبيه (ص) : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

ولم يطق مروان الكلام ، وقد تحرق ألماً وحزناً ، فقال له الامام :

« ابشر يابن الزرقاء بكل ما تكره من الرسول (ص) يوم تقدم

على ربك فيسألك جدي عن حقي وحق يزيد . . » .

وانصرف مروان مسرعاً الى الوليد فاخبره بمقالة الحسين له (١) :

اتصال الوليد بدمشق :

وأحاط الوليد يزيد علماً بالأوضاع الراهنة في يثرب ، وعرفه بامتناع الحسين (ع) من البيعة ، وانه لا يرى له طاعة عليه ، ولما فهم يزيد بذلك تميز غيظاً وغضباً .

الأوامر المشددة من دمشق :

وأصدر يزيد أوامره المشددة الى الوليد باخذ البيعة من أهل المدينة ثانياً ، وقتل الحسين (ع) وارسال رأسه إليه وهذا نص كتابه .

« من عبد الله يزيد أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة ، أما بعد : فاذا ورد عليك كتابنا هذا فخذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم وذر عبد الله بن الزبير فانه لن يفوت أبداً مادام حيا ، وليكن مع جوابك إلي برأس الحسين بن علي ، فان فعلت ذلك ، فقد جعلت لك أعنة الخيل ولك عندي الجائزة ، والحظ الأوفر والنعمة والسلام . . » .

رفض الوليد :

ورفض الوليد رسمياً ماعهد إليه يزيد من قتل الحسين ، وقال : لا والله لا يراني الله قاتل الحسين بن علي . . لا أقتل ابن بنت رسول الله (ص)

(١) الفتوح : ٥/٢٤

ولو أعطاني يزيد الدنيا بحذافيرها (١) وقد جاءته هذه الرسالة بعد مغادرة الامام يثرب الى مكة .

وداع الحسين لقبر جده :

وخف الحسين (ع) في الليلة الثانية الى قبر جده (ص) وهو حزين كئيب ليشكو إليه ظلم الظالمين له ، ووقف أمام القبر الشريف – بعد أن صلى ركعتين – وقد ثارت مشاعره وعواطفه ، فاندفع يشكو الى الله ما ألم به من المحن والخطوب قائلا :

« اللهم إن هذا قبر نبيك محمد ، وأنا ابن بنت محمد ، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت ، اللهم اني أحب المعروف وانكر المنكر ، وأنا اسألك يا ذا الجلال والاكرام بحق هـذا القبر ومن فيه الا ما اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى . » .

رؤيا الحسين لجده :

وأخـذ الحسين يطيل النظر الى قبر جده ، وقد وثقت نفسه أنه لا يتمتع برؤيته ، وانفجر بالبكاء ، وقبل أن يندلع نور الفجر غلبـه النوم فرأى جده الرسول (ص) قد اقبل في كتيبة من الملائكة فضم الحسين الى صدره وقبل ما بين عينيه ، وهو يقول له :

« يا بني كأنك عن قريب اراك مقتولاً مذبوحاً بارض كرب وبلاء ، بين عصابة من امتي ، وانت مع ذلك عطشان لا تسقى ، وظمآن

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٦ – ٢٧ :

لا تروى ، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة ، فما لهم عنــد الله من خلاق .

حبيبي يا حسين إن أباك وأمك وأخاك قد قدموا علي ، وهم إليك مشتاقون ان لك في الجنة درجات لن تنالها إلا بالشهادة . . » .

وجعل الحسين يطيل النظر إلى جده (ص) ويذكر عطفه وحنانه عليه فازداد وجيبه ، وتمثلت أمامه المحن الكبرى التي يعانيها من الحكم الأموي فهو اما ان يبايع فاجر بني أمية أويقتل ، وأخذ يتوسل الى جده ويتضرع اليه قائلا :

« يا جداه لا حاجة لي في الرجوع الى الدنيــا ، فخذني إليك ، وادخلني معك الى منزلك » .

والتاع النبي (ص) فقال له :

« لابد لك من الرجوع الى الدنيا ، حتى ترزق الشهادة ، وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم فانك ، واباك ، وأخاك ، وعمك ، وعم أبيك تحشرون يوم القيامة ، في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة » (١) .

واستيقظ الحسين فزعا مرعوباً قد المت به تيارات من الأسى والأحزان وصار على يقين لا يخامره أدنى شك انه لابد أن يرزق الشهادة ، وجمع أهل بيته فقص عليهم رؤياه الحزينة ، فطافت بهم الآلام ، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم ، ووصف المؤرخون شدة حزنهم ، بأنه لم يكن في ذلك اليوم لا في شرق الأرض ولا في غربها أشد غماً من أهل بيت رسول الله (ص) ولا أكثر باكية وباك منهم (٢) .

(١) الفتوح ٥ / ٢٨ - ٢٩ .

(٢) مقتل العوالم (ص ٥٤) .

وداعه لقبر امه وأخيه :

وتوجه الحسين في غلس الليل البهيم الى قبر امه وديعة النبي (ص) وبضعته ، ووقف امام قبرها الشريف ملياً ، وهو يلقي عليه نظرات الوداع الأخير ، وقد تمثلت امامه عواطفها الفياضة ، وشدة حنوها عليه ، وقد ودّ أن تنشق الأرض لتواريه معها ، وانفجر بالبكاء ، وودع القبر وداعاً حاراً ، ثم انصرف الى قبر أخيه الزكي أبي محمد ، فاخذ يروّي ثرى القبر من دموع عينيه ، وقد ألمت به الآلام والأحزان ، ثم رجع إلى منزله ، وهو غارق بالأسى والشجون (١) .

فزع الهاشميات :

ولما عزم الامام على مغادرة يثرب واللجوء الى مكة اجتمعن السيدات من نساء بني عبد المطلب ، وقد جاشت عواطفهن بالأسى والحزن ! فقد تواترت عليهن الأنباء عن رسول الله (ص) عن مقتل ولده الحسين ، وجعلن ينحن ، وتعالت أصواتهن بالبكاء ، وكان منظراً مفزعاً ، وانبرى إليهن الحسين ، وهو رابط الجأش فقال لهن :

« انشدكن الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله » .

فذابت نفوسهن ، وصحن :

« لمن نستبقي النياحة والبكاء ، فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلي وفاطمة والحسن . . . جعلنا الله فداك ياحبيب الأبرار . . . » .

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٩ .

واقبلت عليه بعض عماته ، وهي شاحبة اللون ، فقالت بنبرات منقطعة بالبكاء لقد سمعت هاتفاً يقول :

وان قتيل الطف من آل هاشم اذل رقابا من قريش فذلت

وجعــل الامام (ع) يهدأ أعصابها ، ويأمرها بالخلود الى الصبر ، كما أمر سائر السيدات من بني عبد المطلب بذلك (١) .

مع أخيه ابن الحنفية :

وفزع محمد بن الحنفية الى الحسين ، فجاء يتعثر في خطاه ، وهو لا يبصر طريقه من شــدة الحزن والأسى ، ولما استقر به المجلس اقبل على الحسين قال له بنبرات مشفوعة بالاخلاص والحنو عليه .

« يا أخي فدتك نفسي ، أنت أحب الناس إلي ، وأعزهم علي ، ولست والله أدخر النصيحة لأحد من الخلق ، وليس أحد أحق بها منك فانك كنفسي وروحي ، وكبير أهل بيتي ، ومن عليه اعتمادي ، وطاعته في عنقي لأن الله تبارك وتعالى قــد شرفك وجعلك من سادات أهل الجنة واني اريد أن اشير عليك برأيي فاقبله مني . . » .

لقد عبر محمد بهذا الحديث الرقيق عن عواطفه الفياضة المترعة بالولاء والاكبار لأخيه ، واقبل عليه الامام فقال له محمد :

« اشير عليك أن تتنح ببيعتك عن يزيد بن معــاوية وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث برسلك الى الناس ، فان بايعوك حمدت الله على ذلك وان اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ، ولا عقلك ، ولم تذهب مروءتك ، ولا فضلك ، واني اخاف عليك أن تدخــل مصراً من هذه

(١) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٤٨) .

الامصار فيختلف الناس بينهم فطائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلون ، فتكون لأول الأسنة غرضا ، فاذا خير هذه الأمـــة كلها نفساً وأبا وأما أضيعها دماً واذلها اهلا . . . » .

وبادر الامام الحسين فقال له :

« اين أذهب ؟ » .

« تنزل مكة فان اطمأنت بك الدار ، والا لحقت بالرمال ، وشعب الجبال وخرجت من بلد الى آخر حتى ننظر ما يصير إليـــه أمر الناس ، فانك اصوب ما تكون رأياً واحزمهم عملا ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ولا تكون الأمور أبداً اشكل عليك منها حتى تستدبرها استدباراً » (١) .

وانطلق الامام وهو غير حافل بالأحداث ، فاخبره عن عزمه وتصميمه الكامل على رفض البيعة ليزيد قائلا :

« يا أخي لو لم يكن في الدنيـــا ملجأ ولا مأوى لمـــا بايعت يزيد ابن معاوية » .

وانفجر ابن الحنفية بالبكاء ، فقد أيقن بالرزء القاصم ، واستشف ماذا سيجري على أخيـــه من الرزايا والخطوب ، وشكر الامام نصيحته وقال له :

« يا أخي : جزاك الله خيراً لقـــد نصحت ، وأشرت بالصواب ، وأنا عازم على الخروج الى مكة ، وقد تهيأت لذلك أنا واخوتي وبنو أخي وشيعتي أمرهم أمري ، ورأيهم رأيي ، وأمـــا أنت فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عينا لا تخف عني شيئاً من امورهم » (٢) :

---

(١) تأريخ الطبري ٦ / ١٩١ .

(٢) الفتوح ٥ / ٣٢ .

وصيته لابن الحنفية :

وعهد الامام بوصيته الخالدة إلى أخيه ابن الحنفية ، وقد تحدث فيها عن أسباب ثورته الكبرى على حكومة يزيد وقد جاء فيها بعد البسملة :

« هذا ما أوصى به الحسين بن علي الى أخيه محمد بن الحنفية ، ان الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده ، وان الجنة حق ، والنار حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور .

واني لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا مفسداً ، ولا ظالماً ، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي (ص) أريد أن آمر بالمعروف وانهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ، فمن قبلني بقبول الحق ، فالله اولى بالحق ، ومن رد علي اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين .

« وهذه وصيتي إليك يا أخي ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » (١) .

من أجل هذه الأهداف النبيلة فجر الامام ثورته الخالدة فهو لم يخرج اشراً ولا بطراً ، ولم يبغ أي مصلحة مادية له أو لأسرته ، وانما خرج على حكم الظلم والطغيان ، يريد أن يقيم صروح العدل بين الناس ، وما أروع قوله :

« فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين » .

لقد حدد الامام خروجه بانه كان من أجل احقاق الحق واماتة الباطل

(١) الفتوح ٥ / ٣٣ مقتل الخوارزمي ١ / ١٨٨ .

ودعا الأمة باسم الحق الى الالتفاف حوله لتحمي حقوقها وتصون كرامتها وعزتها التي انهارت على أيدي الأمويين ، واذا لم تستجب لنصرته فسيواصل وحده مسيرته النضالية بصبر وثبات في مناجزة الظالمين والمعتدين حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين . . . كما حدد الامام خروجه بأنه يريد أن يسير على منهاج جده وأبيه ، وليس على منهج أي أحـــد من الخلفاء .

وهـــذه الوصية من البنود التي نرجع إليها في دراستنا عن اسباب ثورته (ع) :

وتهيأ الامام بعد وصيته لأخيه محمد الى السفر الى مكة ليلتقي بحجاج بيت الله الحرام وغيرهم ، ويعرض عليهم الأوضاع الراهنة في البـــلاد ، وما تعانيه الأمة من الأزمات والأخطار في عهد يزيد .

وقبل أن يغادر الامام (ع) يثرب متجهاً الى مكة دخل مسجد جده الرسول (ص) وهو غارق في الأسى والشجون فألقى عليه نظرة الوداع الأخير ، وقد نظر الى محراب جده (ص) ومنبره ، فطافت به ذكريات ذلك العطف الذي كان يفيضه عليه جـــده (ص) حينما كان في غضون الصبا ، فلم ينس الحسين في جميع فترات حياته ذلك الحنان الذي اغدقه عليه جده حينما يقول فيه :

« حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحبه حسيناً ، حسين سبط من الأسباط . . » :

وتذكر كيف كان النبي (ص) يفرغ عليه ما انطوت عليـــه نفسه الكبيرة من المثل العليا التي كان بها خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وأيقن انه لم يكن يشيع ذلك في نفسه بمحض العاطفة بل بشعور آخر هو الابقاء على رسالته ، ومبادئه ، ورأى انه لابد أن يقدم التضحية الرهيبة التي تصون

رسالة الاسلام من عبث الناقمين عليه ... ويقول المؤرخون : انه دخل المسجد بين أهل بيتـه ، وهو يعتمد في مشيه على رجلين ويتمثل بقول يزيد بن مفرغ :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح مغـيرا ولا دعيت يزيـدا
يوم أعطى من المهـانة ضيما والمنايا ترصدنني أن أحيـدا (١)

ويقول أبو سعيد : لما سمعت هـذين البيتين قلت في نفسي : انه تمثل بهما الا لشيء يريده فما مكث الا قليـلا حتى بلغني أنه سار الى مكة (٢) لقد صمم على التضحية والفداء ليغير مجرى الحياة ، ويرفع كلمة الله وفكرة الخير في الأرض .

أما يثرب مهد النبوة فانه حينما اذيع فيها مغادرة الحسين عنها علتها الكآبة وخيم على أهلها الحزن والذعر فقـد أيقنوا بالخسارة الفادحة التي ستحل بهم ، فسيغيب عنهم قبس من نور الرسالة الذي كان يضيء لهم الحياة ، وحزنت البقية الباقيـة من صحابة النبي (ص) كاعظم ما يكون الحزن ، فقد كانوا يرون في الحسين امتداداً لجده الرسول (ص) الذي انقذهم من حياة التيه في الصحراء .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٥ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٣٢٩ ، تاريخ الطبري .

الثورة الحسينية

اسبابها ومخططاتها



ولم يفجر الامام الحسين (ع) ثورته الكبرى أشراً ، ولا بطراً ، ولا ظالماً ، ولا مفسداً — حسب ما يقول — وانما انطلق ليؤسس معالم الاصلاح في البلاد ، ويحقق العدل الاجتماعي بين الناس ، ويقضي على أسباب النكسة الأليمة التي مني بها المسلمون في ظل الحكم الأموي الذي الحق بهم الهزيمة والعار .

لقد انطلق الامام ليصحح الأوضاع الراهنة في البلاد ، ويعيد للأمة ما فقدته من مقوماتها وذاتياتها ، ويعيد لشرايينها الحياة الكريمة التي تملك بها ارادتها وحريتها في مسيرتها النضالية لقيادة أمم العالم في ظل حكم متوازن تذاب فيه الفوارق الاجتماعية ، وتقام الحياة على أسس صلبة من المحبة والاخاء ، انه حكم الله خالق الكون وواهب الحياة ، لا حكم معاوية الذي قاد مركبة حكومته على اماتة وعي الانسان ، وشل حركاته الفكرية والاجتماعية .

لقد فجر الامام (ع) ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأولي الألباب ، فاضاء بها الطريق ، وأوضح بها القصد ، واثار بها الفكر ، فانهارت بها السدود والحواجز التي وضعها الحكم الأموي امام التطور الشامل الذي يريده الاسلام لأبنائه ، فلم يعد بعد الثورة أي ظل للسلبيات الرهيبة التي أقامها الحكم الأموي على مسرح الحياة الاسلامية ، فقد انتفضت الامة — بعد مقتل الامام — كالمارد الجبار وهي تسخر من الحياة ، وتستهزأ بالموت ، وتزج بابنائها في ثورات متلاحقة حتى اطاحت بالحكم الأموي ، واكتسحت معالم زهوه .

ولم يقدم الامام على الثورة إلا بعد ان انسدت امامه جميع الوسائل وانقطع كل أمل له في اصلاح الأمة ، وانقاذها من السلوك في المنعطفات فايقن انه لا طريق للاصلاح إلا بالتضحية الحمراء ، فهي وحدها التي

تتغير بها الحياة ، وترتفع راية الحق عالية في الأرض .
وفيما اعتقد ان أهم ما يتطلبه القراء لأمثال هذه البحوث الوقوف على أسباب الثورة الحسينية ومخططاتها ، وفيما يلي ذلك .

أسباب الثورة :

واحاطت بالامام (ع) عـــدة من المسؤوليات الدينية والواجبات الاجتماعية وغيرها ، فحفزته الى الثورة ، ودفعته الى التضحية والفداء وهذه بعضها .

١ ـ المسؤولية الدينية :

واعلن الاسلام المسؤوليـــة الكبرى على كل مسلم عما يحدث في بلاد المسلمين من الأحـــداث والأزمات التي تتنافى مع دينهم ، وتتجافى مع مصالحهم ، فانه ليس من الاســـلام في شيء أن يقف المسلم موقفاً يتسم بالميوعة واللامبالات أمام الهزات التي تدهم الأمة وتدمر مصالحها ، وقد أعلن الرسول (ص) هذه المسؤولية ، يقول (ص) : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » فالمسلم مسؤول أمام الله عن رعاية مجتمعه ، والسهر على صالح بلاده ، والدفاع عن أمته
وعلى ضوء هذه المسؤولية الكبرى ناهض الامـــام جور الأمويين ، وناجز مخططاتهم الهادفة الى استعباد الأمـــة واذلالها ، ونهب ثرواتها ، وقد أدلى (ع) بما يحتمه الاسلام عليه من الجهاد لحكم الطاغية يزيد ، امام الحر وأصحابه قال (ع) :

« أيها الناس : إن رسول الله (ص) قال : « من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالأثم والعدوان ، فلم يغير عليه بقول ولا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله » .

لقد كان الواجب الديني يحتم عليه القيام بوجه الحكم الأموي الذي استحل حرمات الله ، ونكث عهوده وخالف سنة رسول الله (ص) ، وقد صرح جماعة من علمـاء المسلمين بان الواجب الديني كان يقضي على الامام أن ينطلق في ميادين الجهاد دفاعا عن الاسلام ، وفيما يلي بعضهم .

١ – الامام محمد عبده

والمع الامام محمد عبده في حديثـه عن الحكومة العادلة والجائرة في الاسلام إلى خروج الامام على حكومة يزيد ، ووصفه بأنه كان واجباً شرعيا عليه ، قال : « اذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع ، وحكومة جائرة تعطله ، وجب على كل مسلم نصر الأولى ، وخذل الثانية . . . ومن هذا الباب خروج الامـام الحسين (ع) سبط الرسول (ص) على امام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمنكر يزيد بن معاوية خذله الله ، وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب » (١) .

٢ – محمد عبد الباقي

وتحـدث الأستاذ محمد عبد الباقي سرور عن المسؤولية الدينيـة والاجتماعية اللتين تحتمان على الامام القيام بمناهضة حكم يزيد قال :

(١) تفسير المنار ١ / ٣٦٧ ، و ١٢ / ١٨٣ و ١٨٥ :

« لو بايع الحسين يزيد الفاسق المستهتر ، الذي اباح الخمر والزنا وحط بكرامة الخلافة الى مجالسة الغانيات ، وعقد حلقات الشراب في مجالس الحكم ، والذي البس الكلاب والقرود خلاخل من ذهب ، ومئات الالوف من المسلمين صرعى الجوع ، والحرمان .

لو بايع الحسين يزيد أن يكون خليفة لرسول الله (ص) على هذا الوضع لكانت فتيا من الحسين باباحة هـــذا للمسلمين ، وكان سكوته هذا أيضاً رضى ، والرضا من ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت اثم وجريمة في حكم الشريعة الاسلامية . . والحسين بوضعه الراهن في عهد يزيد هو الشخصية المسؤولة في الجزيرة العربية بل في البلاد الاسلامية كافة عن حماية التراث الاسلامي لمكانته في المسلمين ، ولقرابته من رسول رب العالمين ، ولكونه بعد موت كبار المسلمين كان أعظم المسلمين في ذلك الوقت علماً وزهداً وحسبا ومكانة . فعلى هـــذا الوضع أحس بالمسؤولية تناديه وتطلبه لايقاف المنكرات عند حدها ، ولاسيا ان الذي يضع هذه المنكرات ويشجع عليها هو الجالس في مقعد رسول الله (ص) هذا أولا :

وثانياً : انه (ع) جاءته المبايعات بالخـــلافة من جزيرة العرب ، وجاءه ثلاثون الفاً من الخطابات من ثلاثين الف من العراقيين من سكان البصرة والكوفة يطلبون فيها منه الشخوص لمشاركتهم في محاربة يزيد بن معاوية ، وألحوا تكرار هذه الخطابات حتى قال رئيسهم عبد الله بن الحصين الأزدي : يا حسين سنشكوك الى الله تعالى يوم القيامة اذا لم تلب طلبنا ، وتقوم بنجدة الاسلام ، وكيف والحسين ذو حمية دينية ونخوة اسلامية ، والمفاسد تترى أمام عينيه ، كيف لايقوم بتلبية النداء ، وعلى هذا الوضع لبى النداء ، كما تأمر به الشريعة الاسلامية ، وتوجه نحو العراق » (١) .

(١) الثائر الأول في الاسلام (ص ٧٩) .

وهذا الرأي وثيق للغاية فقد شفع بالأدلة الشرعية التي حملت الإمام مسؤولية الجهاد والخروج على حكم طاغية زمانه :

٣ ـ عبد الحفيظ أبو السعود

يقول الاستاذ عبد الحفيظ أبو السعود : « ورأى الحسين أنه مطالب الآن ـ يعني بعد هلاك معاوية ـ أن يعلن رفضه لهذه البيعة ، وان يأخذ البيعة لنفسه من المسلمين ، وهذا اقـل ما يجب حفاظاً لأمر الله ، ورفعاً للظلم ، وابعاداً لهذا العابث يعني يزيد ـ عن ذلك المنصب الجليل » (١)

٤ . الدكتور احمد محمود صبحي

وممن صرح بهذه المسؤولية الدينية الدكتور احمد محمود صبحي قال : « ففي اقدام الحسين على بيعة يزيد انحراف عن أصل من اصول الدين من حيث أن السياسة الدينية للمسلمين لا ترى في ولاية العهد وراثة الملك إلا بدعة هرقلية دخيلة على الاسلام ، ومن حيث أن اختيار شخص يزيد مع ما عرف عنه من سوء السيرة ، وميله الى اللهو وشرب الخمر ، ومنادمة القرود ليتولى منصب الخلافة عن رسول الله (ص) اكبر وزر يحل بالنظام السياسي للاسلام . يتحمل وزره كل من شارك فيه ورضي عنه ، فما بالك اذا كان المقدم على ذلك هو ابن بنت رسول الله .

كان خروج الحسين اذاً أمراً يتصل بالدعوة والعقيدة اكثر مما يتصل بالسياسة والحرب » (٢) .

---

(١) سبط الرسول (ص ١٣٣) .

(٢) نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية (ص ٣٣٤) .

• ـ العلائلي

يقول العلائلي : « وهناك واجب على الخليفة اذا تجاوزه وجب على الأمة اسقاطه ، ووجبت على الناس الثورة عليه وهو المبالغة باحترام القانون الذي يخضع له الناس عامة ، والا فأي تظاهر بخلافه يكون تلاعباً وعبثاً ، ومن ثم وجب على رجل القانون أن يكون اكثر تظاهراً باحترام القانون من أي شخص آخر ، واكبر مسؤولية من هذه الناحية ، فاذا فسق الملك ثم جاهر بفسقه وتحدى الله ورسوله والمؤمنين لم يكن الخضوع له إلا خضوعاً للفسق وخضوعاً للفحشاء والمنكر ، ولم يكن الاطمئنان إليه الا اطمئناناً للتلاعب والمعالنة الفاسقة .

هذا هو المعنى التحليلي لقوله (ع) : « ويزيد رجل فاسق ، شارب للخمر وقاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق » (١) .

هذه بعض الآراء التي أدلى بها جماعة من العلماء في الزام الامام شرعاً بالخروج على حكم الطاغية يزيد ، وانه ليس له أن يقف موقفاً سلبياً أمام ما يقترفه يزيد من الظلم والجور .

٢ ـ المسؤولية الاجتماعية :

وكان الامام (ع) بحكم مركزه الاجتماعي مسؤولا أمام الأمة عما منيت به من الظلم والاضطهاد من قبل الأمويين ، ومن هو أولى بحمايتها ورد الاعتداء عنها غيره فهو سبط رسول الله (ص) وريحانته ، والدين دين جده ، والأمة أمة جده ، وهو المسؤول بالدرجة الأولى عن رعايتهما .

(١) الامام الحسين (ص ٩٤) .

لقــد رأى الامام أنه مسؤول عن هذه الأمة ، وانه لا يجدي بأي حال في تغيير الأوضاع الاجتماعية التزام جانب الصمت ، وعدم الوثوب في وجــه الحكم الأموي المليء بالجور والآثام ، فنهض (ع) باعباء هــذه المسؤولية الكبرى ، وأدى رسالته بأمانة واخلاص ، وضحى بنفسه وأهل بيته وأصحابه ليعيد على مسرح الحياة عدالة الاسلام وحكم القرآن .

٣ ـ اقامة الحجة عليه :

وقامت الحجة على الامام لاعــلان الجهاد ، ومناجزة قوى البغي والالحاد ، فقــد تواترت عليه الرسائل والوفود من أقوى حامية عسكرية في الاسلام ، وهي الكوفة فكانت رسائل أهلها تحمله المسؤولية أمام الله إن لم يستجب لدعواتهم الملحــة لانقاذهم من عسف الأمويين وبغيهم ، ومن الطبيعي أنه لو لم يجبهم لكان مسؤولا أمام الله ، وأمام الأمــة في جميع مراحل التأريخ ، وتكون الحجة قائمة عليه .

٤ ـ حماية الاسلام :

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها حفيد الرسول (ص) حماية الاسلام من خطر الحكم الأموي الذي جهد على محو سطوره ، وقلع جذوره واقبار قيمه ، فقد أعلن يزيد وهو على دست الخــلافة الاسلامية الكفر والالحاد بقوله :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جــاء ولا وحي نزل

وكشف هــذا الشعر عن العقيدة الجاهلية التي كان يدين بها يزيد فهو لم يؤمن بوحي ولا كتاب ، ولا جنــة ولا نار ، وقد رأى السبط أنه ان لم يثأر لحماية الدين فسوف يجهز عليــه حفيد أبي سفيان ويجعله أثراً بعد عين ، فثار (ع) ثورته الـكبرى التي فدى بها دين الله ، فكان دمه الزاكي المعطر بشذى الرسالة ، هو البلسم لهذا الدين ، فان من المؤكد أنه لولا تضحيته لم يبق للاسلام اسم ولا رسم ، وصار الدين دين الجاهلية ودين الدعارة والفسوق ، ولذهبت سدى جميع جهود النبي (ص) وما كان ينشده للناس من خير وهدى ، وقد نظر النبي (ص) من وراء الغيب واستشف مستقبل امته ، فرأى بعين اليقين ، ما تمنى به الأمــة من الانحراف عن الدين ، وما يصيبها من الفتن والخطوب على أيدي أغيلمــة من قريش ، ورأى أن الذي يقوم بحماية الاســلام هو الحسين (ع) فقال (ص) كلمتــه الخالدة : « حسين مني وأنا من حسين » فكان النبي (ص) حقا من الحسين لأن تضحيته كانت وقاية للقران ، وسيبقى دمه الزكي يروي شجرة الاسلام على ممر الاحقاب والآباد .

٥ ـ صيانة الخلافة :

ومن الم الأسباب التي ثار من أجلها الامام الحسين (ع) تطهير الخلافة الاسلامية من أرجاس الأمويين الذين نزوا عليها بغير حق . . فلم تعد الخلافة ـ في عهدهم كما يريدها الاسلام ـ وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس ، والقضاء على جميع أسباب التخلف والفساد في الأرض .

لقد اهتم الاسلام اهتماماً بالغاً بشأن الخلافة باعتبارها القاعدة الصلبة لاشاعة الحق والعــدل بين الناس ، فاذا صلحت نعمت الأمة بأسرها ،

واذا انحرفت عن واجباتها فان الأمة تصاب بتدهور سريع في جميع مقوماتها الفكرية والاجتماعية . . . ومن ثم فقد عنى الاسلام في شأنها أشد ما تكون العناية ، فالزم من يتصدى لهـــا بان تتوفر فيه النزعات الخيرة والصفات الشريفة من العـــدالة والأمانة ، والخبرة بما تحتاج إليه الأمـــة في مجالاتها الاقتصادية والادارية والسياسية ، وحرم على من فقـــد هذه الصفات أن يرشح نفسه للخلافة . . وقد تحدث (ع) في أولى رسائله الى أهل الكوفة عن الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح نفسه الى امامة المسلمين وادارة شؤونهم قال (ع) :

« فلعمري ما الامام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله » (١) .

فمن تحلى بهذه الصفات كان له الحق في تقديم نفسه لامامة المسلمين وخلافتهم ، ومن لم يتصف بها فلا حق له في التصدي لهذا المركز الخطير الذي كان يشغله الرسول (ص) . . . ان الخلافة الاسلامية ليست مجرد سلطة زمنية على الأمـــة ، وانما هي نيابة عن الرسول (ص) وامتداد ذاتي لحكومته المشرقة .

وقد رأى الامام الحسين أن مركز جده قد صار الى سكير مستهتر لا يعي الا شهواته ورغباته ، فثار (ع) ليعيد للخلافة الاسلامية كيانها المشرق وماضيها الزاهر .

---

(١) الطبري ٦ / ١٩٧ .

٦ ـ تحرير ارادة الأمة :

ولم تملك الأمة في عهد معاوية ويزيد ارادتها واختيارها فقد كانت جثة هامدة لا وعي فيها ولا اختيار ، قــد كبلت بقيود ثقيلة سدت في وجهها منافذ النور والوعي ، وحيل بينها وبين ارادتها .

لقد عمل الحـكم الأموي على تخدير المسلمين وشل تفكيرهم ، وكانت قلوبهم مع الامام الحسين ، الا انهم لا يتمكنون من متابعة قلوبهم وضمائرهم فقد استولت عليها حكومة الأمويين بالقهر ، فلم يملكوا من أمرهم شيئاً ، فلا ارادة لهم ولا اختيار ، ولا عزم ولا تصميم فاصبحوا كالأنصاب لا وعي فيهم ولا حراك ، قــد قبعوا أذلاء « صاغرين تحت وطـأة سياط الأمويين وبطشهم » .

لقــد هب الامام الى ساحات الجهاد والفداء ليطعم المسلمين بروح العزة والكرامــة ، فكان مقتله نقطة تحول في تأريخ المسلمين وحياتهم ، فانقلبوا رأساً على عقب ، فتسلحوا بقوة العزم والتصميم ، وتحرروا من جميع السلبيات التي كانت ملمة بهم ، وانقلبت مفاهيم الخوف والخنوع التي كانت جاثمة عليهم الى مبادىء الثورة والنضال ، فهبوا متضامنين في ثورات مكثفة ، وكان شعارهم (يالثارات الحسين) فكان هذا الشعار هو الصرخة المدوية التي دكت عروش الأمويين وازالت سلطانهم .

٧ ـ تحرير اقتصاد الأمة :

وانهار اقتصاد الأمــة الذي هو شرايين حياتها الاجتماعية والفردية فقد عمد الأمويون بشكل سافر الى نهب الخزينة المركزية والاستئثار بالفيء

وسائر ثمرات الفتوح والغنائم ، فحازوا الثراء العريض ، وتكدست في بيوتهم الأموال الهائلة التي حاروا في صرفها ، وقد اعلن معاوية امام المسلمين ان المال مال الله ، وليس مال المسلمين فهو أحق به ، ويقول سعيد بن العاص : انما السواد بستان قريش ، وقـد أخذوا ينفقون الأموال على اغراضهم السياسية التي لا تمت بصلة لصالح الأمة . أما مواد انفاقهم البارزة فهي :

أ ـ شراء الضمائر والأديان ، وقـد تقدمت الشواهد المؤيدة لذلك عند البحث عن سياسة معاوية الاقتصادية .

ب ـ الانفاق على لجان الوضع لافتعال الأخبار التي تدعم الكيان الأموي وتحط من قيمة أهل البيت ، وقد المعنا الى ذلك بصورة مفصلة .

ج ـ الهبات الهائلة والعطايا الوافرة للوجوه والأشراف لكم افواههم عما تقترفه السلطة من الظلم للرعية .

د ـ الصرف على المجون والدعارة ، فقـد امتلئت بيوتهم بالمغنين والمغنيات وادوات العزف وسائر المنكرات .

هذه بعض الموارد التي كان ينفق عليها الأموال ، في حين أن الجوع قد نهش الأمة وعمت فيها المجاعة ، وانتشر شبح الفقر في جميع الأقطار الاسلامية سوى الشام فقد رفه عليها لأنها الحصن المنيع الذي كان يحمي جور الأمويين وظلمهم .

وقد ثار الامام الحسين (ع) ليحمي اقتصاد الأمة ويعيد توازن حياتها المعاشية ، وقد صادر أموالا من الخراج كانت قـد ارسلت لمعاوية ، كما صادر اموالا اخرى ارسلت من اليمن الى خزينة دمشق في أيام يزيد ، وقد انفقها على الفقراء والمعوزين ، وكان (ع) اكثر ما يعاني من الآلام هو انه يرى الفقر قد أخذ بخناق المواطنين ، ولم ينفق شيء من بيت المال على انعاش حياتهم .

٨ ـ المظالم الاجتماعية :

وانتشرت المظالم الاجتماعية في انحاء البلاد الاسلامية ، فلم يعد قطر من الأقطار إلا وهو يعج بالظلم والاضطهاد من جورهم ، وكان من مظاهر ذلك الظلم ما يلي :

١ ـ فقد الأمن

وانعدم الأمن في جميع أنحاء البلاد ، وساد الخوف والأرهاب على جميع المواطنين ، فقد أسرفت السلطة الأموية بالظلم ، فجعلت تأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، وتعاقب على الظنة والتهمة ، وتسوق الابرياء بغير حساب الى السجون والقبور ، وكان الناس في عهد زياد يقولون : « انج سعد فقد هلك سعيد » ولا يوجد أحد الا وهو خائف على دمه ، وماله ، فثار الامام الحسين (ع) لينقذ الناس من هذا الجور الهائل .

٢ ـ احتقار الأمة

وكان الخط السياسي الذي انتهجه الأمويون العمل على اذلال الأمة والاستهانة بها وكان من مظاهر ذلك الاحتقار الهم كانوا يختمون في اعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم كما نقشوا على اكف المسلمين علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة (١) وقد هب الامام (ع) في ميادين الجهـاد ليفتح للمسلمين أبواب العزة والكرامة ، ويحطم عنهم ذلك الكابوس المظلم الذي احال حياتهم الى ظـلام قاتم لا بصيص فيه من النور .

(١) تأريخ التمدن الاسلامي .

٩ ـ المظالم الهائلة على الشيعة :

وذهبت نفس الامـــام الحسين أسى على ما عانته الشيعة — في عهد معاوية ـ من ضروب المحن والبلاء ، فقد أمعن معاوية في ظلمهم وارهاقهم وفتك بهم فتكا ذريعاً ، وراح يقول للامـــام الحسين : « يا أبا عبد الله علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم » (١) وقد بذل قصاري جهوده في تصفية الحساب معهم ، وقد ذكرنا عرضا مفصلا لما عانوه في عهد معاوية وخلاصته .

١ — اعدام اعلامهم كحجر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي وصيفي بن فسيل وغيرهم :

٢ — صلبهم على جذوع النخل

٣ — دفنهم أحياءاً

٤ ـ هدم دورهم

٥ — عدم قبول شهادتهم

٦ — حرمانهم من العطاء

٧ — ترويع السيدات من نسائهم

٨ ـ اذاعة الذعر والخوف في جميع أوساطهم

إلى غير ذلك من صنوف الارهاق الذي عانوه ، وقـــد ذعر الامام الحسين (ع) مما حل بهم ، فبعث بمذكرته الخطيرة لمعاوية التي سجل فيها جرائم ما ارتكبه في حق الشيعة ، وقـــد ذكرناها في البحث عن حكومة معاوية .

---

(١) تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٦ .

لقـــد كانت الاجراءات القاسية التي اتخذها الحـــكم الأموى ضـد الشيعة من اسباب ثورته فهب لانقاذهم من واقعهم المرير ، وحمايتهم من الجور والظلم .

١٠ ـ محو ذكر اهل البيت :

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها أبوالشهداء (ع) هو ان الحكم الأموي قد جهد على محو ذكر أهل البيت (ع) واستئصال مآثرهم ومناقبهم وقد استخدم معاوية في هذا السبيل أخبث الوسائل وهي :

١ – افتعال الأخبار في الحط من شأنهم

٢ – استخدام أجهزة التربية والتعليم لتربية النشيء على بغضهم

٣ – معاقبة من يذكر مناقبهم بأقصى العقوبات

٤ – سبهم على المنابر والمآذن وخطب الجمعة

وقد عقد الأمام الحسين (ع) مؤتمره السياسي الكبير في مكة المكرمة وأحاط المسلمين علمـــا بالاجراءات الخطيرة التي اتخذها معاوية إلى ازالة أهل البيت عن الرصيد الاسلامي . . . وكان (ع) يتحرق شوقاً إلى الجهاد ، ويود أن الموت قد وافاه ولا يسمع سب أبيه على المنابر والمآذن :

١١ ـ تدمير القيم الاسلامية :

وعمد الأمويون إلى تدمير القيم الاسلامية ، فلم يعدلها اي ظل على واقع الحياة الاسلامية وهذه بعضها :

أ - الوحدة الاسلامية

وأشاع الأمويون الفرقة والاختلاف بين المسلمين فأحيوا العصبيات القبلية ، وشجعوا الهجاء بين الأسر والقبائل العربيـــة حتى لا تقوم وحدة بين المسلمين ، وقـــد شجع يزيد الأخطل على هجاء الأنصار الذين آووا النبي (ص) وحاموا عن دينه أيام غربة الاسلام ومحنته :

لقد كانت الظاهرة البارزة في شعر ذلك العصر هي الهجاء المقذع فقد قصر الشعراء مواهبهم الأدبية على الهجاء والتفنن في أساليب القذف والسب للأسر التي كانت تنافس قبائلهم ، وقد خلى الشعر الأموي عن كل نزعة انسانية أو مقصد اجتماعي ، وتفرد بظاهرة الهجاء ، وقد خولفت بذلك ما كان ينشده الاسلام من الوحدة الشاملة بين أبنائه .

ب - المساواة

وهدم الأمويون المساواة العادلة التي أعلنها الاسلام ، فقدموا العرب على الموالي واشاعوا جواً رهيباً من التوتر والتكتل السياسي بين المسلمين ، وكان من جراء ذلك أن ألّف الموالي مجموعة من الكتب في نقص العرب وذمهم ، كما ألّف العرب كتباً في نقص الموالي واحتقارهم ، وعلى رأس القائمة التي اثارت هذا النحو من التوتر بين المسلمين زياد بن أبيه فقد كان حاقداً على العرب ، وقد عهد الى الكتاب بانتقاصهم .

وقـــد خالفت هذه السياسة النكراء روح الاسلام الذي ساوى بين المسلمين في جميع الحقوق والواجبات على اختلاف قومياتهم .

ج ـ الحرية

ولم يعد أي مفهوم للحرية ماثلاً على مسرح الحياة طيلة الحكم الأموي فقــد كانت السلطة تحاسب الشعب حساباً منكراً وعسيراً على كل بادرة لا تتفق مع رغباتها ، حتى لم يعد في مقدور أي أحد أن يطالب بحقوقه ، أو يتكلم بأي مصلحة للناس فقد كان حــكم النطع والسيف هو السائد في ذلك العصر .

لقد ثار أبو الأحرار لينقذ الانسان المسلم وغيره من الاضطهاد الشامل ويعيد للناس حقوقهم التي ضاعت في أيام معاوية ويزيد .

١٢ ـ انهيار المجتمع :

وانهار المجتمع في عصر الأمويين ، وتحلل من جميع القيم الاسلامية أما أهم العوامل التي أدت إلى انهياره فهي :

١ ـ حرمان المجتمع من التربية الروحية فلم يحفل بها أحــد من الخلفاء سوى الامام أمير المؤمنين (ع) فقــد عنى بها عناية بالغة إلا انه قد مني بالأحداث الرهيبة التي منعته من مواصلة مسيرته في اصلاح الناس وتقويم اخلاقهم .

٢ ـ امعان الحكم الأموي في افساد المجتمع وتضليله ، وتغذيته بكل ما هو بعيد عن واقع الاسلام وهديه :

ان هذين العاملين ـ فيما نحسب ـ من أهم العوامل التي أدت على الى انهيار ذلك المجتمع :: اما مظاهر ذلك التحلل والانهيار فهي :

١ – نقض العهود

ولم يتأثم أغلب أبناء ذلك المجتمع من نقض العهود والمواثيق ، فقد كان عدم الوفاء بها أمراً عادياً ، ومتسالماً عليه ، وقد شجعهم على ذلك (كسرى العرب) ، فقد أعلن في خطابه بالنخيلة ان كل ما شرطه على نفسه للامام الحسن لا يفي به ، وعمد الى نقض جميع الشروط التي أعطاها له . . وكانت هذه الظاهرة من ابرز ذاتيات الكوفيين ، فقد اعطوا للامام الحسين أعظم العهود والمواثيق على مناصرته ، ومناجزة عدوه إلا انهم خاسوا ما عاهدوا عليه الله فخذلوه وقتلوه .

٢ – عدم التحرج من الكذب

ومن الأمراض التي أصيب بها ذلك المجتمع عدم التحرج من الكذب وقد مُني الكوفيون بذلك بصورة خاصة ، فانهم لما أحاطوا بالامام الحسين (ع) – يوم الطف – لقتله ، وجه (ع) سؤالا الى قادة الفرق الذين كاتبوه بالقدوم اليهم فقال :

« يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن ابجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا زيد بن الحرث ، ألم تكتبوا إلي أن قد اينعت الثمار ، واخضر الجناب وانما تقدم على جند لك مجندة . . » ؟

ولم تخجل تلك النفوس القذرة من تعمد الكذب فأجابوه مجمعين :

« لم نفعل »

وبهر الامام فاندفع يقول :

« سبحان الله ! ! بلى والله لقد فعلتم . . » .

وقـد جروا الى المجتمع بما اقترفوه من الآثام كثيراً من الويلات والخطوب ، وتسلح بهم أئمة الظلم والجور الى اضطهاد المسلمين وارغامهم على ما يكرهون .

٣ ـ عرض الضمائر للبيع

وقد كان من أحط ما وصل إليه ذلك المجتمع من الانحراف والزيغ عرض الضمائر والأديان لبيعها على السلطة جهاراً ، وقـد المعنا الى ذلك بصورة مفصلة عند البحث عن عهد معاوية .

٤ ـ الاقبال على اللهو

وأقبل المجتمع بنهم على اللهو والدعارة ، وقد شجع الأمويون بصورة مباشرة حياة المجون لزعزعة العقيدة الدينية من النفوس ، وصرف الناس عما ينشده الاسلام من التوازن في سلوك الفرد .

هذه بعض الأمراض التي المت بالمجتمع الاسلامي ، وقد أدت إلى تسيبه ، وانهيار قيمه وقد ثار الامام الحسين (ع) ليقضي على التذبذب والانحراف الذي منيت به الأمة .

١٣ ـ الدفاع عن حقوقه :

وانبرى الامـام الحسين (ع) للجهاد دفاعاً عن حقوقه التي نهبها الأمويون واغتصبوها ، وأهمها ـ فيما نحسب ـ ما يلي :

١ – الخلافة

وآمن الامام الحسين (ع) - كأبيه – أن العترة الطاهرة أولى بمقام رسول الله (ص) وأحق بمركزه من غيرهم ، لأنهم أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ، بهم فتح الله ، وبهم ختم – على حد تعبيره – وقد طبع على هذا الشعور وهو في غضون الصبا ، فقد انطلق الى عمر وكان على منبر رسول الله (ص) فصاح به .

« انزل عن منبر أبي ، واذهب الى منبر أبيك » .

ولم ينفرد الامام الحسين بهذا الشعور وانما كان سائداً عند أئمة أهل البيت عليهم السلام فهم يرون أن الخلافة من حقوقهم لأنهم ألصق الناس برسول الله (ص) واكثرهم وعيا لأهدافه . . وهناك شيء آخر جدير بالاهتمام وهو ان الحسين (ع) كان هو الخليفة الشرعي بمقتضى معاهدة الصلح التي تم الاتفاق عليها ، فقد جاء في بنودها ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر الى أحد من بعده والأمر بعده للحسن ، فان حدث به حدث فالأمر للحسين » (١) وعلى هذا ، فلم تكن بيعة يزيد شرعية ، فلم يخرج الامام الحسين (ع) على امام من أئمة المسلمين – كما يذهب لذلك بعض ذوي النزعات الأموية وانما خرج (ع) على ظالم مغتصب لحقه .

٢ – الخمس

والخمس حق مفروض لأهل البيت (ع) نص عليه القرآن وتواترت به السنة ، ولكن الحكومات السابقة تناهبته فلم تؤد لهم منه شيئاً لشل حركة المقاومة عند العلويين ، وقد أشار الامام الحسين (ع) الى ذلك في

---

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ٢٨٨ الطبعة الثانية .

حديثه مع أبي هرة الذي نهاه عن الخروج على بني أمية ، فقال (ع) له :
« ويحك أبا هرة ان بني أمية أخذوا مالي فصبرت » .
واكبر الظن ان المال الذي أخذته بنو أمية منه هوالخمس ، وقد أعلن ذلك دعبل الخزاعي في رائعته التي انشدها أمام الرضا (ع) في خراسان بقوله :

أرى فيئهم في غيرهم متقسما وايديهم من فيئهم صفرات

والتاع الامام الرضا (ع) فجعل يقلب يديه وهو يقول :
« انها — والله — لصفرات » وقد أقض مضاجع العلويين منعهم من الخمس باعتباره أحد المصادر الرئيسية لحياتهم الاقتصادية .
ولعل الامام الحسين قد استهدف بنهضته ارجاع هذا الحق السليب لأهل البيت (ع) .

١٤ ـ الأمر بالمعروف :

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها أبي الضيم (ع) اقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فانها من مقومات هذا الدين ، والامام بالدرجة الأولى مسؤول عنها . وقد أدلى (ع) بذلك في وصيته لأخيه ابن الحنفية التي اعلن فيها عن اسباب خروجه على يزيد ، فقال (ع) « اني لم اخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولاظالما ، ولا مفسداً ، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر » .
لقد انطلق (ع) الى ميادين الجهاد ليقيم هذا الصرح الشامخ الذي بنيت عليه الحياة الكريمة في الاسلام ، وقد انهارت دعائمه أيام الحكم الأموي فقد أصبح المعروف في عهدهم منكراً ، والمنكر معروفاً ، وقد

انكر عليهم الامـــام في كثير من المواقف ، والتي كان منها خطابه الرائع امام المهاجرين والأنصار ، فقد شجب فيـه تخاذلهم عن نصرة الحـــق ودحض الباطل ، وايثارهم للعافية ، وقـــد ذكرناه في الحلقة الأولى من هذا الكتاب :

ومما قاله (ع) في هذا المجال امام اصحابه واهل بيته يوم الطف :
« الا ترون الى الحق لا يعمل به ، وإلى الباطل لا يتناهى عنـــه ليرغب المؤمن في لقاء ربه ، لقد آثر الموت على الحياة ، لأنه يرى الحق قد تلاشى والباطل قد استشرى .

١٥ ـ اماتة البدع :

وعمد الحكم الأموي الى نشر البدع بين المسلمين ، التي لم يقصد منها إلا محق الاسلام ، والحاق الهزيمة به ، وقد اشار الامام (ع) إلى ذلك في رسالته التي بعثها لأهل البصرة يقول (ع) : « فان السنة قـــد اميتت والبدعة قد احييت » (١) .

لقـــد ثار (ع) ليقضي على البدع الجاهلية التي تبناها الأمويون ، ويحيي سنة جده التي اماتوها ، فكانت نهضته الخالدة من اجل اماتة الجاهلية ونشر راية الاسلام .

---

(١) الطبري ٦ / ٢٠٠ .

١٦ ـ العهد النبوي :

واستشف النبي (ص) من وراء الغيب مايمنى به الاسلام من الأخطار الماثلة على أيدي الأمويين ، وانه لا يمكن بأي حال تجديد رسالته وتخليد مبادئه إلا بتضحية ولده الامام الحسين (ع) فانه هو الذي يكون الدرع الواقي لصيانة الاسلام فعهد إليه بالتضحية والفداء ، وقـد أدلى الحسين بذلك حينما عذله المشفقون عليه من الخروج الى العراق فقال (ع) لهم :

« أمرني رسول الله (ص) بأمر وأنا ماض إليه . . » .

ويقول المؤرخون : ان النبي (ص) كان قد نعى الحسين الى المسلمين وأحاطهم علماً بشهادته ومايعانيه من أهوال المصائب ، وكان ـ باستمرار ـ يتفجع عليه ويلعن قاتله ، وكذلك أخبر الامام أمير المؤمنين (ع) بشهادته وما يجرى عليه ، وقـد ذكرنا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب الأخبار المتواترة بذلك . . وكان الامام الحسين (ع) على علم وثيق بما يجرى عليه فقد سمع ذلك من جده وأبيه وقد أيقن بالشهادة ، ولم يكن له أي أمل في الحياة فمشى إلى الموت بعزم وتصميم امتثالا لأمر جده الذي عهد إليه بذلك :

١٧ ـ العزة والكرامة :

ومن أوثق الأسباب التي ثار من أجلها ابوالأحرار هو العزة والكرامة فقد أراد الأمويون ارغامه على الذل ، والخنوع ، فأبى إلا أن يعيش عزيزاً تحت ظلال السيوف والرماح ، وقـد أعلن سلام الله عليـه ذلك يوم الطف بقوله :

« الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ،

وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله ، ونفوس أبية ، وانوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام . . » .

وقال (ع) :

« لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما . . » ٥

لقد عانق الموت بثغر باسم في سبيل ابائه وعزته ، وضحى بكل شيء من أجل حريته وكرامته .

١٨ ـ غدر الأمويين وفتكهم :

وايقن الامــام الحسين (ع) ان الأمويين لا يتركونه ، ولا تكف أيديهم عن الغدر والفتك به حتى لو سالمهم وبايعهم ، وذلك لما يلي :

١ ـ ان الامام كان ألمع شخصية في العالم الاسلامي ، وقد عقد له المسلمون في دخائل نفوسهم خالص الود والولاء لأنه حفيد نبيهم وسيد شباب أهل الجنــة ، ومن الطبيعي انه لا يروق للأمويين وجود شخصية تتمتع بنفوذ قوي ، ومكانة مرموقة في جميع الأوساط فانها تشكل خطراً على سلطانهم وملكهم .

٢ ـ ان الأمويين كانوا حاقــدين على النبي (ص) لأنه وترهم في واقعة بدر ، وألحق بهم الهزيمة والعار ، وكان يزيد يترقب الفرص للانتقام من أهــل بيت النبي (ص) ليأخذ ثارات بدر منهم ، ويقول الرواة إنه كان يقول :

لست من خندف إن لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعــل

ولما استوفى ثأره وروى احقاده بابادتهم أخذ يترنم ويقول :

قد قتلنا القوم من ساداتهم ... وعدلناه ببــدر فاعتدل

٣ - ان الأمويين قد عرفوا بالغدر ونقض العهود ، فقد صالح الحسن معاوية ، وسلم إليه الخلافة ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدس إليه سماً فقتله ، واعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به .. وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم .

وقد اعلن الامام الحسين (ع) ان بني أمية لا يتركونه يقول (ع) لأخيه محمد بن الحنفية : « لو دخلت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني » وقال (ع) لجعفر بن سليمان الضبعي : « والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة - يعني قلبه الشريف - من جوفي » .

واختار (ع) أن يعلن عليهم الحرب ويموت ميتة كريمة تهز عروشهم وتقضي على جبروتهم وطغيانهم .

هذه بعض الأسباب التي حفزت أبا الأحرار إلى الثورة على حكم يزيد

رأي رخيص :

ووصفت جماعة من المتعصبين لبني أمية خروج الامام على يزيد بأنه كان من اجل الملك والظفر بخيرات البلاد ، وهذا الرأي ينم عن حقدهم على الامام بما احرزه من الانتصارات الرائعة في نهضته المباركة التي لم يظفر بمثل معطياتها أي مصلح اجتماعي في الأرض ، وقد يكون لبعضهم العذر لجهلهم بواقع النهضة الحسينية ، وعدم الوقوف على اسبابها ، لقد كان الامام على يقين باخفاق ثورته في الميادين العسكرية ، لأن خصمه كان يدعمه جند مكثف أولو قوة وأولو بأس شديد ، وهو لم تكن عنده أية قوة عسكرية ليحصل على الملك ، ولو كان الملك غايته - كما يقولون - لعاد

إلى الحجاز او مكان آخر حينما بلغه مقتل سفيره مسلم بن عقيل ، وانقلاب الكوفه عليه ، ويعمل حينئذ من جديد على ضمان غايته ، ونجاح مهمته لقد كان الامام على علم بأن الأوضاع السائدة كلها كانت في صالح بني امية وليس منها مما يدعمه او يعود لصالحه ، يقول ابن خلدون : « ان هزيمة الحسين كانت امراً محتماً لأن الحسين لم تكن له الشوكـــة التي تمكنه من هزيمة الأمويين لأن عصبية مضر في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف في بني امية ، فعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس لا ينكرونه » (١) .

لقد كانت ثورة الامام من اجل غاية لايفكر بها اولئك الذين فقدوا وعيهم ، واختيارهم فقد كان خروجه على حكم يزيد من اجل حماية المثل الاسلامية والقيم الكريمة من الأمويين الذين حملوا عليها معول الهدم . . يقول بعض الكتاب المعاصرين .

« ويحق لنا أن نسأل ما ذا كان هدف الحسين عليه السلام ، وماذا كانت القضية التي يعمل من اجلهـــا ؟ أمـــا لو كان هـــدفه شخصياً يتمثل في رغبته في اسقاط يزيد ليتولى هو بنفسه الخلافة التي كان يطمح إليها ، ما وجدنا فيه هذا الاصرار على التقدم نحو الكوفة رغم وضوح تفرق الناس من حوله ، واستسلامهم لابن زياد ، وحملهم السلاح في اعداد كثيرة لمواجهته والقضاء عليه .

ان أقصر الناس نظراً كان يدرك ان مصيره لن يختلف عما آل إليه فعله ، ولو كان الحسين بهذه المكانة من قصر النظر لعاد إلى مكة ليعمل من جديد للوصول إلى منصب الخلافة . . ولو كان هدفه في أول الأمر الوصول الى منصب الخلافة ثم لما بلغه مصرع ابن عمه قرر مواصلة السفر للثأر

(١) المقدمة (ص ١٥٢) .

من قاتليه – كما يزعم بعض الباحثين – استجابة لقضية اهله واقاربه ، لو كان هذا هدفه لأدرك ان جماعته التي خرجت معه للثأر وهي لا تزيد على التسعين رجالاً ونساءاً واطفالاً ان تصل إلى شيء من ذلك من دون ان يقضى على افرادها جميعاً ، وبغير ان يضحي هو بنفسه ضحية رخيصة في ميدان الثأر . ومن ثم يكون من واجبـــه للثأر ان يرجع ليعيد تجميع صفوف انصاره واقربائه ، ويتقدم في الجمع العظيم من الغاصبين والموتورين .

فالقضية اذاً ليست قضية ثأر والهدف ليس هـــدفا شخصياً ، وانما الأمر أمر الأمة ، والقضية كانت للحق ، والاقدام اقدام الفدائي الذي أراد أن يضرب المثل بنفسه في البذل والتضحية ، ولم يكن اصرار الحسين على التقدم نحو الكوفة بعـــد ما علم من تخاذل أهلها ولكوصهم عن الجهاد إلا ليجعل من استشهاده علماً تلتف حوله القلة التي كانت لا تزال تؤمن بالمثل وتلتمس في القادة من ينير لها طريق الجد في الكفاح . . وتحريكا لضمائر المتخاذلين القاعدين عن صيانة حقوقهم ورعاية صوالحهم » .

والمّ هذا القول بالواقع المشرق الذي ناضل من أجله الامام الحسين فهو لم يستهدف أي مصلحة ذاتية ، وانما استهدف مصلحة الآمة وصيانتها من الأمويين .

تخطيط الثورة :

ودرس الامام الحسين (ع) أبعاد الثورة بعمق وشمول ، وخطط أساليبها بوعي وايمان ، فرأى أن يزج بجميع ثقله في المعركـــة ، ويضحي بكل شيء لانقاذ الأمة من محنتها فى ظل ذلك الحـــكم الأسود الذي تنكر لجميع متطلبات الأمة . . وقد أدرك المستشرق الألماني ماربين تخطيط الامام

الحسين لثورته ، فاعتبر أن الحسين قـد توخى النصر منذ اللحظة الأولى ، وعلم النصر فيـه ، فحركة الحسين في خروجه على يزيد – كما يقول – انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان ، وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة :

لقد أيقن ابو الشهداء (ع) ان القضية الاسلامية لا يمكن أن تنتصر إلا بفخامة ما يقدمه من التضحيات فصمم بعزم وايمان على تقـديم أروع التضحيات وهذه بعضها :

١ – التضحية بنفسه :

واعلن الامام (ع) عن عزمه على التضحية بنفسه ، فاذاع ذلك في مكة فأخبر المسلمين ان أوصاله سوف تتقطع بين النواويس وكربلا ، وكان في أثناء مسيرته الى العراق يتحدث عن مصرعه ، ويشابه بينه وبين أخيه يحيى بن زكريا وان رأسه الشريف سوف يرفع إلى بغي من بغايا بني أمية كما رفع رأس يحيى إلى بغي من بغايا بني اسرائيل .

لقد صمم على الموت واستهان بالحياة من أجل أن ترتفع راية الحق وتعلو كلمة الله في الأرض وبقي صامداً على عزمه الجبار فلم يرتهب حينما أحاطت به الجيوش الهائلة وهي تبيد أهل بيته وأصحابه في مجزرة رهيبة اهتز من هولها الضمير الانساني ، وقد كان في تلك المحنة الحازبة من أربط الناس جأشا ، وأمضاهم جنانا ، فلم ير قبله ولا بعده شبيها له في شدة بأسه وقوة عزيمته ، كما لا يعرف التأريخ في جميع مراحلـه تضحية أبلغ أثراً في

حياة الناس من تضحيته عليه السلام فقــد بقيت صرخة مدوية في وجوه الظالمين والمستبدين :

٢ - التضحية بأهل بيته :

وأقــدم أبو الشهداء (ع) على أعظم تضحية لم يقدمها أي مصلح اجتماعي في الأرض ، فقد قدم أبناءه وأهل بيته وأصحابه فداءاً لما يرتأيه ضميره من تعميم العدل واشاعة الحق والخير بين الناس .

وقــد خطط هذه التضحية ، وآمن بأنها جزء من رسالته الكبرى ، وقد أذاع ذلك وهو في يثرب حينما خفت إليه السيدة أم سلمة زوج النبي تعذله عن الخروج ، فأخبرها عن قتله وقتل أطفاله . . وقــد مضى إلى ساحات الجهاد وهو متسلح بهذا الايمان ، فكان يشاهد الصفوة من أصحابه الذين هم من أنبل من عرفتهم الانسانية في ولائهم للحق ، وهم يتسابقون إلى المنية بين يديه ، ويرى الكواكب من أهــل بيته وأبنائه ، وهم في غضارة العمر وريعان الشباب ، وقد تناهبت أشلاءهم السيوف والرماح ، فكان يامرهم بالثبات والخلود إلى الصبر قائلا :

« صبراً يا بني عمومتي ، صبراً يا أهل بيتي لا رأيتم هوانا بعد هذا اليوم أبداً ! ! » .

واهتزت الدنيا من هول هذه التضحية التي تمثل شرف العقيدة ، وسمو القصد وعظمة المبادىء التي ناضل من أجلها ، وهي — من دون شك — ستبقى قائمة على ممر القرون والأجيال ، تضيء للناس الطريق ، وتمدهم بأروع الدروس عن التضحية في سبيل الحق والواجب .

٣ ـ التضحية بأمواله :

وضحى أبي الضيم بجميع ما يملك فداءاً للقرآن ، ووقاية لدين الله ، وقد هجمت ـ بعد مقتله ـ الوحوش الكاسرة من جيوش الأمويين على مخيمه فتناهبوا ثقله ومتاعه حتى لم يتركوا ملحفة او ازاراً على مخدرات الرسالة الا نهبوه ، ومثلوا بذلك خسة الانسان حينما يفقـد ذاتياته ، ويمسخ ضميره .

٤ ـ حمل عقائل النبوة :

وكان من اروع ما خططه الامـام العظيم (ع) في ثورته الكبرى حمله لعقائل النبوة ومخدرات الرسالة الى كربلاء ، وهو يعلم ما سيجري عليهن من النكبات والخطوب ، وقد اعلن ذلك حينما عذله ابن عباس عن حملهن معه الى العراق ، فقال له :

« قد شاء الله ان يراهن سبايا . . . » .

لقـد اراد (ع) بذلك ان يستكمل اداء رسالته الخالدة في تحرير الأمة وانقاذها من الاستعباد الأموي . . وقـد قمن تلك السيدات بدور مشرق في اكمال نهضة أبي الشهداء (ع) فأيقظن المجتمع بعـد سباته ، وأسقطن هيبة الحكم الأموي ، وفتحن باب الثورة عليه ، ولولاهن لم يتمكن أحد أن يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر ، وقـد أدرك ذلك كل من تأمل في نهضة الامام ودرس ابعادها ، وقد ألمع إليها بعض العلماء والكتاب ، وفيما يلي بعضهم :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ـ الامام كاشف الغطاء

وأكد الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله في كثير من مؤلفاته أن الغاية من خروج الامـــام بعائلته الى كربلا اكمالا لنهضته وبلوغاً إلى هدفه في تحطيم دولة الأمويين يقول : « وهل تشك وترتاب في أن الحسين (ع) لو قتل هو وولده ، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات للذهب قتله جباراً ، ولم يطلب به أحد ثاراً ولضاع دمه هدراً ، فكان الحسين يعـــلم أن هـــذا عمل لابد منه ، وأنه لايقوم به إلا تلك العقائل فوجب عليه حتما أن يحملهن معه لا لأجل المظلومية بسببهن فقط ، بل لنظر سياسي وفكر عميق ، وهو تكميل الغرض ، وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد ، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الاسلام وتعود الناس الى جاهليتها الأولى . . » (١) .

٢ ـ أحمد فهمي

يقول الاستاذ السيد أحمد فهمي : « وقد أدرك الحسين أنه مقتول إذ هو يعلم علم اليقين قبح طوية يزيد ، واسفاف نحيزته ، وسوء سريرته فيزيد بعـــد قتل الحسين ستمتد يده الى أن يؤذي النبي (ص) في سلالته من قتل الأطفال الأبرياء ، وانتهاك حرمة النساء ، وحملهن ومن بقي من الأطفال من قفرة الى قفرة ومن بلد الى بلد ، فيثير مرأى اولئك حفيظة المسلمين ، فليس ثمـــة اشنع ، ولا أفظع من التشفي والانتقام من النساء والأطفال بعد قتل الشباب والرجال فهو بخروجه بتلك الحالة أراد أن يثأر

---

(١) تحدث الامام كاشف الغطاء عن هذه الجهة بالتفصيل في كتابه السياسة الحسينية .

من يزيد في خلافته ، ويقتله في كرامته ، وحقاً لقد وقع ما توقعه ، فكان لما فعله يزيد وعصبته من فظيع الأثر في نفوس المسلمين ، وزاد في اضعانهم ما عرضوا به سلالة النبوة من هتك خـدر النساء ، وهن اللاتي ما عُرفن إلا بالصيانة والطهر والعز والمنعة ، مما اطلق السنة الشعراء بالهجاء والذم ، ونفر أكثر المسلمين من خلافة الأمويين ، واسخط عليهم قلوب المؤمنين ، فقد قتله الحسين أشد من قتله إياه » (١) .

٣ ـ أحمد محمود صبحي

يقول الدكتور احمد محمود صبحي : « ثم رفض ـ يعني الحسين ـ إلا أن يصحب أهله ليشهد الناس على ما يقترفه اعداؤه بما لا يبرره دين ولا وازع من انسانية ، فلا تضيع قضيته مع دمه المراق في الصحراء فيفترى عليه أشد الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على كل ما جرى بينـه وبين أعدائه ، تقول الدكتورة بنت الشاطىء : افسدت زينب أخت الحسين على ابن زياد وبني أميـة لذة النصر ، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين وان كل الأحداث السياسية التي ترتبت بعـد ذلك من خروج المختار وثورة ابن الزبير وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ثم تأصل مذهب الشيعة انما كانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته (٢) .

أريد أن أقول ما ذا يكون الحال لو قتل الحسين ومن معه جميعاً من الرجال الا أن يسجل التأريخ هذه الحادثة الخطيرة من وجهة نظر أعدائه

---

(١) ريحانة الرسول (ص ١٦٧) .

(٢) بطلة كربلا (ص ١٧٦ و ١٨٠) .

فيضيع كل اثر لقضيته مع دمه المسفوك في الصحراء . . » (١) :

هذه بعض الآراء التي تدعم ما ذكرناه من أن خروج الحسين (ع) بعائلته لم يكن الغرض منه إلا بلورة الرأي العام ، وايضاح المقاصد الرفيعة التي ثار من أجلها ومن أهمها القضاء على دولة الأمويين التي كانت تشكل خطراً مباشراً على العقيدة الاسلامية وهناك رأي آخر أدلى به العلامة المغفور له الشيخ عبد الواحـــد المظفر ، وهو ان الحسين الما خرج بعائلته خوفاً عليها من اعتقال الأمويين وزجها في سجونهم قال : « الحسين لو أبقى النساء في المدينة لوضعت السلطة الأموية عليها الحجر ، لا بل اعتقلتها علنا وزجتها في ظلمات السجون ، ولابد له حينئذ من أحد أمرين خطيرين كل منها يشل أعضاء نهضته المقدسة !

اما الاستسلام لأعدائه واعطاء صفقته لهم طائعاً ليستنقذ العائلة المصونة وهذا خلاف الاصلاح الذي ينشده ، وفرض على نفسه القيام به مهما كلفه الأمر من الأخطار ، أو يمضي في سبيل احياء دعوته ، ويترك المخدرات اللواتي ضرب عليهن الوحي ستراً من العظمة والاجلال ، وهذا مالا تطيق احتماله نفس الحسين الغيور ولا يردع امية رادع من الحياء ، ولا يزجرها زاجر من الاسلام .

ان امية لا يهمها اقتراف الشائن في بلوغ مقاصدها ، وادراك غاياتها فتتوصل الى غرضها ولو بارتكاب أقبح المنكرات الدينية والعقلية .

ألم يطرق سمعك سجن الأمويين لزوجة عمرو بن الحمق الخزاعي ، وزوجة عبيد الله بن الحر الجعفي واخيراً زوجة الكميت الاسدي » (٢) .

---

(١) نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية (ص ٣٤٣) .

(٢) توضيح الغامض من اسرار السنن والفرائض (ص ٢٩٧ — ٢٩٨) .

وعلى أي حال فقــد حطم الامــام بخروجه لعائلته جميع مخططات السياسة الأموية ونسف جميع ما أقامه معاوية من معالم الظلم ، فقــد قمن عقائل الوحي بدور فعال ببث الوعي الاجتماعي ، وتعريف المجتمع بواقع الأمويين وتجريدهم من الاطار الديني ، ولولاهن لاندرست معــالم ثورة الحسين ، وذهبت ادراج الرياح .

إن من ألمع الأسباب في استمرار خلود مأساة الامام الحسين (ع) واستمرار فعالياتها في بث الاصلاح الاجتماعي على امتداد التأريخ هو حمل ودائع الرسالة وعقائل الوحي مع الامام فقد قمن بدور مشرق ببلورة الرأي العام . فحملن راية الايمان التي حملها الامام العظيم ، ونشرن مبادءه العليا التي استشهد من أجلها ، فقد انبرت حفيدة الرسول (ص) وشقيقة الحسين السيدة زينب بنت اميرالمؤمنين (ع) الى ساحات الجهاد ، وهي تدك حصون الظالمين ، وتدمر جميع ما احرزوه من الانتصارات في قتل اخيها ، وتلحق بهم الهزيمة والعار ، وتملأ بيوتهم مأساة وحزناً .

لقد اقبلت قائدة المسيرة الحسينية عقيلة الوحي زينب (ع) الى ساحة المعركــة وهي تشق صفوف الجيش تفتش عن جثمان اخيها الامام العظيم فلما وقفت عليــه شخصت لها ابصار الجيش ، واستحال الى سمع فماذا تقول أمام هذه الخطوب المذهلة التي تواكبت عليها ؟ انها وقفت عليه غير مدهوشة لم تذهلهــا الرزايا التي تميد منها الجبال ، فشخصت ببصرها الى السماء ؟ وهي تقول بحماسة الايمان وحرارة العقيدة قائلة :

« اللهم تقبل منا هذا القربان » .

واطلقت بذلك أول شرارة للثورة على الحكم الأموي بعد أخيها ، وود الجيش أن تسيخ به الأرض فقد استبان له عظم ما اقترفه من الاثم وانه قد أباد

عناصر الاسلام ، ومراكز الوعي والايمان .

ولما اقتربت سبايا اهل البيت (ع) الى الكوفة خرجت الجماهير الحاشدة لاستقبال السبايا فخطبت فيهم عقيلة الوحي خطاباً مثيراً ومذهلا واذا بالناس حيارى لا يعون ولا يدرون قد استحالت بيوتهم إلى مآتم وهم يندبون حظهم التعيس ويبكون على ما اقترفوه من الجرم ، وحينما انتهت الى دار الامارة استقبلها الطاغية متشفياً بأحط واخس ما يكون التشفي قائلا :

« كيف رأيت صنع الله بأخيك ؟ » .

وانطلقت عقيلة بني هاشم ببسالة وصمود فأجابته بكلمات النصر والظفر قائلة :

« مارأيت إلا جميلا هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا بن مرجانة » .

واخزت هذه الكلمات ابن مرجانه فكانت اشق عليه من ضرب السيوف وطعن الرماح ، ولما انتهت إلى الشام هزت العرش الأموي بخطابها المثير الرائع ، وحققت بذلك من النصر مالم تحققه الجيوش ... لقد كان حمل الامام الحسين لعائلته قائماً على أساس من الوعي العميق الذي احرز به الفتح والنصر .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض اسباب الثورة الحسينية ومخططاتها .


في مكة



وبعدما اعلن الامام الحسين (ع) رفضه الكامل لبيعة يزيد اتجه مع اهل بيته إلى مكة التي هي حرم الله ، وحرم رسوله ، عائذاً ببيتها الحرام الذي فرض فيه تعالى الأمن والطمأنينة لجميع العباد .

لقد اتجه إلى هذا البلد الأمين ليكون بمأمن من شرور الأمويين واعتداءاتهم ، ويقول المؤرخون : إنه خرج ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة (٦٠ هـ) (١) وقد خيم الذعر على المدنيين حينما رأوا آل النبي (ص) ينزحون عنهم إلى غير مآب .

وفصل الركب من يثرب ، وهو جاد في مسيرته ، وكان الامام (ع) يتلو قوله تعالى :

« رب نجني من القوم الظالمين »

لقد شبه خروجه بخروج موسى على فرعون زمانه ، وكذلك قد خرج على طاغية زمانه فرعون هذه الأمة ليقيم الحق ، ويبني صروح العدل وسلك الطريق العام الذي يسلكه الناس من دون أن يتجنب عنه ، واشار عليه بعض اصحابه ان يحيد عنه – كما فعل ابن الزبير – مخافة أن يدركه الطلب من السلطة في يثرب ، فأجابه عليه السلام بكل بساطة وثقة في النفس قائلا :

(لا والله لا فارقت هذا الطريق ابداً او انظر إلى ابيات مكة ، أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى . » .

لقد رضي بكل قضاء يبرمه الله ، ولم يضعف ، ولم توهن عزيمته الأحداث الهائلة التي لا يطيقها اي انسان ، وكان يتمثل في اثناء مسيرته

---

(١) خطط المقريزي ٢ / ٢٨٥ ، المنتظم لابن الجوزي ، الافادة في تأريخ الأئمة السادةوفي الفتوح ٥ / ٣٤ انه خرج لثلاث ليال مضين من شعبان .

بشعر يزيد بن المفرغ :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح   مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم اعطي مخافة الموت ضيماً   والمنايا ترصدنني أن احيدا (١)

لقد كان على ثقة ان المنايا ترصده ما دام مصمماً على عزمه الجبار في أن يعيش عزيزاً لا يضام ولا يذل ولايخضع لحكم يزيد .. ويقول بعض الرواة انه كان في مسيرته ينشد هذه الأبيات :

اذا المرء لم يحم بنيه وعرسه   ونسوته كان اللئيم المسببا
وفي دون ما يبغي يزيد بنا غداً   نخوض حياض الموت شرقا ومغربا
ونضرب كالحريق مقدما   اذا ما رآه ضيغم راح هاربا

ودل هذا الشعر على مدى عزمه على أن يخوض حياض الموت سواء أكانت في المشرق أم في المغرب ولا يبايع يزيد بن معاوية ؟

مع عبد الله بن مطيع :

واستقبله في أثناء الطريق عبد الله بن مطيع العدوي ، فقال له :

ـ أين تريد أبا عبد الله ، جعلني الله فداك ؟

ـ اما في وقتي هذا أريد مكة ، فاذا صرت إليها استخرت الله في أمري بعد ذلك .

ـ خار الله لك ، يا ابن بنت رسول الله فيما قد عزمت عليه ، اني أشير عليك بمشورة فاقبلها مني .

ـ ما هي ؟

(١) تأريخ الطبري .

ـ اذا أتيت مكة فاحذر أن يغرك أهل الكوفة ، فبها قُتل أبوك واخوك طعنوه بطعنة كادت أن تأتي على نفسه ، فالزم الحرم فانك سيد العرب في دهرك » فو الله لئن هلكت ليهلكن اهل بيتك بهلاكك » .
وشكره الامام وودعه ودعا له بخير (١) وسار موكب الامام يجد السير لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى مكة فلما نظر الامام إلى جبالها تلا قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » (٢) .

---

(١) المنتظم لأبن الجوزي الجزء الخامس ، الفتوح ٥ / ٣٤ وجاء في تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٥٥ ان الحسين مر بابن مطيع وهو يحفر بئراً ، فقال له : إلى اين فداك أبي وأمي ، فقال له : أردت مكة ، وذكر له كتب أهل الكوفة إليه ، فقال ابن مطيع : فداك ابي وامي متعنا بنفسك ولا تسر إليهم ، فأبى الحسين ثم قال له ابن مطيع : إن بئري هذه قد رسحتها وهذا اليوم أوان تمامها قد خرج إلينا في الدلو شيء من مائها ، فلو دعوت الله لنا فيها بالبركة ، فقال (ع) : هات من مائها فأتاه منه فشرب منه ، وتمضمض ورده في البئر فعذب ماؤها ، وجاء في وسيلة المآل في عد مناقب الآل (ص ١٨٥) لصفي الدين : ان عبد الله لقي الحسين فقال له : جعلت فداك أين تريد ؟ فقال : أما الآن فمكة ، وأما بعدها فأستخير الله ، فقال : خار الله لك وجعلنا فداك الزم الحرم فانك سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز احداً ، وتتداعى إليك الناس من كل جانب ، لاتفارق الحرم فداك عمي وخالي ، فوالله ان هلكت المسترقن بعدك .

(٢) الفتوح ٥ / ٣٧ .

لقد كانت هجرته إلى مكة كهجرة موسى إلى مدين ، فكل منهما قد فر من فرعون زمانه ، وهاجر لمقاومة الظلم ومناهضة الطغيان .

في مكة :

وانتهى الامام إلى مكة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شعبان (١) وقد حط رحله في دار العباس بن عبد المطلب (٢) وقد استقبل استقبالا حافلا من المكيين ، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية ، وهم يسألونه عن أحكام دينهم ، واحاديث نبيهم ، يقول ابن كثير : « وعكف الناس بمكة يفدون إليه ، ويجلسون حواليه ، ويستمعون كلامه ، وينتفعون بما يسمعون منه ، ويضبطون ما يروون عنه » (٣) لقد كان بجاذبيته الروحية مهوى القلوب ، وندي الأفئدة ، وقد حامت حوله النفوس تروي غليلها من نمير علومه التي هي امتداد من علوم جده مفجر العلم والنور في الأرض .

احتفاء الحجاج والمعتمرين به :

وأخذ القادمون إلى بيت الله من الحجاج والمعتمرين من سائر الآفاق يختلفون إليه (٤) ويهتفون بالدعوة إليه ، ويطوفون حوله ، هذا يلتمس

(١) المنتظم لابن الجوزي ، الافادة في تأريخ الأئمة السادة .

(٢) تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ ، وفي الأخبار الطوال (ص ٢٠٩) انه نزل في شعب علي .

(٣) البداية والنهاية

(٤) الفصول المهمة لابن الصباغ (١٧٠) وسيلة المآل في عد مناقب الآل (١٨٥) .

منه العلم والحديث ، وذاك يقتبس منه الحكم النافعة ، والكلم الجامعة ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة (١) ولم يترك الامام ثانية من وقته تمر دون أن يبث الوعي الاجتماعي ، ويدعو الى اليقظة والحذر من السياسة الأموية الهادفة إلى استعباد المسلمين واذلالهم .

فزع ابن الزبير :

وكان ابن الزبير لاجئاً الى مكة فراراً من البيعة ليزيد ، وقد ثقل عليه اختلاف الناس على الامام الحسين (ع) واجماعهم على تعظيمه وتبجيله وزهد الناس وانصرافهم عنه لأنه لم يكن يتمتع بصفة محبوبة ، ولا بنزعة كريمة ، يقول زيد بن علي الجذعاني : « وكانت فيه خلال لا تصلح معها الخلافة لأنه كان بخيلا ضيق العطن (٢) سيء الخلق ، حسوداً كثير الخلاف أخرج محمد بن الحنفية ، ونفى عبد الله بن عباس الى الطائف » (٣) ومن مظاهر ذاتياته الشح والبخل ، وفيه يقول الشاعر :

رأيت أبا بكر وربك غالب على أمره يبغي الخلافة بالتمر (٤)

وقد عانى الشعب في أيام حكمه القصير الجوع والحرمان ، كما عانت الموالي التي بالغت في نصرته أشد ألوان الضيق ، وقد عبر شاعرهم عن خيبة أملهم في نصرته يقول :

---

(١) نهضة الحسين (ص ٧٣) .

(٢) العطن : مبرك الابل ، ومربض الغنم :

(٣) فوات الوفيات ١ / ٤٤٨ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (ص ٧٦) .

إن الموالي أمست وهي عاتبـــة على الخليفة تشكو الجوع والسغبا
ماذا علينـــا وماذا كان يرزؤنا أي الملوك على من حولنا غلبا (١)

واظهر ابن الزبير النسك والطاعـــة والتقشف تصنعا لصيد البسطاء والغراء السذج ، وقد وصفه الامام امير المؤمنين (ع) بقوله : « ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا » (٢) .

ومن المؤكد أنه لم يكن يبغي في خروجه على سلطان بني أمية وجه الله وانما كان يبغي الملك والسلطان ، وقد أدلى بذلك عبد الله بن عمر حينما ألحت عليه زوجته في مبايعته ، وذكرت له طاعته وتقواه فقال لها :

« أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهباء ؟ فان ابن الزبير ما يريد غيرهن » (٣) .

وعلى أي حال فان ابن الزبير لم يكن شيء اثقل عليه من أمر الحسين لعلمه بأنه لا يبايعه احد مع وجود الحسين (ع) لأنه ابن رسول الله (ص) فليس على وجه الأرض أحد يساميه ولايساويه – كما يقول ابن كثير – (٤) واكد ذلك (اوكلي) قال : ان ابن الزبير كان مقتنعاً تماماً بأن كل جهوده ستضيع عبثاً طالما بقي الحسين على قيد الحياة ، ولـكن اذا أصابه مكروه فان طريق الخلافة سيكون ممهداً له .

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٢٢ .
(٢) شرح النهج ٧ / ٢٤ .
(٣) المختار (ص ٩٥) .
(٤) البداية والنهاية ١٥٠/٨ وجاء في وسيلة المآل (ص ١٨٥) وقد ثقلت وطأة الحسين على ابن الزبير لأن اهـــل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بالبلد ، ولا يتهيأ له ما يطلب منهم مع وجود الحسين .

وكان يشير على الامام بالخروج إلى العراق للتخلص منه ، ويقول له : « ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك ؟ فو الله لو أن لي مثلهم ما توجهت إلا إليهم » (١) :

ولم يمنح ابن الزبير النصيحة للامام ، ولم يخلص له في الرأي ، وانما أراد أن يستريح منه ، ولم تخف على الامام دوافعه ، فراح يقول لأصحابه :

« إن هذا — وأشار إلى ابن الزبير — ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن اخرج من الحجاز وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي فود أني خرجت حتى يخلو له » (٢) .

ولم تحفل السلطة الأموية بابن الزبير وإنما وجهت جميع اهتمامها لنحو الامام الحسين .

رأي الغزالي :

واستبعد الشيخ محمد الغزالي أن ابن الزبير قد أشار على الحسين بالخروج إلى العراق ليستريح منه ، قال : « فعبد الله بن الزبير اتقى لله وأعرق في الاسلام من أن يقترف هذه الدنية » (٣) .

وهذا الرأي بعيد عن الواقع فان ابن الزبير لم تكن له أية حريجة في الدين فهو الذي أجج نار الفتنة في حرب الجمل وزج أباه فيها ، وقد تهالك على السلطان ، وضحى بكل شيء في سبيله ، وقد كان من

(١) تأريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٨ .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٤ / ١٦ ، الطبري ٦ / ٢١٦ .

(٣) من معالم الحق (ص ١٣١) ،

أعدى الناس للعترة الطاهرة ، ومن كان هذا شأنه فهل يكون تقياً وعريقاً في الاسلام ؟ .

رأي رخيص :

من الآراء الرخيصة ما ذهب إليه أنيس زكريا المعروف بنزعته الأموية ان من أهم الأسباب التي أدت إلى قتل الامام الحسين (ع) تشجيع ابن الزبير له في الخروج إلى العراق ، فقد كان له أثره المهم في نفسه (١) وهذا القول من أهزل الآراء فان الامام الحسين (ع) لم يتأثر بقول ابن الزبير ، ولم ينخدع بتشجيعه له ، وانما كانت هناك عوامل أخرى حفزته إلى الخروج إلى العراق ، وقد ذكرناها بالتفصيل في البحوث السابقة .

فزع السلطة المحلية :

وذعرت السلطة المحليـــة في مكة من قدوم الامام إليها ، وخافت أن يتخذها مقراً سياسياً لدعوته ، ومنطلقاً لاعلان الثورة على حكومة دمشق ، وقد خف حاكم مكة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الامام ، فقال له :

— ما أقدمك ؟

— عائذاً بالله ، وبهذا البيت . . (٢) :

---

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٥٤) .

(٢) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨) .

لقد جاء الامام عائذاً ببيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً ، وكان محصناً من كل ظلم واعتداء .

ولم يحفل الأشدق بكلام الامام وانما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علماً بمجيء الامام إلى مكة ، واختلاف الناس إليه ، وازدحامهم على مجلسه ، واجماعهم على تعظيمه ، وأخبره ان ذلك يشكل خطراً على الدولة الأموية .

قلق يزيد :

واضطرب يزيد كأشد ما يكون الاضطراب حينما وافته الأنباء بامتناع الحسين عن بيعته وهجرته إلى مكة ، واتخاذها مركزاً لدعوته ، وارسال العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته ، فكتب إلى عبد الله بن عباس رسالة ، وهذا نصها :

« أما بعد : فان ابن عمك حسينا ، وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة مرصدين للفتنة ، معرضين أنفسهما للهلكة ، فأما ابن الزبير فانه صريع القنا ، وقتيل السيف غداً ، وأما الحسين فقد أحببت الأعذار إليكم أهل البيت مما كان منه ، وقد بلغني أن رجالا من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ، ويكاتبهم ، ويمنونه الخلافة ، ويمنيهم الامرة ، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحرمة ونتائج الأرحام ، وقد قطع ذلك الحسين ، وبته ، وأنت زعيم أهل بيتك ، وسيد بلادك ، فالقه فاردده عن السعي في الفتنة ، فان قبل منك وأناب فله عندي الأمان ، والكرامة الواسعة ، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه وإن طلب الزيادة فاضمن له ما أديك ، وأنفذ ضمانك ، وأقوم له بذلك

وله على الأيمان المغلظة ، والمواثيق المؤكدة بما تطمئن به نفسه ، ويعتمد في كل الأمور عليه ، عجل بجواب كتابي ، وبكل حاجة لك قبلي والسلام وختم كتابه بهذه الأبيات :

يا أيها الراكب الغادي مطيته	على عذافرة في سيرها قحم
ابلغ قريشا على نأي المزار بها	بيني وبين الحسين الله والرحم
وموقف بفنـاء البيت أنشده	عهد الاله غداً وماوفي به اللمم
عنيتم قومكم فخراً بأمكم	أم لعمري حصان عفـة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد	بنت الرسول وخيرالناس قد علموا
اني لأعـلم أو ظناً كعالمـه	والظن يصـدق أحياناً فينتظم
ان سوف يترككم ما تدعون بها	قتلى تهاداكم العقبـان والرخم
ياقومنا لاتشبوا الحرب إذ سكنت	وامسكوا بحبال السلم واعتصموا
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم	من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا برحا	فرب ذي برح زلت به القدم

ودلت هذه الرسالة على غباوة يزيد فقد حسب ان الامام يطلب المال والثراء في خروجه عليه ، ولم يعـلم أنه انما ناهضه لا يبغي بذلك إلا الله والتماس الأجر في الدار الآخرة .

جواب ابن عباس :

وأجابه ابن عباس « أما بعد : فقـد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكة ، فأما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه يكاتمنا مع ذلك اضغاناً يسرها في صدره يوري علينا وري الزناد ، لا فك الله أسيرها فارى في أمره ما انت راء . . واما الحسين فانه لما نزل مكة

وترك حرم جسده ، ومنازل آبائه سألته عن مقدمه فأخبرني ان عمالك بالمدينة أساؤا إليه ، وعجلوا عليه بالكلام الفاحش ، فأقبل إلى حرم الله مستجيراً به ، وسألقاه فيما اشرت إليه ، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة ، ويطفىء به النائرة ، ويخمد به الفتنة ، ويحقن به دماء الأمة ، فاتق الله في السر والعلانية ، ولا تبيتن ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة ، ولا ترصده بمظلمة ، ولا تحفر له مهواة (١) فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه ، وكم من مؤمل أملا لم يؤت أمله ، وخذ بحظك من تلاوة القرآن ، ونشر السنة ، وعليك بالصيام والقيام لاتشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها فان كل ما اشتغلت به عن الله يضر ويفنى وكل ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع ويبقى . والسلام . . » (٢) .

وحفلت هذه الرسالة بما يلي :

١ ـ إنه لا علاقة لبني هاشم بابن الزبير ، ولا هم مسؤولون عن تصرفاته ، فقد كان عدواً لهم يتربص بهم الدوائر ، ويبغي لهم الغوائل .

٢ ـ ان الامام الحسين انما نزح من يثرب إلى مكة لا لاثارة الفتنة وانما لاساءة عمال يزيد له ، وقد قدم إلى مكة ليستجير ببيتها الحرام .

اقصاء حاكم المدينة :

كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على يثرب بعد عزل مروان عنها ، وكان ـ فيما يقول المؤرخون ـ فطناً ذكيـا يحب العافية ويكره الفتنة ، ولمـا امتنع الامام الحسين (ع) من البيعـة ليزيد لم يتخذ معه

(١) المهواة : الحفرة

(٢) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠) تأريخ ابن عساكر ١٣ / ٧٠

الاجراءات الصارمة ، ولم يكرهه على مالا يحب ، وانما فسح له المجال في الرحيل إلى مكة من دون أن يعوقه عنها ، في حين أنه قد اصر عليه مروان بالتنكيل به فرفض ذلك ، وقد نقل الأمويون موقفه المتسم باللين والتسامح مع الحسين الى يزيد فغضب عليه وعزله عن ولايته (١) ، وقد عهد بها إلى جبار من جبابرة الأمويين عمرو بن سعيد الأشدق (٢) وقد عرف بالقسوة والغلظة ، قدم إلى المدينة فى رمضان بعد أن تسلم ولايته عليها فصلى ، بالناس صلاة العتمة ، وفي الصباح خرج على الناس وعليه قميص احمر وعمامة حمراء فرماه الناس بأبصارهم منكرين ماهو عليه ، فصعد المنبر فقال :

« يا اهل المدينة ، مالكم ترمولنا بأبصاركم كأنكم تقروننا سيوفكم ؟ انسيتم ما فعلتم ! أما لو انتقم في الأولى ما عدتم إلى الثانيه ، اغركم اذ قتلتم عثمان فوجدتموه صابراً حليماً ، واماماً ، فذهب غضبه ، وذهبت ذاته ، فاغتنموا انفسكم ، فقد وليكم امام بالشباب المقتبل البعيد الأمل ، وقد اعتدل جسمه ، واشتد عظمه ، ورمى الدهر ببصره ، واستقبله بأسره ، فهو إن عض لهس ، وان وطىء فرس ، لايقلقه الحصى ، ولاتقرع له العصا »

وعرض في خطابه لابن الزبير فقال :

« فو الله لنغزونه ، ثم لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه ، على رغم

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٤٨ .

(٢) الأشدق : لقب بذلك لتشادقه الكلام ، وقيل انما لقب بذلك لأنه كان افقم مائل الذقن ، جاء ذلك في البيان والتبيين ١ / ٣١٥ ، وقيل انما لقب بذلك لأنه أصابه اعوجاج في حلقه لاغراقه في شتم علي جاء ذلك في معجم الشعراء (ص ٢٣١) .

انف من رغم . . » (١) .

ورعف الطاغية على المنبر فألقى إليـه رجل عمامة فمسح بها دمه فقال رجل من خثعم : « دم على المنبر في عمامة ، فتنة عمت وعلا ذكرها ورب الكعبة » (٢) .

وقـد أثر عن رسول الله (ص) أنه قال : « ليرعفن على منبري جبار من جبابرة بني أمية فيسيل رعافه » (٣) :

وعزم الأشدق على مقابلة الجبهة المعارضة بالقوة والبطش ، وقـد حفزه إلى ذلك ما حل بسلفه الوليد من الاقصاء وسلب الثقة عنه نتيجة تساهله مع الحسين (ع) ، ولعل من أوثق الأسباب التي دعت الامـام الحسين (ع) إلى مغادرة الحجاز هو الحذر من بطش هذا الطاغية به ، والخوف من اغتياله وهو في الحرم .

الحسين مع ابن عمر وابن عباس :

وكان عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر مقيمين في مكة حينما أقبل الامام الحسين إليها ، وقد خفا لاستقباله والتشرف بخدمته ، وكانا قد عزما على مغادرة مكة ، فقال له ابن عمر !

« أبا عبد الله ، رحمك الله ، اتق الله الذي إليه معادك ، فقد عرفت من عدواة أهل هذا البيت – يعني بني أمية – لكم ، وقد ولي الناس هذا الرجل يزيد بن معاوية ، ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء

(١) تأريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٨ .
(٢) سمط النجوم العوالي ٣ / ٥٧ .
(٣) مجمع الزوائد ٥ / ٢٤٠ .

والبيضـــاء ، فيقتلونك ، ويهلك فيك بشر كثير ، فاني قـــد سمعت رسول الله (ص) يقول :

« حسين مقتول ، ولئن قتلوه وخذلوه ، ولن ينصروه ليخذلهم الله إلى يوم القيامة ، وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل ، فلعل الله أن يحـــكم بينك وبين القوم الظالمين . » .

فقال له ابي الضيم :

« أنا أبايع يزيد ، وأدخل في صلحه ؟ ! ! وقد قال النبي (ص) فيه وفي أبيه ما قال » :

وانبرى ابن عباس فقال له :

« صدقت أبا عبد الله قال النبي (ص) في حياته : « مالي وليزيد لا بارك الله في يزيد ، وانه يقتل ولدي ، وولد ابنتي الحسين ، والذي نفسي بيده ، لا يقتل ولدي بين ظهراني قوم فلا يمنعونه الا خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم » .

وبكى ابن عباس والحسين ، والتفت إليه قائلا :

« يا بن عباس أتعلم أني ابن بنت رسول الله (ص) ؟ » .

« اللهم نعم . . نعلم مافي الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك وان نصرك لفرض على هذه الأمة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأخرى . . . » .

فقال له الحسين :

« يا بن عباس ، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله (ص) من داره ، وقراره ، ومولده ، وحرم رسوله ، ومجاورة قبره ، ومسجده وموضع مهاجره ، فتركوه خائفاً مرعوباً لا يستقر في قرار ، ولا يأوي في

موطن ، يريدون في ذلك قتله ، وسفك دمـــه ، وهو لم يشرك بالله ولا اتخذ من دونه ولياً ، ولم يتغير عما كان عليه رسول الله (ص) . »

وانبرى ابن عباس يؤيد كلامه ، ويدعم قوله قائلا :

« ما أقول : فيهم الا انهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يظلل الله فلن تجد له سبيلا ، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى ، وأمـــا أنت يا بن رسول الله فانك رأس الفخار برسول الله ، فلا تظن يا بن بنت رسول الله أن الله غافل عما يفعل الظالمون وأنا اشهد أن من رغب عن مجاورتك ، وطمع في محاربتك ، ومحاربة نبيك محمد فماله من خلاق . . . » .

وانبرى الامام الحسين فصدق قوله قائلا : « اللهم نعم »

وانطلق ابن عباس يظهر له الاستعداد للقيام بنصرته قائلا :

« جعلت فداك يا بن بنت رسول الله ، كأنك تريدني إلى نفسك ، وتريد مني أن أنصرك ، والله الذي لا إله إلا هو ان لو ضربت بين يديك بسيفي هذا بيدي حتى انخلعا جميعاً من كفي لما كنت ممن وفى من حقك عشر العشر ، وها أنا بين يديك مرني بأمرك » .

وقطع ابن عمر كلامه ، وأقبل على الحسين فقال له :

« مهلا عما قد عزمت عليه ، وارجع من هنا الى المدينة ، وادخل في صلح القوم ، ولا تغب عن وطنك ، وحرم جدك رسول الله (ص) ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجـــة ، وسبيلا ، وإن أحببت أن لا تبايع فأنت متروك حتى ترى رأيك ، فان يزيد بن معاوية عسى أن لا يعيش إلا قليلا فيكفيك الله أمره » .

وزجره الامام ، ورد عليه قوله قائلا :

« اف لهـــذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض ، اسألك يا عبد الله أنا عندك على خطأ من أمري ؟ فان كنت على خطأ ردني فأنا أخضع ، وأسمع وأطيع » :

فقال ابن عمر :

« اللهم لا ، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطأ وليس مثلك من طهارته وصفوته من رسول الله (ص) على مثل يزيد ابن معاوية ، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى من هذه الأمة مالا تحب ، فارجع معنا إلى المدينة ، وان لم تحب أن تبايع ، فلا تبايع أبداً ، واقعد في منزلك »

« والتفت إليـــه الامام فأخبره عن خبث الأمويين ، وسوء نواياهم نحوه قائلاً :

« هيهات يا بن عمر ان القوم لايتركوني ، وإن أصابوني ، وان لم يصيبوني ، فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره ، أويقتلوني ، أما تعلم يا عبد الله ان من هوان الدنيـــا على الله تعالى أنه أتي برأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني اسرائيل ، والرأس ينطق بالحجة عليهم ؟ ! ! أما تعلم يا أبا عبد الرحمن ان بني اسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم كأنهم لم يصنعوا شيئاً ، فلم يعجل الله عليهم ثم أخذهم بعـــد ذلك أخذ عزيز مقتدر . » (١) .

وكشفت هذه المحاورة عن تصميمه على الثورة ، وعزمه على مناجزة يزيد لأنه لا يتركه وشأنه ، فأما أن يبايع ، وبذلك يذل هو ويذل الاسلام

---

(١) الفتوح ٥ / ٣٨ — ٤٢

وتستباح حرماته ، وأما أن يقتل عزيزاً كريماً ، فاختار المنية للحفاظ على كرامته وكرامة الأمة ومقدساتها .

وصيته لابن عباس :

وأقبل الحسين على ابن عباس ، فعهد إليه بهذه الوصية قائلا : « وأنت يا بن عباس ابن عم أبي ، لم تزل تأمر بالخير منذ عرفتك ، وكنت مع أبي تشير عليه بما فيه الرشاد والسداد ، وقد كان أبي يستصحبك ويستنصحك ويستشيرك ، وتشير عليه بالصواب ، فامض إلى المدينة في حفظ الله ، ولا تخف علي شيئاً من أخبارك ، فاني مستوطن هذا الحرم ، ومقيم به ما رأيت أهله يحبونني ، وينصرونني ، فاذا هم خذلوني استبدلت بهم غيرهم ، واستعصمت بالكلمة التي قالها ابراهيم يوم ألقي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل ، فكانت النار عليه برداً وسلاماً . .) (١) .

رسائله الى زعماء البصرة :

وكتب الامام الى رؤساء الاخماس بالبصرة يستنهضهم على نصرته والأخذ بحقه وقد كتب إلى الاشراف ومن بينهم :

١ — مالك بن مسمع البكري
٢ — الأحنف بن قيس
٣ — المنذر بن الجارود
٤ — مسعود بن عمرو

(١) مقتل الخوارزمي ١ / ١٩٣ :

٥ - قيس بن الهيثم

٦ - عمر بن عبيد الله بن معمر (١)

وقد أرسل كتاباً إليهم بنسخة واحدة وهذا نصه :

« أما بعد : فان الله اصطفى محمداً (ص) من خلقه ، وأكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه إليه ، وقد نصح لعباده ، وبلغ ما أرسل به ، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته ، وأحق الناس بمقامه فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا ، وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه : وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فان السنة قد أميتت ، والبدعة قد أحييت فان تسمعوا قولي : اهدكم إلى سبيل الرشاد . . » (٢) .

والقت هذه الرسالة الأضواء على الخلافة الاسلامية فهي - حسب تصريح الامام - حق لأهل البيت (ع) لأنهم ألصق الناس برسول الله (ص) وأكثرهم وعيا لأهدافه إلا أن القوم استأثروا بها ، فلم يسع العترة الطاهرة إلا الصبر كراهة للفتنة وحفظا على وحدة المسلمين . . . كما حملت هذه الرسالة بالدعوة إلى الحق بجميع رحابه ومفاهيمه ، فدعت إلى احياء كتاب الله وسنة نبيه فان الحكم الأموي عمد إلى اقصائها عن واقع الحياة . . .

وعلق بعض الكتاب على دعوة الامام لأهل البصرة لبيعته فقال :

« ان رسالة الحسين إلى أهل البصرة ترينا كيف كان يعرف مسؤليته ويمضي معها ، فأهل البصرة لم يكتبوا إليه : ولم يدعوه الى بلدهم ، كما فعل أهل الكوفة ، ومع هذا فهو يكتب إليهم ، ويعدهم للمجابهة المحتومة

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨ .

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٢٠٠ .

ذلك أنه حين قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته ، كان قراره هـذا آتياً من أعماق روحه وضميره ، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه ،

وعلى أي حال فقـــد بعث الامام كتبه لأهل البصرة بيد مولى له يقال له سليمان ، ويكنى أبارزين ، وقد جد في السير حتى انتهى الى البصرة فسلم الكتب الى أربابها .

جواب الأحنف بن قيس :

وأجاب الأحنف بن قيس زعيم العراق الامام برسالة كتب فيها هذه الآية الكريمة ولم يزد عليها « فاصبر ان وعـــد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لايوقنون » (١) وقد طلب من الامام الخلود الى الصبر ، ولا يستخفه الذين لا يوقنون بالله ولا يرجون له وقاراً .

جريمة المنذر :

أما المنذر بن الجارود العبدي فقد كان من اجلاف العرب وحقرائهم فقد عمد إلى رسول الامام فبعثه مخفوراً الى ابن زياد ، وكان زوج ابنته ليظهر له الاخلاص والولاء ، فقتله ابن مرجانة وصلبه عشية الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة (٢) واعتذر بعض المؤرخين عن المنذر أو هو اعتذر عن نفسه بأنه خشي أن يكون الرسول من قبـــل ابن مرجانة

---

(١) سير اعلام النبلاء ٣ / ٢٠٠ :

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٢٠٠ .

لاختباره فلذا سلمه إليـــه وهو اعتذار مهلهل ، فان اللازم كان اجراء التحقيق معه حتى يستبين له الأمر .

استجابة يزيد بن مسعود :

واستجاب الزعيم الكبير يزيد بن مسعود النهشلي إلى تلبية نداء الحق فاندفع بوحي من ايمانه وعقيدته إلى نصرة الامام ، فعقد مؤتمراً عاماً دعا فيه القبائل العربية الموالية له وهي :

١ - بنو تميم
٢ - بنو حنظلة
٣ - بنو سعد

ولما اجتمعت هذه القبائل ، انبرى فيهم خطيباً ، فوجه خطابه أولا إلى بني تميم فقال لهم :

« يا بني تميم ! كيف ترون موضعي فيكم ، وحسبي منكم ؟ ! »

وتعالت أصوات بني تميم ، وهي تعلن ولاءها المطلق ، واكبارها له قائلين بلسان واحد :

« بخ بخ ! ! أنت والله فقرة الظهر ، ورأس الفخـــر حللت في الشرف وسطا ، وتقدمت فيه فرطا . . »

وسره تأييدهم فانطلق يقول :

إني جمعتكم لأمر أريد أن اشاوركم ، وأستعين بكم عليه : . »

واندفعوا جميعاً يظهرون له الولاء والطاعة قائلين :

« إنا والله نمنحك النصيحة ، ونجهد لك الرأى فقل حتى نسمع »

وتطاولت الاعناق ، واشرأبت النفوس لتسمع مـــا يقول : الزعيم الكبير ، وانبرى قائلا :

« إن معاوية مات ، فأهون به — والله — هالكا ومفقوداً ، الا انه قد انكسر باب الجور والإثم ، وتضعضعت أركان الظلم ، وكان قد احدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قـد أحكمه ، وهيهات الذي أراد ! ! اجتهد والله ففشل ، وشاور فخذل ، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين ، ويتآمر عليهم بغير رضا منهم مع قصر حلم وقلة علم ، لا يعرف من الحـــق موطأ قدميه ، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين :

وهذا الحسين بن علي ، وابن رسول الله (ص) ذو الشرف الأصيل والرأي الاثيل (١) له فضل لا يوصف ، وعـــلم لا ينزف ، وهو أولى بهذا الامر لسابقته وسنه ، وقدمه وقرابته ، يعطف على الصغير ، ويحسن إلى الكبير ، فاكرم به راعي رعية ، وامام قوم وجبت لله به الحجـــة وبلغت به الموعظة ، فلا تعشوا عن نور الحـــق ، ولا تسكعوا في وهد الباطل ، فقـــد كان صخر بن قيس انخذل بـــكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله (ص) ونصرته ، والله لا يقصر أحدكم عن نصرته إلا أورثه الله الذل في ولده ، والقلة في عشيرته .

وها أنا ذا قـــد لبست للحرب لامتها ، وادرعت لها بدرعها ، من لم يُقتل يمت ، ومن يهرب لم يفت ، فاحسنوا رحمكم الله رد الجواب »

وجلل هذا الخطاب الرائع بأمور بالغة الأهمية وهي :

أولا — : الاستهانة بهلاك معاوية ، وانه قـــد انكسر بموته باب الظلم والجور .

(١) الرأي الأثيل : الأصيل

ثانياً — : القدح في بيعة معاوية ليزيد :

ثالثاً — : عرض الصفات الشريرة الماثلة في يزيـــد من الادمان على الخمر ، وفقد الحلم ، وعدم العلم ، وعدم التبصر بالحق .

رابعاً — : الدعوة إلى الالتفاف حول الامـــام الحسين (ع) وذلك لما يتمتع به من الصفات الشريفة كاصالة الفكر ، وغزارة العـــلم ، وكبر السن ، والعطف على الكبير والصغير وغير ذلك من النزعات الكريمة التي تجعله أهلا لامامة المسلمين .

خامساً — : انه عرض للجماهير عن استعداده الكامل للقيام بنصرة الامام والذب عنه :

ولمـــا أنهى الزعيم العظيم خطابه انبرى وجهاء بني حنظلة فاظهروا الدعم الكامل له قائلين :

« يا أبا خالد : نحن نبل كنانتك ، وفرسان عشيرتك . إن رميت بنا اصبت ، وان غزوت بنا فتحت . لا تخوض والله غمرة الا خضناها ولا تلقى والله شدة إلا لقيناها ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا اذا شئت »

وكان منطقا مشرفاً دل على تعاطفهم ، ووقوفهم إلى جانبه ، وقام من بعدهم بنو عامر فاعربوا عن ولائهم العميق له قائلين :

« يا أبا خالد نحن بنو أبيك ، وحلفاؤك لا نرضى إن غضبت ، ولا نبقى ان ظعنت والأمر اليك فادعنا اذا شئت . . . » .

وأما بنو سعد فاظهروا التردد وعدم الرغبة فيما دعاهم اليه ، قائلين :

« يا أبا خالد : ان ابغض الأشياء الينـــا خلافك ، والخروج عن رأيك ، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل ، فحمدنا أمرنا ، وبقي عزنا فينا ، فامهلنا نراجع المشورة ، ونأتيك برأينا : » :

وساءه تخاذلهم فاندفع يندد بهم قائلا :

« لئن فعلتموها لارفع الله السيف عنكم أبداً ، ولا زال سيفكم فيكم . . . » .

جوابه للامام :

ورفع يزيد بن مسعود رسالة للامام دلت على شرفه ونبله ، واستجابته لدعوته ، وهذا نصها :

« أما بعد : فقد وصل إلي كتابك ، وفهمت ماندبتني إليه ، ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك ، والفوز بنصيبي من نصرتك . . وان الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير ، ودليل على سبيل نجاة ، وانتم حجة الله على خلقه ، ووديعته في أرضه تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وانتم فرعها ، فاقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذللت لك اعناق بني تميم ، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الأبل الظماء لورود الماء يوم خمسها (١) وقد ذللت لك رقاب بني سعد ، وغسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع . . . » .

وحفلت هذه الرسالة بسمو أدبه ، وكريم طباعه ، وتقديره البالغ للامام ، ويقول بعض المؤرخين انها انتهت الى الامام في اليوم العاشر من المحرم بعد مقتل أصحابه وأهل بيته ، وهو وحيد فريد قد أحاطت به القوى الغادرة ، فلما قرأ الرسالة طفق يقول :

« مالك ، آمنك الله من الخوف ، وارواك يوم العطش الأكبر »

ولما تجهز ابن مسعود لنصرة الامام بلغه قتله فجزع لذلك وذابت

(١) خمسها : بالكسر الابل الضماء التي ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع

نفسه أسى وحسرات (١) .

استجابة يزيد البصري :

ولبى نداء الحق يزيد بن نبيط البصري ، وكان — فيما يقول المؤرخون — يتردد إلى دار مارية ابنـــة سعد أو منقـــذ ، وكانت دارها من منتديات الشيعة ، وفيها تذاع فضائل أهل البيت (ع) وتنشر مآثرهم ، ولما وجه الامام دعوته الى أهل البصرة لنصرته استجاب لها يزيد بن نبيط ، ولحق به من أولاده العشرة عبد الله وعبيد الله ، وخاف عليه أصحابه أن يدركه الطلب من شرطة ابن زياد ، فقال لهم : لو استوت اخفافها بالجدد لهان علي طلب من طلبني (٢) واستوى على جواده مع ولديه ، وصحبه مولاه عامر ، وسيف بن مالك والادهم بن أمية فلحقوا بالامام في مكة وصحبوه الى العراق واستشهدوا بين يديه في كربلا (٣) .

نقمة العراق على الأمويين :

وكره العراقيون بصورة عامة حكم الأمويين ، وبغضوا سلطانهم ، وفيما نحسب ان الاسباب في ذلك ما يلي :

١ — ان العراق أيام معاوية أصبح يساس بالروح العسكرية والأحكام العرفية التي لا تتقيد بالقانون خصوصاً أيام زياد بن سمية فقـــد كان يأخذ

(١) اللهوف (ص ١٦ — ١٩)

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ١٩٨ .

(٣) مقتل المقرم (ص ١٥٨) نقلا عن ذخيرة الدارين (ص ٢٢٤)

البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، ويقتل على الظنة والتهمة ، مما أدى إلى اشاعة الكراهية للأمويين .

٢ – ان الكوفة كانت في عهد الامام أمير المؤمنين (ع) عاصمة الدولة الاسلامية ، وفي أيام معاوية أصبحت دمشق العاصمة ومركز الحكم وأصبح العراق مصراً كسائر الامصار ، وانتقلت عنه الخزينة المركزية ، وقد أخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس بعد تحول الخلافة عنهم وأصبح اسم الامام عندهم رمزاً الى دولتهم المفقودة ، وتعلقت آمالهم بابناء الامام فكانوا ينظرون إليهم انهم الابطال لاستقلال بلادهم السياسي وتحررها من التبعية لدمشق فقد كره أهل العراق الخضوع لأهل الشام ، كما كره أهل الشام الخضوع والسيطرة لأهل العراق وقد صور شاعر الشام هذه النزعة بقوله :

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهونا

وقالوا : علي امـــام لنـــا فقلنا : رضينا ابن هند رضينا

وصور شاعر العراق هذه النزعة السائدة عند العراقيين بقوله مخاطباً أهل الشام :

أتاكم علي بأهل العـــراق وأهـــل الحجاز فما تصنعونا

فان يكره القوم ملك العراق فقدماً رضينا الذي تكرهونا (١)

وكانت الثورات المتلاحقة التي قام بها العـــراق انما هي لكراهية أهل الشام والتخلص من حكم الأمويين .

٣ – ان السياسة الخاطئة التي لبعها معاوية مع زعماء الشيعة الذين تبنوا القضايا المصيرية للشعب العراقي وكافة الشعوب الاسلامية وما عانوه من القتل والتنكيل قد هزت مشاعر الكوفيين ، وأوغرت صدورهم بالحقد

(١) الأخبار الطوال (ص ٧٠) طبع ليدن

على الأمويين ، كما ان سب الامام على المنابر قد زاد في بغضهم للأمويين وأشعل جذوة المعارضة في نفوسهم .

٤ ـ ان الأمويين كانوا ينظرون الى أهل الكوفة انهم الجبهة المعارضة لحكمهم وانهم المصدر الخطير الذي يهدد دولتهم فقابلوهم بمزيد من القسوة والارهاب ، مما دعى الكوفيين إلى العمل المستمر لمناهضة الحكم الأموي وتقويض سلطانه . . . هذه بعض الأسباب التي أدت إلى نقمة العراق على الحكم الأموي وبغضهم له ،

اعلان التمرد في العراق :

وبعد هلاك معاوية أيقن العراقيون بانهيار الدولة الأموية ، وقد رؤوا أن في تقليد يزيد مهام الخلافة انما هو استمرار للحكم الأموي الذي جهد على اذلالهم وقهرهم .

وقـــد أجمعت الشيعة في الكوفة على مناجزته والخروج على سلطانه ورؤوا أن في كفاحهم له جهاداً دينياً ، حسب ما يقول جولدتسهير ، (١) ويرى (كريمر) ان الاخيار والصلحاء من الشيعة كانوا ينظرون إلى يزيد نظرتهم إلى ورثة أعداء الاسلام وخلفاء أبي سفيان (٢) :

وعلى أي حال فان شيعة الكوفة لم ترض بحكم يزيد ، وأجمعت على خلعه ، والبيعة للامام الحسين (ع) وقد قاموا بما يلي :

(١) (٢) العقيدة والشريعة في الاسلام (ص ٦٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤتمر العام :

وعقدت الشيعة بعد هلاك معاوية مؤتمراً عاماً في بيت أكبر زعمائها سليمان بن صرد الخزاعي ، واندفعوا اندفاعاً كلياً في القاء الخطب الحماسية التي تظهر مساوىء الحكم الاموي وفضائحه ، كما أشادوا بالامام الحسين ودعوا إلى البيعة له .

خطبة سليمان :

واعتلى سليمان بن صرد منصة الخطابة ، فافتتح اولى جلساتهم بهذا الخطاب ، وقد جاء فيه :

« ان معاوية قد هلك ، وان حسيناً قــد قبض على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة وأنتم شيعته ، وشيعة أبيه فان كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وان خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه . . . »

وتعالت أصواتهم من كل جانب وهم يقولون بحماس بالغ :

« نقتل أنفسنا دونه . . . » .

« لا بل نقاتل عدوه . . . » (1) .

وأظهروا رغبتهم الملحة ودعمهم الكامل للامام ، وقرروا ما يلي :

١ - خلع بيعة يزيد

٢ - ارسال وفد للامام يدعونه للقدوم إليهم

(1) الارشاد (ص ٢٢٣ - ٢٢٤) .

٣ ـ بعث الرسائل للامام من مختلف الطبقات الشعبية التي تمثل رغبة الجماهير الحاشدة لحكم الامام .

وفد الكوفة :

وأوفدت الكوفة وفداً إلى الامام يدعوه إلى القــدوم اليهم ، ومن بين ذلك الوفد عبد الله الجدلي (١) ولما مثل الوفد عند الامام عرض عليه اجماع أهل الكوفة على نصرته والاخذ بحقه ، وانه ليس لهم امام غيره ، وحثوه على القدوم إليهم .

الرسائل :

وعمد أهل الكوفة بعد مؤتمرهم فكتبوا الرسائل إلى الامام (ع) وهي تعرب عن اخلاصهم وولائهم له ، وتحثه على القدوم إليهم ليتولى قيادة الأمة وهذه بعضها .

١ ـ قد جاء فيها بعد البسملة ما نصه :

« من سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجية ، ورفاعة بن شــداد ، وحبيب بن مظاهر ، وشيعته والمسلمين من أهل الكوفة .

أما بعد : فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد ـ يعني معاوية ـ الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها ، واغتصبها فيئها ، وتأمر عليها بغير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبُعداً له كما بعُدت ثمود . . . إنه ليس علينا امام

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٥) .

فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو بلغنا أنك قد أقبلت إليناأخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . . » (١) :

وكتبت هذه الرسالة في أواخر شهر شعبان ، وحملها عبد الله الهمدا'، وعبد الله بن وائل الهمداني وقد أمروهما بالاسراع والحذر من العدو ، وأخذا يجدان في السير لا يلويان على شيء وقدما مكة لعشر مضين من رمضان (٢) وسلما الرسالة للامام وعرفاه بشوق الناس الى قدومه :

وقد عرضت هذه الرسالة مساوىء الحكم الأموي ، فوصفت معاوية بالجبار العنيد ، وانه ابتز أمر الأمة بالقهر والغلبة ، وتأمر عليها بغير رضى منها ، وقد قتل خيارها وصلحاءها وجعل العطاء خاصة للأغنياء والوجوه ، وحرم منه بقية طوائف الشعب ، كما عرضت الى مقاطعة الشيعة لحاكم الكوفة النعمان بن بشير ، وانهم اذا بلغهم قدوم الامام قاموا باقصائه عن الكوفة والحاقه بدمشق .

٢ — وقد أرسل الرسالة الثانية جماعة من أهل الكوفة وهذا نصها :

« إلى الحسين بن علي من شيعته والمسلمين ، أما بعد : فحيّ هلا (٣) فان الناس ينتظرونك ولارأي لهم غيرك (٤) فالعجل ثم العجل والسلام » (٥)

(١) أنساب الأشراف (ق ١ ج ١) الامامة والسياسة ٢ / ٣ — ٤ الطبري .

(٢) الفتوح ٥ / ٤٤ .

(٣) حيّ هلا : اسم فعل بمعنى اقبل وعجل

(٤) في تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥ ، لا امام لهم غيرك .

(٥) الارشاد (ص ٢٢٤)

وحمل هذه الرسالة قيس بن مسهر الصيداوي من بني أسد ، وعبد الرحمن ابن عبد الله الارحبي وعمارة بن عبد الله السلولي ، كما حملوا معهم نحوا من خمسين صحيفة من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة (١) وهي تحث الامام على الاسراع إليهم والترحيب بقدومه ، وتعلن دعمهم الكامل له .

٣ - وأرسل هذه الرسالة جماعة من الانتهازيين الذين لا يؤمنون بالله ، وهم شبث بن ربعي اليربوعي ومحمد بن عمر التميمي ، وحجار بن ابجر العجلي ، ويزيد بن الحارث الشيباني ، وعزرة بن قيس الاحمسي ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي ، وهذا نصها :

« أما بعد : فقد اخضر الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام (٢) فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك . . » (٣) .

وأعربت هـــذه الرسالة عن شيوع الأمل وازدهار الحياة ، وتهيأة البلاد عسكرياً للأخذ بحق الامام ، ومناجزة خصومه ، وقد وقعها أولئك الأشخاص الذين كانوا في طليعة القوى التي زجها ابن مرجانة لحرب الامام ومن المؤكد أنهم لم يكونوا مؤمنين بحقه ، وانما اندفعوا لمساومة السلطة الأموية ، والحصول منها على الأموال ومتع الحياة ، كما صرح الامام الحسين بذلك أمام أصحابه .

٤ - ومن بين تلك الرسائل « انا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة ، فاقدم علينا فنحن في مائة الف سيف ، فقـــد فشا فينا الجور ، وعمل فينا بغير كتاب الله وسنة نبيه ، ونرجوا أن يجمعنا

(١) أنساب الاشراف ق ١ ج ٤ .

(٢) الجمام : الآبار .

(٣) أنساب الاشراف ق ١ ج ١ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (ص ٧٤) .

الله بك على الحق ، وينفي عنابك الظلم ، فأنت أحق بهذا الأمر من يزيد وأبيه الذي غصب الأمـــة ، وشرب الخمور ، ولعب بالقرود والطنابير ، وتلا عب بالدين » (١) .

٥ ـ وكتب جمهور أهل الكوفة الرسالة الآتية ووقعوها وهذا نصها :

« للحسين بن علي أمير المؤمنين من شيعة أبيه (ع) أما بعـــد : فان الناس ينتظرونك لارأي لهم في غيرك العجل العجل يابن رسول الله (ص) لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ويؤيد بك المسلمين والاسلام . . . بعد أجزل السلام وأتمه عليك ورحمة الله وبركاته » (٢) .

٦ ـ وكتب إليه جماعة هذه الرسالة الموجزة : « انا معك ، ومعنا مائة الف سيف » (٣) .

٧ ـ وكانت آخر الرسائل التي وصلت إليه هذه الرسالة : « عجل القدوم يابن رسول الله فان لك بالكوفة مائة الف سيف فلا تتأخر » (٤) .

وقد تتابعت عليه الرسائل ماملأ منها خرجين ، ويقول المؤرخون : إنه اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر الف كتاب (٥) ووردت إليه قائمة فيها مائة وأربعون الف اسم يعربون عنْ نصرتهم له حال ما يصـــل إلى

---

(١) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨) الصراط السوي في مناقب آل النبي للسيد محمود القادي من مصورات مكتبة الامام أميرالمؤمنين ، وبصورة موجزة رواه المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٤ .

(٢) وسيلة المآل (ص ١٨٥) الفصول المهمة لابن الصباغ (ص ١٧٠)

(٣) أنساب الاشراف ق ١ ج ١ .

(٤) بحار الانوار ١٠ / ١٨٠ .

(٥) اللهوف (ص ١٩) .

الكوفة (١) كما وردت عليه في يوم واحد ستمائة كتاب (٢) .

وعلى أي حال فقد كثرت كتب أهل الكوفة إلى الامام وقد وقع فيها الأشراف وقراء المصر وهي تمثل تعطشهم لقدوم الامام ليكون منقذاً لهم من طغمة الحكم الأموي ولكن بمزيد الأسف فقد انطوت صحيفة ذلك الأمل ، وانقلب الوضع وتغيرت الحالة ، واذا بالكوفة تنتظر الحسين لتسقي سيوفها من دمه ، وتطعم نبالها من لحمه . . تريد أن تحتضن جسد الحسين لتوزعه السيوف ، وتطعنه الرماح ، وتسحقه الخيول بحوافرها :

الكوفة تنتظر الحسين لتثب عليه وثبة الأسد ، وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر، الكوفة تنتظر الحسين لتسبي عياله بدل أن تحميهم ، وتروع أطفاله بدل أن تؤويهم (٣) .

وهكذا شاءت المقادير ، ولا راد لأمر الله على نكث القوم لبيعة الامام واجماعهم على حربه ويقول المؤرخون ان الامام بعدما وافته هذه الرسائل عزم على أن يلبي أهل الكوفة ويوفد إليهم ممثله العظيم مسلم بن عقيل .

---

(١) الوافي في المسألة الشرقية ١ / ٤٣ .

(٢) الدر المسلوك في احوال الأنبيـــاء والأوصياء ١ / ١٠٧ من مخطوطات مكتبة الامام الحكيم .

(١) مع الحسين في نهضته (ص ١٥٧) .

إيفاد مُسلم الى العراق


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتابعت كتب أهل الكوفة - كالسيل - الى الامام الحسين ، وهي تحثه على المسير والقدوم إليهم لانقاذهم من ظلم الأمويين وعنفهم ، وكانت بعض تلك الرسائل تحمله المسؤولية أمام الله والأمة إن تأخر عن اجابتهم .

ورأى الامام - قبل كل شيء - أن يختار للقياهم سفيراً له يعرفه باتجاهاتهم ، وصدق نياتهم ، فان رأى منهم نية صادقة ، وعزيمة مصممة فيأخذ البيعة منهم ، ثم يتوجه إليهم بعد ذلك ، وقد اختار لسفارته ثقته وكبير أهل بيته ، والمبرز بالفضل فيهم مسلم بن عقيل ، وهو من أفذاذ التأريخ ، ومن أمهر الساسة ، وأكثرهم قابليـــة على مواجهة الظروف ، والصمود أمام الأحداث ، وعرض عليه الامام القيام بهذه المهمة : فاستجاب له عن رضى ورغبة ، وزوده برسالة رويت بصور متعددة وهي :

الأولى : رواها ابو حنيفة الدينوري وهذا نصها :

« من الحسين بن علي الى من بلغه كتابي هـــذا من أوليائه وشيعته بالكوفة ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد أتتني كتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمي ، وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل ليعـــلم لي كُنْه أمركم ، ويكتب إلي بما يتبين له من اجتماعكم فان كان أمركم على ما أتتني به كتبكم ، واخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم اليكم ان شاء الله والسلام . . . » (١) .

الثانية : رواها صفي الدين وقد جاء فيها بعد البسملة :

« أما بعد فقد وصلتني كتبكم ، وفهمت ما اقتضته آراؤكم ، وقد بعثت اليكم ثقتي وابن عمي مسلم بن عقيل ، وسأقدم عليكم وشيكا في أثره إن شاء الله . . » (٢) .

---

(١) الأخبار الطوال (ص ٢١٠) .

(٢) وسيلة المآل (ص ١٨٦) من مصورات مكتبة الامام الحكيم .

وهذه الرواية شاذة إذ لم يذكر فيها مهمة مسلم في ايفاده إليهم من أخذ البيعة له ، وغير ذلك مما هو من صميم الموضوع في ارسال مسلم .

الثالثة : رواها الطبري وقد جاء فيها بعد البسملة :

« من الحسين بن علي الى الملأ من المؤمنين والمسلمين أما بعد : فان هانئاً وسعيداً (١) قدما علي بكتبكم ، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي اقتصصتم ، وذكرتم ومقالة جلكم ، أنه ليس علينا امام فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق .

وقد بعثت لكم أخي وابن عمي ، وثقتي من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم ، فان كتب أنه قد اجتمع رأي ملأكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم ، وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والآخـــذ بالقسط والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام . . . » (٢) .

وحفلت هذه الرسالة — حسب نص الطبري — بالأمور التالية :

١ — توثيق مسلم والتدليل على سمو مكانته ، فهو ثقة الحسين .

٢ — تحديد صلاحيـــة مسلم باستكشاف الأوضاع الراهنة ، ومعرفة التيارات السياسية ، ومدى صدق القوم في دعواهم ، ومن الطبيعي أنه لا تناط معرفة هذه الأمور الحساسة إلا بمن كانت له المعرفة التامة بشؤون المجتمع وأحوال الناس :

٣ — انه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلم له باجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته ، فلا يقدم عليهم حتى يعرفه سفيره بذلك .

---

(١) هما : هانيء بن هانيء السبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي .

(٢) الطبري ٦ / ١٩٧ .

٤ ـ انه تحدث عمـا يجب أن يتصف به الامام ، والقائد لمسيرة الأمة من الصفات وهي :

أ ـ العمل بكتاب الله

ب ـ الأخذ بالقسط

ج ـ الإدانة بالحق

د ـ حبس النفس على ذات الله

ولم تتوفر هـذه الصفات الرفيعة إلا في شخصيته الكريمة التي تحكي اتجاهات الرسول (ص) ونزعاته .

وتسلم مسلم هذه الرسالة ، وقد أوصاه الامام بتقوى الله ، وكتمان أمره (١) وغادر مسلم مكة ليلة النصف من رمضان (٢) وعرج في طريقه على يثرب فصلى في مسجد الرسول (ص) وطاف بضريحه ، وودع أهله وأصحابه (٣) وكان ذلك هو الوداع الأخير لهم ، واتجه صوب العراق وكان معـه قيس بن مسهر الصيداوي ، وعمارة بن عبد الله السلولي ، وعبد الرحمن بن عبد الله الازدي ، واستأجر من يثرب دليلين من قيس يدلانه على الطريق (٤) .

وسارت قافلة مسلم تجد في السير لا تلوي على شيء ، يتقدمها الدليلان وهما يتنكبان الطريق خوفاً من الطلب ، فضلا عن الطريق ، ولم يهتديا له وقد اعياهما السير واشتد بهما العطش ، فأشارا الى مسلم بسنن الطريق بعد

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧

(٢) مروج الذهب ٢ / ٨٦

(٣) تأريخ الطبري ٦ / ١٩٨

(٤) الأخبار الطوال (ص ٢٣١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧

أن بان لهما ، وتوفيا في ذلك المكان حسبما يقوله المؤرخون (١) وسار مسلم مع رفقائه حتى افضوا إلى الطريق ، ووجدوا ماءاً فأقاموا فيه ليستريحوا مما ألم بهم من عظيم الجهد والعناء .

رسالة مسلم للحسين :

ويقول المؤرخون ان مسلم تخوف من سفره وتطير بعد أن أصابه من الجهد وموت الدليلين ، فرفع للامام رسالة يرجو فيها الاستقالة من سفارته وهذا نصها :

« أما بعـــد : فاني أقبلت من المدينة مع دليلين ، فجازا (٢) عن الطريق فضلا واشتد عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبت ، وقـــد تطيرت من توجهي هذا فان رأيت اعفيتني منه ، وبعثت غيري والسلام . . . » .

جواب الحسين :

وكتب الامام الحسين جوابا لرسالة مسلم ندد فيه بموقفه ، واتهمه بالجبن وهذا نصه :

« أما بعـــد : فقد خشيت أن لا يكون حملك على الكتاب إلي في الاستعفاء من الوجـــه الذي وجهتك له إلا الجبن ، فامض لوجهك الذي

(١) الارشاد (ص ٢٢٧)

(٢) جازا عن الطريق : أي تركاه خلفهما

وجهتك فيه والسلام . . » (١) .

اضواء على الموضوع :

واكبر الظن ان رسالة مسلم مع جواب الامام من الموضوعات ، ولا نصيب لها من الصحة وذلك لما يلي :

١ ـ ان مضيق الخبث الذي بعث منـه مسلم رسالته إلى الامام يقع ما بين مكة والمدينة حسب ما نص عليه الحموي (٢) في حين أن الرواية تنص على أنه استأجر الدليلين من يثرب ، وخرجوا الى العراق فضلوا عن الطريق ، وماتا الدليلان ، ومن الطبيعي ان هذه الحادثة وقعت مابين المدينة والعراق ولم تقع مابين مكة والمدينة .

٢ ـ انه لو كان هناك مكان يُدعى بهذا الاسم يقـع مابين يثرب والعراق لم يذكره الحموي فان السفر منه الى مكـة ذهابا وايابا يستوعب زمانا يزيد على عشرة أيام في حين أن سفر مسلم من مكة الى العراق قـد حدده المؤرخون فقالوا : انه سافر من مكـة في اليوم الخامس عشر من رمضان ، وقـدم إلى الكوفة في اليوم الخامس من شوال فيكون مجموع سفره عشرين يوماً ، وهي أسرع مدة يقطعها المسافر من مكة الى المدينة فان المسافة بينهما تزيد على الف وستمائة كيلو متر ، واذا استثنينا من هذه المدة سفر رسول مسلم من ذلك المكان ورجوعه إليـه ، فان مدة سفره من مكـة إلى الكوفة تكون أقل من عشرة أيام ويستحيل عادة قطع تلك

---

(١) الارشاد (ص ٢٢٦) وفي الحدائق الوردية ١ / ١١٧ خرج مسلم من مكة حتى أتى المدينة وأخذ منها دليلين فمرا به في البرية فأصابها عطش فمات أحد الدليلين فكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه ، فكتب إليـه الحسين ان امض إلى الكوفة .

(٢) معجم البلدان ٢ / ٣٤٣

المسافة بهذه الفترة من الزمن .

٣ – ان الامام اتهم مسلماً – في رسالته – بالجبن ، وهو يناقض توثيقه له من أنه ثقته وكبير أهل بيتـــه ، والمبرز بالفضل عليهم ، ومع اتصافه بهذه الصفات كيف يتهمه بالجبن ؟ ! .

٤ – ان اتهام مسلم بالجبن يتناقض مع سيرته ، فقد أبدى هذا البطل العظيم من البسالة والشجاعة النادرة ما يبهر العقول فانه حينما انقلبت عليه جموع أهل الكوفة قابلها وحده من دون أن يعينه او يقف الى جنبه أي أحد ، وقدأشاع في تلك الجيوش المكثفة القتل مما ملأ قلوبهم ذعراً وخوفا ولما جيء به اسيراً إلى ابن زياد لم يظهر عليه أي ذل أو انكسار ، ويقول فيـــه البلاذري انه أشجع بني عقيل وأرجلهم (١) بل هو أشجع هاشمي عرفه التأريخ بعد أئمة أهل البيت عليهم السلام . . ان هذا الحديث من المفتريات الذي وضع للحط من قيمة هذا القائد العظيم الذي هو من مفاخر الأمة العربية والاسلامية .

في بيت المختار :

وسار مسلم يطوي البيداء حتى دخل الكوفة فاختار النزول في بيت المختار الثقفي (٢) وهو من أشهر أعـــلام الشيعة وأحد سيوفهم ، ومن أحب الناس وأنصحهم للامام الحسين .

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ .

(٢) الارشاد (ص ٢٢٦) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧ ، وقيل نزل مسلم في بيت مسلم بن عوسجة ، وقيل نزل في بيت هانيء بن عروة جاء ذلك في كل من الاصابة ١ / ٣٣٢ وتهذيب التهذيب .

لقد اختار مسلم النزول في بيت المختار دون غيره من زعماء الشيعة وذلك لوثوقه باخلاصه للامـــام الحسين ، وتفانيه في حبه ، كما أن هناك عاملا آخر له أهميته ، فقد كان المختار زوجاً لعمرة بنت النعمان بن بشير حاكم الكوفة ، ولا شك أن يده لن تمتد إلى مسلم طالما كان مقيماً في بيت صهره المختار ، وقد دل على ذلك على احاطة مسلم بالشؤون الاجتماعية .

وفتح المختار أبواب داره لمسلم ، وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم ودعا الشيعة الى مقابلته فاقبلوا إليه من كل حدب وصوب ، وهم يظهرون له الولاء والطاعة .

ابتهاج الكوفة :

وعمت الافراح بقـــدم مسلم جميع الأوساط الشيعية في الكوفة ، وقـــد وجد منهم مسلم ترحيباً حاراً ، وتأييداً شاملا ، وكان يقرأ عليهم رسالة الحسين ، وهم يبكون ، ويبدون التعطش لقـــدومه ، والتفاني في نصرته ، لينقذهم من جور الأمويين وظلمهم ، ويعيد في مصرهم حكم الامـــام امير المؤمنين مؤسس العـــدالة الكبرى في الأرض ، وكان مسلم يوصيهم بتقوى الله ، وكتمان أمرهم حتى يقدم إليهم الامام الحسين .

البيعة للحسين :

وانثالت الشيعة على مسلم تبايعه للامام الحسين ، وكانت صيغة البيعة الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين ، وقسمة الغنائم بين المسلمين بالسوية ، ورد المظالم الى

أهلها ، ونصرة أهل البيت ، والمسالمة لمن سالموا ، والمحاربة لمن حاربوا وقد شبه السيد المقرم هذه البيعة ببيعة الأوس والخزرج للنبي (ص) (١) وكان حبيب بن مظاهر الأسدي يأخذ البيعة منهم للحسين (٢) .

كلمة عابس الشاكري :

وانبرى المؤمن الفـــذ عابس بن شبيب الشاكري فاعرب لمسلم عن ولائه الشخصي واستعداده للموت في سبيل الدعوة الا انه لم يتعهد له بأي أحد من أهل مصره قائلا :

« أما بعد : فاني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله إني محدثك عما أنا موطن عليـــه نفسي ، والله لأجيبنكم اذا دعوتم ، ولأقاتلن معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى القى الله ، لا أريد بذلك الا ما عند الله . . . » .

وقد صدق عابس ما عاهد عليه الله ، فلم يخن ضميره ففدى بنفسه ريحانة رسول الله (ص) واستشهد بين يديه في كربلا . . وانبرى حبيب ابن مظاهر فخاطب عابساً قائلا له :

« رحمك الله ، فقـــد قضيت مافي نفسك بواجز من قولك ، وانا والله الذي لا إله الا هو على مثل ما أنت عليه » .

واندفع سعيد الحنفي فأيد مقالـــة صاحبيه (٣) وهؤلاء الابطال من

(١) الشهيد مسلم بن عقيل (ص ١٠٣) .

(٢) الحدائق الوردية ١ / ١٢٥ من مخطوطات مكتبة الامام كاشف الغطاء العامة .

(٣) تأريخ الطبري ٦ / ١٩٩ .

انبل من عرفهم التأريخ صدقاً ووفاءً ، فقد بذلوا أرواحهم بسخاء إلى الامام الحسين ، واستشهدوا بين يديه في كربلا .

عدد المبايعين :

وتسابقت جماهير الكوفة الى بيعة الحسين على يد سفيره مسلم بن عقيل ، وقد اختلف المؤرخون في عدد من بايعه ، وهذه بعض الأقوال :

١ ـ أربعون الفاً (١) .

٢ ـ ثلاثون الفاً ومن بينهم حاكم الكوفة النعمان بن بشير (٢) :

٣ ـ ثمانية وعشرون الفا (٣)

٤ ـ ثمانية عشر الفاً ، حسب ماجاء في رسالة مسلم إلى الحسين يقول فيها : « وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر الفا فعجل الاقبال » (٤)

---

(١) شرح شافية أبي فراس ١ /٩٠ من مصورات مكتبة الامام الحكيم مثير الاحزان لابن نما (ص ١١) .

(٢) دائرة معارف وجدي ٣ / ٤٤٤ ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان (ص ٦٧) لمحمد بن أبي بكر المتوفي سنة (٧٣٠ هـ) من مصورات مكتبة الحكيم ، مناقب الامام علي بن أبي طالب (ص١٣) وجاء فيه ان النعمان قال : يا أهل الكوفة ابن بنت رسول الله (ص) احب إليكم من ابن بنت بجدل .

(٣) تأريخ ابي الفداء ١ / ٣٠٠

(٤) تأريخ الطبري ٦ / ٢٢٤

٥ ـ اثنا عشر الفا . . (١) .

رسالة مسلم للحسين :

وازداد مسلم ايماناً ووثوقاً بنجاح الدعوة حينما بايعه ذلك العدد الهائل من أهل الكوفة ، فكتب للامام رسالة يستحثه فيها على القدوم اليهم ، وكان قد كتبها قبل شهادته ببضع وعشرين ليلة (٢) وهذا نصها :

« أما بعد : فان الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانيـة عشر الفا (٣) فعجل حين يأتيك كتابي ، فان الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى » (٤) .

لقـد كتب مسلم هذه الرسالة لأنه لم ير أية مقاومة لدعوته ، وانما رأى إجماعاً شاملا على بيعة الامام ، ولهفاً حاراً لرؤيته ، وحمل الكتاب جماعة من أهل الكوفة ، وعليهم البطل العظيم عابس الشاكري ، وقـدم الوفد مكة المكرمة ، وسلم الرسالة الى الامام ، وقـد استحثوه على القدوم الى الكوفة ، وذكروا اجماع أهلها على بيعته ، وما لاقاه مسلم من الحفاوة البالغة منهم ، وعند ذلك تهيأ الامام إلى السفر للكوفة .

(١) مروج الذهب ٣ / ٤ ، الصراط السوي في مناقب آل النبي (ص ٨٦) من مصورات مكتبة الامام الحكيم ، تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥٠ الاصابة ١ / ٣٣٢ ، الحدائق الوردية ١ / ١١٧ .

(٢) انساب الأشراف ق ١ ج ١

(٣) وفي رواية البلاذري « ان جميع أهل الكوفة معك » .

(٤) الطبري ٦ / ٢٢٤ .

موقف النعمان بن بشير :

كان موقف النعمان بن بشير (١) من الثورة موقفا يتسم باللين والتسامح وقــد اتهمه الحزب الأموي بالضعف ، أو التضاعف في حفظ مصلحة الدولة والاهتمام بسلامتها فأجابهم .

« لأن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحب إلي من أن اكون قويا في معصية الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله » (٢) .

وقد اعطى الشيعة بموقفه هذا قوة ، وشجعهم على العمل ضد الحكومة علنا ، ولعل سبب ذلك يعود لأمرين :

١ - ان مسلم بن عقيل كان ضيفا عند المختار وهو زوج ابنته عمرة فلم يعرض للثوار بسوء رعاية للمختار .

---

(١) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي كان قــد ولاه معــاوية الكوفة بعــد عبد الرحمن بن الحكم ، وكان عثماني الهوى يجاهر ببغض علي ويسيء القول فيه ، وقد حاربه يوم الجمل وصفين ، وسعى باخلاص لتوطيد الملك إلى معاوية ، وهو الذي قاد بعض الحملات الارهابيــة على بعض المناطق العراقيــة ، ويقول المحققون : إنه كان ناقماً على يزيد ، ويتمنى زوال الملك عنه شريطة أن لا تعود الخلافة لآل علي ، ومن الغريب في شأن هذا الرجل أن يزيد لما اوقع بأهل المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام لم يثأر النعمان لكرامة وطنه وقومه ، وفي الاصابة ٣ / ٥٣٠ انه لما هلك يزيد دعا النعمان إلى ابن الزبير ثم دعا إلى نفسه فقاتله مروان ، فقتل وذلك في سنة (٦٥ هـ) وكان شاعراً مجيداً له ديوان شعر طبع حديثاً .

(٢) سير اعلام النبلاء ٣ / ٢٠٦ .

٢ ـ ان النعمان كان ناقماً على يزيد وذلك لبغضه للانصار فقد أغرى الأخطل الشاعر المسيحي في هجائهم فثأر لهم النعمان كما ألمعنا إلى ذلك في البحوث السابقة ، ولعل لهذا ولغيره لم يتخذ النعمان أي اجراء مضاد للثورة .

خطبة النعمان :

وأعطى النعمان للشيعة قوة في ترتيب الثورة وتنظيمها ، وهيأ لهم الفرص في احكام قواعدها مما ساء الحزب الأموي ، فانكروا عليه ذلك ، وحرضوه على ضرب الشيعة فخرج النعمان ، وصعد المنبر فأعلن للناس سياسته المتسمة بالرفق ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه .

« أما بعد : فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال . إني لم اقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لايثب علي ، ولا اشاتمكم ، ولا اتحرش بكم ، ولا آخذ بالقرف (١) ولا الظنة ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم امامكم فو الله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما اني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل » (٢) .

وليس في هذا الخطاب أي ركون إلى وسائل العُنف والشدة ، وانما كان فيه تحذير من مغبة الفتنة وحب للعافية ، وعدم التعرض لمن لا يثب على السلطة ، وعدم أخذ الناس بالظنة والتهمة كما كان يفعل زياد بن أبيه

---

(١) القرف : التهمة

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧ .

والي العراق ، وعلق انيس زكريا على خطاب النعمان بقوله :

« ولنا من خطبه – أي خطب النعمان – في الكوفة برهان آخر على أنه كان يرى الفتنة يقظى ، ولابد أن تشتعل ، وانه لن يهاجم القائمين بها قبل أن يهاجموه ، فجعل لانصارها قوة وطيدة الاركان ، ويدأ فعالة في ترتيب المؤامرة وتنظيمها على الأسس المتينة » (١) :

سخط الحزب الأموي :

وأغضبت سياسة النعمان عملاء الحكم الأموي فانبرى إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي حليف بني امية ، فانكر خطته قائلا :

(إنه لا يُصلح ما ترى الا الغشم (٢) ان هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين ؟ ! » (٣) .

ودافع النعمان عن نفسه بأنه لا يعتمد على أية وسيلة تبعده عن الله ولا يسلك طريقاً يتجافى مع دينه ، وقد استبان للحزب الأموي ضعف النعمان ، وانهياره أمام الثورة .

اتصال الحزب الأموي بدمشق :

وفزع الحزب الأموي من تجاوب الرأي العام مع مسلم ، واتساع نطاق الثورة في حين أن السلطة المحلية اغضت النظر عن مجريات الأحداث

---

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٤١)

(٢) الغشم : الظلم

(٣) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧

وقد اتهمتها بالضعف أو بالتوطأ مع الثوار ، وقام الحزب الاموي باتصال سريع بحكومة دمشق ، وطلبوا منها اتخاذ الاجراءات الفورية قبل أن يتسع نطاق الثورة ، ويأخـــذ العراق استقلاله ، وينفصل عن التبعية لدمشق ، ومن بين الرسائل التي وفــدت على يزيـــد رسالة عبد الله الحضرمي ، جاء فيها :

« أما بعد : فان مسلم بن عقيل ، قـــدم الكوفة ، وبايعته الشيعة للحسين بن علي ، فان كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجـــلا قويا ينفـــذ أمرك ، ويعمل مثـــل عملك في عدوك فان النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعف . » (١) .

وتدعو هذه الرسالة الى اقصاء النعمان عن مركزه ، واستعمال شخص آخر مكانه قوي البطش ليتمكن من القضاء على الثورة ، فان النعمان لا يصلح للقضاء عليها ، وكتب إليـــه بمثل ذلك عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر ابن سعد .

فزع يزيد :

وفزع يزيد حينما توافدت عليـــه رسائل عملائه في الكوفة بمبايعة أهلها للحسين ، فراودته الهواجس ، وظل ينفق ليله ساهراً يطيل التفكير في الأمر فهو يعلم ان العراق مركز القوة في العالم الاسلامي وهو يبغضه ويحقد على أبيه ، فقد أصبح موتراً منهم لما صبوه عليه من الظلم والجور ، وان كراهية أهل العراق ليزيد لا تقل عن كراهيتهم لأبيه ، كما انه على

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧

يقين ان الأغلبية الساحقة في العالم الاسلامي تتعطش لحكم الامام الحسين لأنه الممثل الشرعي لجده وأبيه ، ولا يرضون بغيره بديلا .

استشارته لسرجون :

وأحاطت الهواجس بيزيد ، وشعر بالخطر الذي يهدد ملكه فاستدعى سرجون الرومي ، وكان مستودع أسرار أبيه ، ومن ادهى الناس ، فعرض عليه الأمر ، وقال له :

« ما رأيك ان حسيناً قد توجه إلى الكوفة ، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين ، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيء ، فما ترى من استعمل على الكوفة ؟ » .

وتأمل سرجون ، واخذ يطيل التفكير فقال له :

« أرأيت أن معاوية لو نشر أكنت آخذاً رأيه ؟ »

فقال يزيد : نعم

فأخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة ، وقال : « هذا رأي معاوية وقد مات ، وقد أمر بهذا الكتاب » (١) أما دوافع سرجون في ترشيح ابن زياد لولاية الكوفة فهي لا تخلو من أمرين :

١ — إنه يعرف قسوة ابن زياد وبطشه وأنه لا يقوى أحد على اخضاع العراق غيره فهو الذي يتمكن من القضاء على الثورة بما يملك من وسائل الارهاب والعنف .

٢ — انه قد دفعته العصبية القومية لهذا الترشيح فان ابن زياد رومي النسب وسرجون رومي .

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨ .

ولاية ابن زياد على الكوفة :

وكان يزيد ناقماً على ابن زياد كاشد ما تكون النقمة ، وأراد عزله عن البصرة (١) وذلك لمعارضة أبيه في البيعة له ، الا انه استجاب لرأي سرجون فقد رأى فيه الحفاظ على مصلحة دولته ، فعهد له بولاية الكوفة والبصرة ، وبذلك فقد خضع العراق بأسره لحكمه ، وكتب إليه هذه الرسالة :

« أما بعد : فانه كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين ، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه ، والسلام » .

وأشارت هذه الرسالة إلى مدى قلق السلطة في دمشق وفزعها من مسلم ابن عقيل ، وقد شددت على ابن زياد في الأسراع بالسفر إلى الكوفة لالقاء القبض عليه ، وتنص بعض المصادر ان يزيد كتب إلى ابن زياد « ان كان لك جناحان فطر الى الكوفة » (٢) وهذا مما ينبيء عن الخوف الذي الم بيزيد من الثورة في العراق .

وحمل مسلم بن عمرو الباهلي العهد لابن زياد بولاية الكوفة مع تلك الرسالة ، ويقول المؤرخون ان الباهلي كان من عيون بني أمية في الكوفة ومن أهم عملائهم ، كما كان من أجلاف العرب وهو الذي ظن على مسلم أن يشرب جرعة من الماء حينما جيء به أسيراً الى ابن زياد .

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٢ .

(٢) سير اعلام النبلاء ٣ / ٢٠١ .

وتسلم ابن زياد من الباهلي العهد له بولاية الكوفة ، وقد طار فرحاً فقد تم له الحكم على جميع أنحاء العراق بعدما كان مهدداً بالعزل عن ولاية البصرة ، وقــد سر بما خولته دمشق من الحــكم المطلق على العراق :

وبما سوغت له من استعمال الشدة والقسوة وسفك الدماء لكل من لا يدخل في طاعة يزيد أو يشترك بأية مؤامرة ضده ، وكان هذا التفويض المطلق في استعمال القسوة على الناس مما يتفق مع رغبات ابن زياد وميوله فقد كان من عوامل استمتاعاته النفسية حب الجريمة والاساءة إلى الناس ، وعدم التردد في سفك الدماء .

خطبة ابن زياد في البصرة :

وتهيأ ابن زياد لمغادرة البصرة والتوجه إلى الكوفة ، وقبل مغادرته لها جمع الناس ، وخطب فيهم خطابا قاسيا جاء فيه :

« ان أمير المؤمنين يزيد ولاني الكوفة ، وأنا غاد اليها الغــداة ، فو الله إني ما تقرن بي الصعبة ، ولا يقعقع لي بالشنآن ، واني لنكل لمن عاداني ، وسم لمن حاربني ، انصف القارة من راماها .

يا أهل البصرة قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإياكم والخلاف والارجاف فو الله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خــلاف لأقتلنه وعرينه (١) ووليه ، ولآخذن الأدنى بالاقصى حتى تسمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق . . . أنا ابن زياد اشبهه

---

(١) العرين : الجماعة

بين من وطأ الحصى ، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم » (١) .

ما أهون سفك الدماء عند اولئك البرابرة الوحوش من ولاة بني أمية ! ! لقد تحدث الطاغية عن نفسيته الشريرة التي توغلت في الأثم ، فهو يأخذ البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدبر ، والادنى بالأقصى ، ويقتل على الظنة والتهمة كما كان يفعل أبوه زياد الذي اشاع القتل في ربوع العراق .

سفر الطاغية الى الكوفة :

وسار الخبيث الدنس من البصرة متجهاً الى الكوفة ليقترف أعظم موبقة لم يقترفها شقي غيره ، وقد صحبه من أهل البصرة خمسمائة رجل فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل وشريك بن الأعور الحارثي (٢) وهو من اخلص اصحاب الامام الحسين ، وقد صحب ابن زياد ليكون عيناً عليه ، ويتعرف على خططه ، وقد صحب ابن زياد هذا العدد ليستعين بهم على بث الارهاب ، واذاعة الخوف بين الناس والاتصال بزعماء الكوفة لصرفهم عن الثورة .

وعلى أي حال فقد أخذ ابن زياد يجد في السير لا يلوي على شيء قد واصل السير الى الكوفة مخافة أن يسبقه الحسين اليها ، وقد جهد اصحابه ، واعياهم المسير فسقط منهم جماعة منهم عبد الله بن الحارث فلم يعبأ بهم ، ولما ورد القادسية سقط مولاه (مهران) فقال له ابن زياد :

« إن امسكت على هذا الحال فتنتظر الى القصر فلك مائة الف »

فقال له مهران : لا والله لا استطيع ، ونزل الطاغية فلبس ثياباً

---

(١) الطبري ٦ / ٢٠٠

(٢) الطبري ٦ / ١٩٩

يمانية وعمامة سوداء وتلثم ، ليوهم من رآه أنه الحسين وسار وحده فدخل الكوفة مما يلي النجف (١) وكان قلبه كجناح طائر من شدة الخوف ، ولو كانت عنده مسكة من البسالة والشجاعة لما تنكر وغير بزته ، وأوهم على الناس أنه الحسين . . وقد تذرع الجبان بهذه الوسائل لحماية نفسه ، وتنص بعض المصادر انه حبس نفسه عن الكلام خوفاً من أن يعرفه الناس فتأخذه سيوفهم .

في قصر الامارة :

وأسرع الخبيث نحو قصر الامارة (٢) وقــد علاه الفزع . وساءه كأشد ما يكون الاستياء من تباشير الناس وفرحهم بقدوم الامام الحسين ،

(١) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٦٥)

(٢) قصر الامارة : هو أقدم بناية حكومية شيدت في الاسلام بناها سعد بن أبي وقاص ، وقد اندثرت معالمه ، كما اندثرت جميع معالم الكوفة ماعدا الجامع ، وقد اهتمت مديرية الآثار العامة في العراق بالتعرف عليه ، فكشفت في مواسم مختلفة اسسه ، وقد اظهرت نتائج الحفائر التي اجريت عليه انه يتألف من سور خارجي يضم أربعة جدران تقريباً طولها ١٧٠ متراً ومعــدل سمكها ٤ امتار ، وتدعم كل ضلع من الخارج ستة ابراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي ، حيث يدعمها برجان فقط ، والمسافة مابين كل برج وآخر ٢٤ متر و ٦٠ سنتمتر ، وارتفاع هذا السور بابراجه يصل الى ما يقرب من عشرين مترا ، وقــد بني القصر بناء محكماً ، وصممت هندسته على غاية حربية ليكون في حماية آمنة من كل غزو خارجي جاء ذلك في تخطيط مدينة الكوفة للدكتور كاظم الجنابي (ص ١٣٥ ـ ١٥٥) ـ

ولما انتهى إلى باب القصر وجده مغلقاً ، والنعمان بن بشير مشرف من اعلا القصر ، وكان قد توهم أن القادم هو الحسين لأن اصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته ، فانبرى يخاطبه .

« ما أنا بمؤد إليك اماتني يا بن رسول الله ، ومالي في قتالك من ارب . . » :

ولمس ابن مرجانة في كلام النعمان الضعف والانهيار فصاح به بنبرات تقطر غيظا .

« افتح لا فتحت فقد طال ليلك » .

ولما تكلم عرفه بعض من كان خلفه فصاح بالناس : « انه ابن مرجانة ورب الكعبة » ومن الغريب أن ذلك المجتمع لم يميز بين الامام الحسين وبين ابن مرجانة ، مع أن كلا منهما قد عاش فترة في ديارهم ، ولعل الذي أوقعهم في ذلك تغيير ابن زياد لبزته ، ولبسه للعمامة السوداء .

وعلى أي حال فان الناس حينما علموا انه ابن زياد جفلوا وخفوا مسرعين إلى دورهم ، وهم يتحدثون عما عانوه من الظلم والجور أيام أبيه وقد أوجسوا من عبيد الله الشر . . وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسلاح ، وانفق ليله ساهراً قد جمع حوله عملاء الحكم الأموى فاخذوا يحدثونه عن الثورة ويعرفونه بأعضائها البارزين ، ويضعون معه المخططات للقضاء عليها .

= وقد وقفت عليه غير مرة ، وتطلعت الى كثير من معالمه ، ففي بعض ابوابه الرئيسية مظلات لحراس القصر قد ردمت ولم يبق منها إلا بعض معالمها ، وفي جانب منه بعض الغرف التي اعدت للسجن ، وقد صممت بشكل غريب ، وفي جانب منه مطابخ القصر ولم يشر الاستاذ الجنابي اليها وقد احكم بناء القصر حتى كان من المتعذر اقتحامه والاستيلاء عليه .

خطابه في الكوفة :

وعندمـــا انبثق نور الصبح أمر ابن مرجانة بجمع الناس في المسجد الأعظم ، فاجتمعت الجماهير ، وقـــد خيم عليها الذعر والخوف ، وخرج ابن زياد متقلـــداً سيفه ومعتماً بعمامة ، فاعتلى اعواد المنبر ، وخطب الناس فقال :

« أما بعد : فان امير المؤمنين — أصلحه الله — ولاني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بانصاف مظلومكم واعطـــاء محرومكم ، وبالاحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مريبكم ، فانا لمطيعكم كالوالد البر الشفيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري ، وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه الصدق ينبىء عنك لا الوعيد . . . » (١) :

وحفل هذا الخطاب بما يلي :

١ — اعلام أهل الكوفة بولايته على مصرهم ، وعزل النعمان بن بشير عنه .

٢ — تعريفهم أن حكومة دمشق قـــد عهدت له بالاحسان على من يتبع السلطة ، ولم يتمرد عليها واستعمال الشدة والقسوة على الخارجين عليها .

ولم يعرض ابن مرجانة في خطابه للامام الحسين وسفيره مسلم خوفا من انتفاضة الجماهير عليه وهو بعد لم يحكم أمره .

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٧)

نشر الارهاب :

وعمد ابن زياد الى نشر الارهاب ، واذاعة الخوف ، ويقول بعض المؤرخين : انه لما أصبح ابن زياد بعد قدومه الى الكوفة صال وجال ، وارعد وابرق ، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة (١) وقد عمد الى ذلك لاماتة الاعصاب ، وصرف الناس عن الثورة .

وفي اليوم التالي أمر بجمع الناس في المسجد . وخرج إليهم بزي غير ما كان يخرج به ، فخطب فيهم خطابا عنيفا تهدد فيه وتوعد ، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد : فانه لا يصلح هذا الأمر الا في شدة من غير عنف ، ولين من غير ضعف ، وان آخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب والولي بالولي » . .

فانبرى إليه رجل من أهل الكوفة يقال له أسد بن عبد الله المري فرد عليه :

« أيها الأمير ، إن الله تبارك وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » انما المرء بجده والسيف بحده ، والفرس بشده ، وعليك أن تقول : وعلينا أن نسمع ، فلا تقدم فينا السيئة قبل الحسنة . . »

وافحم ابن زياد فنزل عن المنبر ودخل قصر الامارة (٢) .

---

(١) الفصول المهمة (ص ١٩٧) وسيلة المآل (ص ١٨٦)

(٢) الفتوح ٥ / ٦٧

تحول مسلم الى دار هانيء :

واضطر مسلم إلى تغيير مقره ، واحاطـة نشاطه السياسي بكثير من السر والكتمان ، فقد شعر بالخطر الذي داهمه حينما قدم الطاغية إلى الكوفة فهو يعلم بخبث هذا الوغد ، وانه لا يرجو لله وقاراً ولا يتحرج من اقتراف الاثم ، وقد أجمع أمره على مغادرة دار المختار لأنه لم تكن عنده قوة تحميه ولم يكن يأوي الى ركن شديد ، فالتجأ الى دار هانيء بن عروة فهو سيد المصر وزعيم مراد ، وعنده من القوة ما يضمن حماية الثورة والتغلب على الأحداث ، فقد كان فيما يقول المؤرخون : اذا ركب يركب معه أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فاذا اجابتها احلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين الف دارع (١) كما كانت له الطاف واياد بيضـاء على أسرته مما جعلتهم يكنون له أعمق الود والاخلاص ،

ومضى مسلم الى دار هذا الزعيم العربي الكبير فرحب به ، واستقبله بحفاوة بالغة ، وتنص بعض المصادر (٢) انه قد ثقل على هانيء استجارة مسلم به ، وعظم عليه أن يتخذ داره معقلا للثورة ، ومركزاً للتجمعات ضد الدولة ، فانه بذلك يعرض نفسه للنقمة والبلاء الا أنه استجاب لمسلم على كره خضوعاً للعادات العربية التي لا تطرد اللاجيء إليها ، وان عانت من ذلك أعظم المصاعب والمشاكل . . والذي نراه انه لا صحـة لذلك فان مسلماً لو شعر منه عدم الرضا ، والقبول لما ركن إليه ، وتحرج كأشد ما يكون التحرج من دخول داره وذلك لمـا توفرت في مسلم من الطاقات التربوية الدينية ، وما عُرف به من الشمم والاباء الذي يبعده كل البعد من

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٨٩

(٢) الأخبار الطوال (ص ٢١٣)

سلوك أي طريق فيــه حرج أو تكلف على الناس ، وبالاضافة الى ذلك فان مسلماً لو لم يحرز منه التجاوب التام ، والايمان الخالص بدعوته لما التجأ اليه في تلك الفترة العصيبة التي تحيط به .

ان من المؤكد ان هانياً لم يستجب لحماية مسلم والدفاع عنه على كره أو حياء ، وانما استجاب له عن رضى وايمان بوحي من دينه وعقيدته .

وعلى أي حال فقد استقر مسلم في دار هانيء واتخذها مقراً للثورة ، وقد احتفى به هانيء ، ودعا القبائل لمبايعته ، فبايعه في منزله ثمانية عشر الفاً (١) وقــد عرف مسلم هانئاً بشؤون الثورة ، وأحاطه علماً بدعاتها وأعضائها البارزين ،

امتناع مسلم من اغتيال ابن زياد :

وذهب معظم المؤرخين إلى أن شريك بن الأعور مرض مرضا شديداً في بيت هانيء بن عروة أو في بيته (٢) فانتهى خبره الى ابن زياد فأرسل إليه رسولاً يعلمه أنه آت لعيادته ، فاغتنم شريك هذه الفرصة فقال لمسلم : « انما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية ، وقد أمكنك الله منه وهو صائر إلي ليعودني فقم فادخل الخزانة حتى اذا اطمأن عندي فاخرج إليه فاقتله ، ثم صر الى قصر الامارة فاجلس فيه فانه لاينازعك فيه أحد من الناس ، وان رزقني الله العافية صرت إلى البصرة فكفيتك أمرها ، وبايع

(١) الأخبار الطوال (ص ٢١٤)

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٥٣ ، والمشهور بين المؤرخين ان شريكاً كان في بيت هانيء لا في بيته فقد كان مقيماً بالبصرة ، وجاء مع ابن زياد الى الكوفة .

لك أهلها » (١) .

وكره هانيء أن يقتل ابن زياد في داره تمسكاً بالعادات العربيـة التي لا تبيح قتل الضيف والقاصد إليها في بيوتها (٢) فقال له :

« ما أحب أن يقتل في داري »

فقال له شريك : « ولم فو الله ان قتله لقربان الى الله »

ولم يعن شريك بهانيء والتفت الى مسلم يحثه على اغتيال ابن زياد قائلا له : « لا تقصر في ذلك » وبينما هم في الحديث واذا بالضجة على الباب فقد أقبل ابن مرجانة مع حاشيته ، فقام مسلم ودخل الخزانة مختفياً بها ، ودخل ابن زياد فجعل يسأل شريكا عن مرضه ، وشريك يجيبه ، ولما استبطأ شريك خروج مسلم جعل يقول :

ما الانتظار بسلمى أن تحيوها   حيوا سليمى وحيوا من يحيها

كأس المنية بالتعجيل فاسقوها (٣)

---

(١) الأخبـار الطوال (ص ٢١٤) مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩ ، وذهب بعض المؤرخين الى أن الذي دعا مسلما لاغتيال ابن زياد هو هانيء بن عروة كما في الامامة والسياسة ٢ / ٤ .

(٢) يشير الى ذلك ما جاء في مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) ان هانئاً استقبح قتل ابن زياد في داره .

(٣) مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) وفي مقتـل أبي مخنف أنه أنشد هذه الأبيات :

ما تنظرون بسلمى لا تحييوها   حيوا سليمى وحيوا من يحيهـا

هل شربة عذبة اسقى على ظمأ   ولو تلفت وكانت منيتي فيها

وان تخشيت من سلمى مراقبة   فلست تأمن يوماً من دواهيها =

ورفع صوته ليسمع مسلما قائلا :

« لله أبوك اسقنيها وان كانت فيها نفسي » (١)

وغفل ابن زياد عن مراده ، وظن أنه يهجر فقال لهانيء :

ـ أيهجر ؟

ـ نعم أصلح الله الأمير لم يزل هكذا منذ اصبح (٢)

وفطن مهران مولى ابن زياد ، وكان ذكيا الى مادبر لسيده ، فغمزه ونهض به سريعا فقال له شريك : أيها الأمير إني أريد أن أوصي إليك فقال له ابن زياد : اني اعود إليك والتفت مهران وهو مذعور الى ابن زياد ، فقال له :

« انه أراد قتلك »

فبهر ابن زياد ، وقال «

« كيف مع اكرامي له ؟ ! ! وفي بيت هانيء ويد أبي عنده ! »

ولما ولى الطاغية خرج مسلم من الحجرة ، فالتفت إليه شريك وقلبه يذوب أسى وحسرات قال له :

« مامنعك من قتله ؟ » (٣)

فقال مسلم : منعني منــه خلتان : احداهما كراهية هانيء لقتله في

ـ وفي الفتوح ٥ / ٧٢ والأخبار الطوال (ص ٢١٤) انه أنشد هذا البيت :

ما تنظرون بسلمى عند فرصتها فقدوني ودها واستوسق الصـــرم

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٩)

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠ .

(٣) تأريخ ابن الاثير ٣ / ٢٦٩ ـ ٢٧٠

منزله ، والأخرى قول رسول الله (ص) : ان الايمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن ، فقال له شريك : أما والله لوقتلته لاستقام لك أمرك ، واستوسق لك سلطانك (١) .

ولم يلبث شريك بعد الحادثة الا ثلاثة أيام حتى توفي ، فصلى عليه ابن زياد ودفنه بالثوية ، ولما تبين له ما دبره له شريك طفق يقول : والله لا أصلي على جنازة عراقي ، ولولا أن قبر زياد فيهم لنبشت شريكا (٢)

أضواء على الموقف :

ويتساءل الكثيرون من الناس عن موقف مسلم ، فيلقون عليه اللوم والتقريع ، ويحملونه مسؤولية ما وقـع من الأحداث ، فلو اغتال الطاغية لأنقذ المسلمين من شر عظيم ، وما مني المسلمون بتلك الأزمات الموجعـة التي أغرقتهم في المحن والخطوب . . . أما هذا النقد فليس موضوعياً ، ولا يحمل أي طابع من التوازن والتحقيق ، وذلك لعدم التقائه بسيرة مسلم ولا بواقع شخصيته ، فقـد كان الرجل فذاً من أفذاذ الاسلام في ورعه وتقواه ، وتحرجه في الدين ، فقد تربى في بيت عمه أمير المؤمنين (ع) وحمل اتجاهاته الفكرية ، واتخذ سيرته المشرقة منهاجاً يسير على أضوائها

(١) الأخبار الطوال (ص ٢١٤) وفي تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠ ان هانئاً قال لمسلم : لو قتلته لقتلت فاسقا فاجرا كافرا غادرا ، وذكر ابن نما ان امرأة هانيء تعلقت بمسلم ، وأقسمت عليـه بالله ان لا يقتل ابن زياد في دارها ، فلما علم هانيء قال : يا ويلها قتلتني وقتلت نفسها والذي فرت منه وقعت فيه .

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٢٠٢ ، الاغاني ٦ / ٥٩ .

في حياته ، وقد بنى الامام أمير المؤمنين (ع) واقع حياته على الحق المحض الذي لا التواء فيه ، وتحرج كاعظم ما يكون التحرج في سلوكه فلم يرتكب أي شيء شذ عن هدي الاسلام وواقعه وهو القائل : « قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله » :

وعلى ضوء هذه السيرة بنى ابن عقيل حياته الفكرية ، وتكاد أن تكون هـذه السيرة هي المنهاج البارز في سلوك العلويين يقول الدكتور محمد طاهر دروش :

« كان للهاشميين مجال يحيون فيه ، ولا يعرفون سواه ، فهم منذ جاهليتهم للرياسة الدينية قد طبعوا على ما توحي به من الايمان والصراحة والصدق والعفـة والشرف والفضيلة ، والترفع والخلائق المثالية والمزايا الأدبية والشمائل الدينية والآداب النبوية » (١) .

ان مسلماً لم يقدم على اغتيال عدوه الماكر لأن الايمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن ، وعلق هبـة الدين على هذه الكلمة بقوله : « كلمة كبيرة المغزى ، بعيدة المدى فان آل علي من قوة تمسكهم بالحق والصدق نبذوا الغدر والمكر حتى لدى الضرورة ، واختاروا النصر الآجل بقوة الحق على النصر العاجل بالخديعة ، شنشنة فيهم معروفة عن اسلافهم ، وموروثة في اخلاقهم ، كأنهم مخلوقون لاقامة حكـم العدل والفضيلة في قلوب العرفاء الاصفياء ، وقد حفظ التأريخ لهم الكراسي في القلوب » (٢) .

ويقول الشيخ احمد فهمي :

« فهذا عبيد الله بن زياد ، وهو من هو في دهائه ، وشدة مراسه امكنت مسلماً الفرصة منه اذ كان بين يديه ، ورأسه قريب المنال منـه ،

---

(١) الخطابة في صدر الاسلام ٢ / ١٣ .

(٢) نهضة الحسين (ص ٨٤) :

وكان في استطاعته قتله ولو انه فعل ذلك لحرم يزيد نفساً جبارة ، ويداً فتاكة ، وقوة لا يستهان بها ، ولكن مسلماً متأثر بهدي ابن عمه عاف هذا المسلك وصان نفسه من أن يقتله حيلة ومكراً ، (١) .

ان مهمة مسلم التي عهد بها إليه هي أخذ البيعة من الناس والتعرف على مجريات الأحداث ، ولم يعهد إليه بأكثر من ذلك ، ولو قام بالاغتيال الطاغية لخرج عن حدود مسؤولياته . . على أن الحكومة التي جاء ممثلا لها انما هي حكومة دينيـــة تعني قبل كل شيء بمبادىء الدين والالتزام بتطبيق سننه وأحكامه ، وليس من الاسلام في شيء القيام بعملية الاغتيال .

وقـــد كان أهل البيت (ع) يتحرجون كأشد ما يكون التحرج من السلوك في المنعطفات ، وكانوا ينعون على الأمويين شذوذ أعمالهم التي لا تتفق مع نواميس الدين ، ومـــا قام الحسين بنهضته الكبرى الا لتصحيح الأوضاع الراهنة واعادة المنهج الاسلامي الى الناس . . وماذا يقول مسلم للاخيار والمتحرجين في دينهم لو قام بهذه العملية التي لا يقرها الدين .

وعلى أي حال فقد استمسك مسلم بفضائل دينه وشرفه من اغتيال ابن زياد ، وكان تحت قبضته ، وان من أهزل الأقوال وأوهنها القول بأن عدم فتكه به ناشيء عن ضعفه وخوره ، فان هذا أمر لايمكن أن يصغى إليه فقـــد أثبت في مواقفه البطولية في الكوفة حينما غدر به أهلها مالم يشاهد التأريخ له نظيراً في جميع مراحله ، فقد صمد أمام ذلك الزحف الهائل من الجيوش فقابلها وحده ولم تظهر عليه أي بادرة من الخوف والوهن ، فقد قام بعزم ثابت يحصد الرؤوس ويحطم الجيوش حتى ضجت الكوفـــة من كثرة من قتـــل منها ، فكيف يتهم بطـــل هاشم وفخر عدنان بالوهن والضعف ؟

(١) رسالة الرسول (ص ١٧٨)

المخططات الرهيبة :

وأدت المخططات الرهيبة التي صممها الطاغية الى نجاحه في الميادين السياسية وتغلبه على الأحداث ، فبعد أن كانت الكوفة تحت قبضة مسلم انقلبت عليه رأساً على عقب ، فزج بها الماكر الخبيث الى حرب مسلم ، والقضاء عليه ، ومن بين هذه المخططات .

١ ـ التجسس على مسلم :

وأول بادرة سلكها ابن زياد هي التجسس على مسلم ، ومعرفة جميع نشاطاته السياسية والوقوف على نقاط القوة والضعف عنده ، وقد اختار للقيام بهذه المهمة مولاه معقلا ، وكان من صنائعه ، وتربى في كنفه ، ودرس طباعه ، ووثق باخلاصه ، وكان فطناً ذكياً ، فاعطاه ثلاثة آلاف درهم ، وامره أن يتصل بالشيعة ، ويعرفهم أنه من أهل الشام ، وانه مولى لذي الكلاع الحميري ، وكانت الصبغة السائدة على الموالي هي الاخلاص لأهل البيت (ع) ولذا أمره بالانتساب الى الموالي ، حتى ينفي الشك والريب عنه ، وقال له : انه اذا التقى بهم فليعرفهم بأنه ممن انعم الله عليه بحب أهل البيت (ع) وقد بلغه قدوم رجل الى الكوفة يدعو للامام الحسين ، وعنده مال يريد أن يلقاه ليوصله إليه حتى يستعين به على حرب عدوه ، ومضى معقل في مهمته فدخل الجامع ، وجعل يتجسس ويسأل عمن له معرفة بمسلم ، فارشد الى مسلم بن عوسجة ، فانبرى إليه ، وهو يظهر الاخلاص والولاء للعترة الطاهرة قائلا له :

« إني أتيتك لتقبض مني هذا المال ، وتدلني على صاحبك لأبايعه ،

وان شئت أخذت بيعتي قبل لقائي اياه . . » .

فقال مسلم : لقد سرني لقاؤك اياي لتنال الذي تُحب ، وينصر الله بك أهل نبيه ، وقد ساني معرفة الناس اياي من قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسطوته ، ثم أخذ منه البيعة وأخذ منه المواثيق المغلظة على النصيحة وكتمان الأمر (١) وفي اليوم الثاني أدخله على مسلم فبايعه وأخذ منه المال وأعطاه إلى أبي ثمامة الصائدي ، وكان قد عينه لقبض المال ليشتري به السلاح والكراع ، وكان معقل فيما يقول المؤرخون : أول من يدخل على مسلم ، وآخر من يخرج منه ، وجميع البوادر والاحداث التي تصدر ينقلها بتحفظ في المساء إلى ابن زياد (٢) حتى وقف على جميع اسرار الثورة ·

مع أعضاء الثورة

والذي يواجه أعضاء الثورة من المؤاخذات ما يلي :

أولا : ان معقل كان من أهل الشام الذي عرفوا بالبغض والكراهية لأهل البيت (ع) والولاء لبني أمية والتفاني في حبهم فما معنى الركون إليه ؟

ثانياً : ان اللازم الترتيب حينما أعطى المال لمسلم بن عوسجة وهو يبكي ، فما معنى بكائه أو تباكيه ؟ اليس ذلك مما يوجب الريب في شأنه .

ثالثاً : انه حينما اتصل بهم كان أول داخل وآخر خارج ، فما معنى هذا الاستمرار والمكث الطويل في مقر القيادة العامة ؟ اليس ذلك مما يوجب الشك في أمره ؟ .

لقد كان الأولى بالقوم التحرز منه ، ولكن القوم قد خدعتهم المظاهر المزيفة ، ومن الحق ان هذا الجاسوس كان ماهراً في صناعته ، وخبيراً فيما انتدب إليه

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩

(٢) الأخبار الطوال (ص ٢١٥)

وعلى أي حال فان ابن زياد قد استفاد من عملية التجسس أموراً بالغة الخطورة فقــد عرف العناصر الفعالة في الثورة ، وعرف مواطن الضعف فيها ، وغيرذلك من الأمور التي ساعدته على التغلب على الأحداث

٢ ـ رشوة الزعماء والوجوه :

ووقف ابن زياد على نبض الكوفة ، وعرف كيف يستدرج أهلها فبادر إلى ارشاء الوجوه والزعماء فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودهم ، واستولى على قلوبهم فصارت السنتهم تكيل له المدح والثناء ، وكانوا ساعده القوي في تشتيت شمل الناس وتفريق جموعهم عن مسلم .

لقد استعبدهم ابن مرجانة بما بذله من الأموال فأخلصوا له ومنحوه النصيحة وخانوا بعهودهم ومواثيقهم التي أعطوها لمسلم ، وقد أخبر بعض أهل الكوفة الامام عن هذه الظاهرة حينما التقى به في أثناء الطريق فقال له :

« أما اشراف الناس فقــد عظمت رشوتهم ، وملئت غرائرهم ، يستمال ودهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، وأما سائر الناس فان أفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك » (١) .

لقد تناسى الكوفيون كتبهم التي أرسلوها للامام وبيعتهم له على يد سفيره من أجل الأموال التي أغدقتها عليهم السلطة ، يقول بعض الكتاب :

« ان الجماعات التي أقامها التكبير على بني أمية ، وراسلت الحسين واكدت له اخلاصها ، وذرفت أمام مسلم أعز دموعها هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم والدينار ، وقد ابتاعها فيما بعد مصعب

(١) تأريخ الطبري ٦ / ٢٣٣ .

ابن الزبير فتخلوا عن المختار ، وتركوه وحيداً يلقى حتفه ثم اشتراها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فتخلوا عن مصعب ، وتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك بن مروان » (١) .

الاحجام عن كبس دار هانيء :

وعلم الطاغية ان هانئاً هو العضو البارز في الثورة ، فقد اطلعه الجاسوس الخطير معقل على الدور الفعال الذي يقوم به هانيء في دعم الثورة ، ومساندتها بجميع قدراته ، وعرفه أن داره اصبحت المركز العام للشيعة ، والمقر الرئيسي لسفير الحسين مسلم . . . فلماذا لم يقم بكبسها وتطويقها بالجيش ليقضي بذلك على الثورة ، وانما احجم عن ذلك لعجزه عسكرياً ، وعدم مقدرته على فتح باب الحرب فان دار هانيء مع الدور التي كانت محيطة بها كانت تضم أربعة آلاف مقاتل ممن بايعوا مسلماً بالاضافة الى اتباع هانيء ومكانته المرموقة في المصر ، فلهذا لم يستطع ابن زياد من القيام بذلك نظراً للمضاعفات السيئة .

رسل الغدر :

وانفق ابن زياد لياليه ساهراً يطيل التفكير ، ويطيل البحث مع حاشيته في شأن هانيء ، فهو أعز من في المصر ، وأقوى شخصية يستطيع القيام بحماية الثورة ، ولا يدع مسلما فريسة لأعدائه ، فاذا قضى عليه فقد استأصل الثورة من جذورها ، وقد أعرضوا عن القاء القبض عليه ،

---

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (ص ٦٩ ـ ٧٠)

وتطويق داره فان ذلك ليس بالأمر الممكن ، وقد اتفق رأيهم على خديعته بارسال وفد اليه من قبل السلطة يعرض عليه رغبة ابن زياد في زيارته ، فاذا وقع تحت قبضته فقد تم كل شيء ، ويكون تشتيت اتباعه ليس بالأمر العسير ، وشكلوا وفداً لدعوته وهم :

١ – حسان بن اسماء بن خارجة زعيم فزارة

٢ – محمد بن الأشعث زعيم كندة

٣ – عمرو بن الحجاج

ولم يكن لحسان بن أسماء علم بالمؤامرة التي دبرت ضـــد هانيء ، وانما كان يعلم بها محمد بن الأشعث وعمرو بن الحجاج ، وقد أمرهم ابن زياد أن يحملوا له عواطفه ورغبته الملحـــة في زيارته ، ويعملوا جاهدين على اقناعه .

اعتقال هانيء :

واسرع الوفد إلى هانيء عشية فوجدوه جالساً على باب داره فسلموا عليه ، وقالوا له :

« ما يمنعك من لقاء الأمير فانه قـــد ذكرك ؟ وقال : لو أعلم أنه شاك لعدته » .

فقال لهم : الشكوى تمنعني

وابطلوا هذا الزعم وقالوا له : إنه قد بلغه انك تجلس كل عشية على باب دارك ، وقـــد استبطاك ، والابطاء والجفاء لا يحتمله السلطان ، أقسمنا عليك لما ركبت معنا .

وأخذوا يلحون عليه في زيارته فاستجاب لهم على كره فدعا بثيابه

فلبسها ، ودعا ببغلة فركبها فلما كان قريباً من القصر احست نفسه بالشر فعزم على الانصراف وقال لحسان بن سماء : يابن الأخ إني والله لخائف من هذا الرجل فما ترى ؟ فقال حسان : يا عم والله ما اتخوف عليك شيئاً ولم تجعل على نفسك سبيلا ؟ واخذ القوم يلحون عليه حتى ادخلوه على ابن مرجانة ، فاستقبله بعنف وشراسة ، وقال :

« أتتك بخائن رجلاه »

وكان شريح الى جانبه ، فقال له :

أريد حياته (١) ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

وذعُر هانيء فقال له :

« ما ذاك أيها الأمير ؟ »

فصاح به الطاغية بعنف

« ايه يا هانيء ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين ؟ جئت بمسلم بن عقيل فادخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أن ذلك يخفى علي ؟ » .

فأنكر ذلك هانيء وقال :

« ما فعلت ذلك وما مسلم عندي »

« بلى قد فعلت »

وطال النزاع واحتدم الجدال بينهما ، فرأى ابن زياد ان يحسم النزاع فدعا معقلا الذي جعله عيناً عليهم فلما مثل عنده قال لهانيء

« اتعرف هذا ؟ »

« نعم »

---

(١) يروى (حباءه) من العطاء

واسقط ماني يدي هانيء ، واطرق برأسه الى الأرض ، ولكن سرعان ما سيطرت شجاعته على الموقف ، فانتفض كالأسد ، وقال لابن مرجانة :

« قد كان الذي بلغك ، وان اضيع يدك عندي (١) تشخص لأهل الشام انت واهل بيتك سالمين بأموالكم ، فانه جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك . . . » (٢) .

فثار ابن زياد وصاح به :

« والله لا تفارقني حتى تأتيني به »

وسخر منه هانيء ، وانكر عليه قائلا له مقالة الرجل الشريف :

« لا آتيك بضيفي ابدا »

ولما طال الجدال بينهما انبرى الى هانيء مسلم بن عمر الباهلي وهو من خدام السلطة ، ولم يكن رجل في المجلس غريب غيره فطلب من ابن زياد أن يختلي بهانيء ، ليقنعه فأذن له ، فقام وخلا به ناحية بحيث يراهما ابن زياد ويسمع صوتها اذا عــلا ، وحاول الباهلي اقناع هانيء فحذره من نقمة السلطان وان السلطة لا تنوي السوء بمسلم قائلا :

« يا هانيء أنشدك الله ان تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على قومك ، إن هــذا الرجل ـ يعني مسلماً ـ ابن عم القوم ، وليسوا بقاتليه ، ولا ضائريه ، فأدفعه إليه فليس عليك بذلك مخزاة ، ولا منقصة انما تدفعه إلى السلطان . . . » .

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ .

(٢) مروج الذهب ٣ / ٧ ، سمط النجوم العوالي ٣ / ٦١ تأريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٩ وروي كــلامه بصورة أخرى وهي تخالف ما رواه مشهور المؤرخين .

ولم يخف على هانيء هـــذا المنطق الرخيص ، فهو يعلم ان السلطة اذا ظفرت بمسلم فسوف تنكل به ، ولا تدعه حياً وان ذلك يعود عليـــه بالعار والخزي ان سلم ضيفه وافد آل محمد فريسة لهم قائلا :

« بلى والله عليّ في ذلك أعظم العـــار أن يكون مسلم في جواري وضيفي وهو رسول ابن بنت رسول الله (ص) وأنا حي صحيح الساعدين كثير الأعوان ، والله لو لم اكن إلا وحدي لما سلمته أبداً » .

وحفل هذا الكلام بمنطق الأحرار الذين يهبون حياتهم للمثل العليا ولا يخضعون لما يخل بشرفهم .

ولما يئس الباهلي من اقناع هانيء انطلق نحو ابن زياد فقال له :

« أيها الأمير قد أبى ان يسلم مسلماً أو يقتل » (١) .

وصاح الطاغية بهانيء :

« أتأتيني به أو لأضربن عنقك »

فلم يعبأ به هانيء وقال :

« اذن تكثر البارقة حولك »

فثار الطاغية وانتفخت اوداجه وقال :

« والهفا عليك أبا لبارقة تخوفني » (٢)

وصاح بغلامه مهران وقال : خذه ، فأخذ بضفيرتي هانيء ، وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه ، وضربه ضربا عنيفا حتى كسر انفه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى تحطم القضيب وسالت الدماء على ثيابه ، وعمد هانيء الى قائم سيف شرطي محاولا اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه ، فصاح به ابن زياد :

---

(١) الفتوح ٥ / ٨٣

(٢) البارقة : السيوف التي يلمع بريقها

« أحروري احللت بنفسك وحل لنا قتالك » .

و أمر ابن زياد باعتقاله في أحد بيوت القصر (١) واندفع حسان بن اسماء بن خارجة وكان ممن أمن هانئاً وجاء به الى ابن زياد ، وقد خاف من سطوة عشيرته ونقمتهم عليه ، فأنكر عليه مافعله بهانيء قائلا :

« أرسله ياغادر امرتنا ان نجيئك بالرجل فلما اتيناك به هشمت وجهه ، وسيلت دماءه وزعمت أنك تقتله »

وغضب منه ابن زياد فاوعز إلى شرطته بتأديبه فلهز وتعتع ثم ترك وأما ابن الأشعث المتملق الحقير فجعل يحرك رأسه ويقول ليسمع الطاغية .

« قد رضينا بما رأى الأمير لنا كان أم علينا ، انما الأمير مؤدب » (٢)

ولا يهم ابن الأشعث ما اقترفه الطاغية من جريمة في سبيل تأمين مصالحه ورغباته .

انتفاضة مذحج :

وانتهى خبر هانيء إلى اسرته فاندفعت بتثاقل كالحشرات فقاد جموعها الانتهازي الجبان عمرو بن الحجاج الذي لا عهد له بالشرف والمروءة ، فأقبل ومعه مذحج وهو يرفع عقيرته لتسمع السلطة مقالته قائلا :

« أنا عمرو بن الحجاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة » :

وحفل كلامه بالخنوع والمسالمة للسلطة وليس فيه اندفاع لانقاذ هانيء ولذا لم يحفل به ابن زياد فالتفت إلى شريح القاضي فقال له : ادخل على

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١

(٢) تأريخ ابن الاثير ٣ / ٢٧١ .

صاحبهم فانظر إليـــه ، ثم اخرج اليهم فاعلمهم أنه حي ، وخرج شريح فدخل على هانيء فلما بصر به صاح مستجيراً .

« يا للمسلمين أهلكت عشيرتي ؟ ! ! أين أهل الدين أين أهل المصر ! أيخذلونني عدوهم (١) وكان قد سمع الأصوات وضجيج الناس فالتفت الى شريح (٢) قائلا :

« يا شريح : اني لاظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين ، انه ان دخل علي عشرة أنفر انقذوني . » (٣) .

وخرج شريح وكان عليه عين لابن زياد مخافة أن يدلي بشيء على خلاف رغبات السلطة فيفسد عليها أمرها فقال لهم :

« قد نظرت الى صاحبكم وانه حي لم يقتل »

وبادر عمرو بن الحجاج فقال :

« إذا لم يقتل فالحمد لله » (٤) .

وولوا منهزمين كأنمـــا اتيح لهم الخلاص من السجن وهم يصحبون العار والخزي ، وظلوا مثالا للخيانة والجبن على امتـــداد التأريخ ـ وفيما احسب ـ أن هزيمة مذحج بهذه السرعة وعدم تأكدها من سلامة زعيمها جاءت نتيجـــة اتفاق سري بين زعماء مذحج وبين ابن زياد للقضاء على

---

(١) في رواية الطبري : « ايخلونى وعدوهم »

(٢) شريح القاضي ينتمي لاحدى بطون كندة جاء ذلك في الكامل للمبرد (ص ٢١) .

(٣) تأريخ ابن الأثير ٣/٢٧١ ، وجاء في تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١ ان هانئاً قال لشريح : يا شريح اتق الله فانه قاتلي :

(٤) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ .

هانیء ، ولولا ذلك لنفرت مذحج حينما اخرج هانیء من السجن في وضح النهار ، ونفذ فيه حكم الاعدام في سوق الحذائين .

وعلى أي حال فقد خالدت مذحج للذل ، ورضيت بالهوان ، وانبرى شاعر مجهول اخفى اسمه حذراً من لقمة الأمويين وبطشهم فرثى هانئاً ونذد بأسرته محاولا بذلك أن يثير في نفوسهم روح العصبية القبلية ليثأروا لقتيلهم يقول :

فان كنت لا تدرين ما الموت فانظري
إلى هانیء في السوق وأبن عقيـل

إلى بطل قـد هشم السيف وجهه
وآخر يهوي من طمار قتيل (١)

أصابهما أمـر الأمير فأصبحا
أحاديث من يسري بكل سبيل (٢)

ترى جسداً قـد غير الموت لونه
ونضح دم قـد سال كل مسيل

فتى كان أحيى من فتاة حيية
واقطـع من ذي شفرتين صقيل

أيركب اسماء الهماليج آمنـاً
وقـد طلبته مذحج بذحول (٣)

(١) الطمار : اسم لغرفة شيدت فوق قصر الامارة ، وفي اعلاها قتل مسلم بن عقيل ، ورميت جثته إلى الأرض ، وما ذكره ابن ابي الحديد أن الطمار هو الجدار فليس بصحيح .

(٢) وفي رواية « اصابها بغي الامير »

(٣) الهماليج : جمع هملاج وهو نوع من البرذون ، والذحول : جمع ذحل الثأر

تطوف حواليه (مراد) وكلهم على رقبة من سائل ومسول
فان أنتم لم تثأروا بأخيكم فكونوا بغايا أرضيت بقليل (١)

وعلق الدكتور يوسف خليف على هذه الأبيات بقوله : « واللحن هنا ثأر عنيف ، والتعبير فيه قوى صريح بل تصل فيه الصراحة الى درجة الجرأة ، وشجع الشاعر على هذه الجرأة أنه كان في مأمن من بطش الأمويين لأنه استطاع أن يخفي اسمه ، حتى أصبح شخصاً مختلفاً فيه عند بعض الرواة ، ومجهولا تماماً عند بعضهم ، وهو في هذا اللحن لا يتحدث عن الحسين ، ولا عن السياسة ، وانما كل حرصه أن يثير روح العصبية القبلية في نفوس اليمنية ليثأروا لقتيلهم وهو - من أجل هذا - أغفل متعمداً من غير شك ذكر محمد بن الأشعث اليمني ، ولم يذكر إلا أسماء بن خارجة الفزاري على أنه هو المسؤول عن دم هانيء مع أن كليهما كان رسول ابن زياد إليه ، ولكن الشاعر حرص على أن يغفل ذكر ابن الأشعث حتى لا يثير فتنة أو انقساماً بين اليمنية ، وهو في أشد الحاجة إلى أن يوحد صفوفهم حتى يدركوا ثأرهم ، واعتمد الشاعر في قصيدته على هذه الصورة المفزعة التي رسمها للقتيلين اللذين هشم السيف وجه أحدهما والقى بالآخر من أعلى القصر ، واللذين أصبحا أحاديث للناس في كل مكان . وهو حريص في هذه الصورة على أن يعرض الناس منظرين رهيبين يثيران في نفوسهم كل عواطف الحزن والسخط والانتقام : منظر هذين الجسدين وقد

(١) في مروج الذهب ٢ / ٧٠ انها لشاعر مجهول وكذلك في الأغاني ١٣ / ٣٥ ، وفي جمهرة الانساب (ص ٢٢٨) انها للاخطل ، وفي مقاتل الطالبيين (ص ١٠٨) انها لعبد الله بن الزبير الأسدي ، وفي الطبري انها للفرزدق ، وفي الأخبار الطوال (ص ٢١٩) انها لعبد الرحمن ابن الزبير الأسدي وفي لسان العرب ٦ / ١٧٤ انها لسليم بن سلام الحنفي .

غير الموت من لونهما ، وهذا الدم الذي ينضح منها ويسيل كل مسيل ، ثم منظر اسماء بن خارجة وهو يختال في طرقات الكوفة على دوابه التي تتبختر به آمناً مطمئناً ، ويسأل إلى متى سيظل هذا الرجل في امنه وخيلائه ومن حوله قبيلة القتيل تطالبه بالثار ، فلا يجد أشد من طعنها في كرامتها ، فيقول لهم ان لم تثأروا بقتيلكـــم فكونوا بغـــايا ببغي شرفهن بثمن بخس دراهم معدودات (١) .

لقد تنكرت مذحج لزعيمها الكبير فلم تف له حقوقه فتركته أسيراً بيد ابن مرجانة يمعن في ارهاقه من دون أن تحرك ساكنـــاً في حين أنها كانت لها السيادة والسيطرة على الكوفة كما يرى ذلك فلهوزن

وعلى أي حال فقد كان لاعتقال هانىء الأثر الكبير في ذيوع الفزع والخوف في نفوس الكوفيين مما أدى إلى تفرق الناس عن مسلم واخفاق الثورة

ثورة مسلم :

ولما علم مسلم بما جرى على هانىء بادر لاعلان الثورة على ابن زياد لعلمه بأنه سيلقى نفس المصير الذي لاقاه هانئاً ، فاوعز إلى عبد الله بن حازم أن ينادي في أصحابه وقد ملأ بهم الدور ، فاجتمع إليه أربعة آلاف (٢)

(١) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة (ص ٤٦٣ - ٤٦٤) .

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ ، المناقب لابن شهراشوب ٥ / ١٢٦ من مصورات مكتبة الامام امير المؤمنين .

أو اربعون الفاً (١) وهم ينادون بشعار المسلمين يوم بدر .

« يا منصور أمت » (٢) :

وقام مسلم بتنظيم جيشه ، واسند القيادات العامة في الجيش إلى من عرفوا بالولاء والاخلاص لأهل البيت (ع) وهم :

١ ـ عبد الله بن عزيز الكندي : جعله على ربع كندة

٢ ـ مسلم بن عوسجة : جعله على ربع مذحج

٣ ـ أبو ثمامة الصائدي : جعله على ربع قبائل بني تميم وهمدان

٤ ـ العباس بن جعدة الجدلي : جعله على ربع المدينة

واتجه مسلم بجيشه نحو قصر الامارة فاحاطوا به (٣) وكان ابن زياد قد خرج من القصر ليخطب الناس على أثر اعتقاله لهانيء ، فجاء إلى المسجد الأعظم فاعتلى أعواد المنبر ، ثم التفت الى أصحابه فرآهم عن يمينه وشماله وفي ايديهم الأعمدة وقد شهروا سيوفهم للحفاظ عليه ، فهدأ روعه وخاطب اهل الكوفة قائلا :

« أما بعد : يا اهل الكوفة فاعتصموا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة ائمتكم ولا تختلفوا ، ولا تفرقوا فتهلكوا ، وتذلوا ، وتندموا ، وتقهروا ، فلا يجعلن احد على نفسه سبيلا وقد اعذر من انذر » .

وما أتم الطاغية خطابه حتى سمع الضجة واصوات الناس قد علت فسأل عن ذلك فقيل له :

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١ ، تذهيب التهذيب ١ / ١٥٠ للذهبي من مصورات مكتبة الامام امير المؤمنين .

(٢) هذا الشعار فيه تحريض للجيش على الموت في الحرب للتغلب على الأعداء ، وفيه تفاؤل بالنصر .

(٣) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١ .

« الحذر ، الحذر ، هـذا مسلم بن عقيل قـد اقبل في جميع من بايعه . »

واختطف الرعب لونه ، وسرت الرعدة بجميع أوصاله فاسرع الجبان نحو القصر وهو يلهث من شدة الخوف ، فدخل القصر ، واغلق عليـه ابوابه (١) وامتلأ المسجد والسوق من اصحاب مسلم ، وضاقت الدنيا على ابن زياد ، وايقن بالهلاك إذ لم تكن عنده قوة تحميه سوى ثلاثين رجلا من الشرط ، وعشرين رجلا من الأشراف الذين هم من عملائه (٢) ، وقد تزايد جيش مسلم حتى بلغ فيما يقول بعض المؤرخين ثمانية عشر الفا وقد نشروا الأعلام وشهروا السيوف ، وقد ارتفعت اصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه ، وجرى بين اتباع ابن زياد وبين جيش مسلم قتال شديد كما نص على ذلك بعض المؤرخين .

وامعن الطاغيـة في اقرب الوسائل التي تمكنه من انقاذ حكومته من الثورة فرأى ان لا طريق له سوى حرب الأعصـاب ودعايات الارهاب فسلك ذلك .

حرب الاعصاب :

واوعز الطاغية الى جماعة من وجوه اهل الكوفة ان يبادروا ببث الذعر ونشر الخوف بين الناس ، وقـد انتدب للقيام بهـذه المهمة الذوات التالية :

١ ـ كثير بن شهاب الحارثي

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤ ، الفتوح ٥ / ٨٥

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١

٢ – القعقاع بن شور الذهلي

٣ – شبث بن ربعي التميمي

٤ – حجار بن ابجر

٥ – شمر بن ذي الجوشن الضبابي (١)

وانطلق هؤلاء الى صفوف جيش مسلم فاخـــذوا يشيعون الخوف ، ويبثون الأراجيف فيهم ويظهرون لهم الاخلاص والولاء خوفاً عليهم من جيوش اهل الشام فكان ما قاله كثير بن شهاب :

« أيها الناس : الحقوا باهاليكم ، ولا تعجلوا الشر ، ولا تعرضوا انفسكم للقتل ، فان هذه جنود امير المؤمنين – يعني يزيد – قد اقبلت ، وقد اعطى الله الأمير – يعني ابن زياد – العهد لئن اقمتم على حربه ، ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء ، ويفرق مقاتلكم في مغازي أهل الشام من غير طمع ، وأن يأخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، حتى لاتبقى فيكم بقية من أهل المعصية إلا ذاقها وبال ما جرت أيديها » (٢)

وكان هذا التهديد كالصاعقة على رؤوس أهل الكوفة فقد كان يحمل الواناً قاسية من الارهاب وهي :

أ – التهديد بجيوش اهل الشام ، فقد زحفت إليهم ، وهي ستشيع فيهم القتل والتنكيل إن بقوا مصرين على المعصية والعناد .

ب – حرمانهم من العطاء : وقـــد كانت الكوفة حامية عسكرية تتلقى جميع مواردها الاقتصادية من الدولة .

ج – تجميرهم في مغازي اهل الشام ، وزجهم في ساحات الحروب

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٢٠٨

د - انهم إذا اصروا على التمرد فان ابن زياد سيعلن الأحكام العرفية ويسوسهم بسياسة أبيـــه التي تحمل شارات الموت والدمار حتى يقضي على جميع الوان الشغب والعصيان .

وقام بقيـــة عملاء السلطة بنشر الارهاب واذاعة الذعر ، وكان من جملة ما اذاعوه بين الناس .

« يا اهل الكوفة : اتقوا الله ، ولا تستعجلوا الفتنة ، ولا تشقوا عصا هذه الأمة ، ولا توردوا على انفسكم خيول الشام ، فقد ذقتموها ، وجربتم شوكتها . » .

أوبئة الفزع والخوف :

ومرت أوبئة الخوف والفزع في نفوس الكوفيين ، وانهارت اعصابهم وكأن الموت قد خيم عليهم ، فجعل بعضهم يقول لبعض :

« ما نصنع بتعجيل الفتنة ، وغداً تأتينا جموع أهل الشام ، ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا ، وندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم » (١)

وكانت المرأة تأتي ابنها او أخاها أو زوجها ، وهي مصفرة الوجه من الخوف فتتوسل إليه قائلة :

« الناس يكفونك » (٢)

وكان الرجل يأتي الى ولده وأخيه فيملأ قلبـــه رعباً وخوفاً ، وقد نجح ابن زياد في ذلك إلى حد بعيد فقد تغلب على الأحداث ، وسيطر على الموقف سيطرة تامة وقـــد خلع الكوفيون ما كانوا يرتدونه من ثياب

(١) الفتوح ٥ / ٨٧

(٢) تأريخ أبي الفداء ١ / ٣٠٠ ، تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢

التمرد على بني أمية ولبسوا ثياب الذل والعبودية من جراء ذلك الأرهاب الهائل والقسوة في الحكم فكانت الدماء تترقرق بين العمائم واللحى .

هزيمة الجيش :

ومُني جيش مسلم بهزيمة مخزية لم يحدث لها نظير في جميع فترات التاريخ ، فقد هزمته الدعايات المضللة من دون أن تكون في قباله أية قوة عسكرية ، ويقول المؤرخون : ان مسلما كلما انتهى الى زقاق انسل جماعة من اصحابه ، وفروا منهزمين وهم يقولون :

« مالنا والدخول بين السلاطين ! » (١)

ولم يمض قليل من الوقت حتى انهزم معظمهم ، وقد صلى بجماعة منهم صلاة العشاء في الجامع الأعظم فكانوا يفرون في أثناء الصلاة ، وما انهى ابن عقيل صلاته حتى انهزموا باجمعهم بما فيهم قادة جيشه ، ولم يجد احداً يدله على الطريق ، وبقي حيراناً لا يدري إلى اين مسراه ، وموجله (٢) وكان قد اثخن بالجراح فيما يقوله بعض المؤرخين (٣) وقد أمسى طريدا مشرداً لا مأوى يأوي إليه ، ولا قلب يعطف عليه .

---

(١) الدر المسلوك في احوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٨

(٢) مقامات الحريري ١ / ١٩٢

(٣) الفتوح ٥ / ٨٧

في ضيافة طوعة :

وسار القائد العظيم سليل هاشم وفخر عدنان متلدداً في أزقة الكوفة وشوارعها ، ومضى هائماً على وجهه في جهـة كندة (١) يلتمس داراً لينفق فيها بقية الليل ، وقد خلت المدينة من المارة ، وعادت كأنها واحة موحشة ، فقـد اسرع كل واحد من جيشه واعوانه ، الى داره ، واغلق عليـه الأبواب مخافة ان تعرفه مباحث الأمن وعيون ابن زياد بانه كان مع ابن عقيل فتلقي عليه القبض .

واحاطت بمسلم تيارات مذهلة من الهموم ، وكاد قلبه ان ينفجر من شدة الألم وعظيم الحزن ، وقد هاله اجماع القوم على نكث بيعته وغدرهم به ، واستبان له انه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمايته أو يدله على الطريق ، فقد كان لا يعرف مسالك البلد وطرقها . وسار وهو حائر الفكر خائر القوى حتى انتهى الى سيدة يقال لهـا (طوعة) هي سيدة من في المصر رجالا ونساء بما تملكه من انسانية ونبل وكانت ام ولد للاشعث بن قيس اعتقهـا ، فتزوجها اسيد الحضرمي فولدت له بلالا (٢) وكانت السيدة واقفة على الباب تنتظر ابنها ، وترتقب طاوعه للأحداث الرهيبة التي حلت في المصر ، ولما رآها مسلم بادر اليها ، فسلم عليها فردت عليه السلام بتثاقل ، وقالت له :

— ما حاجتك ؟

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٤٠)

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢ ، وفي الفتوح ٥ / ٨٨ انها كانت فيما مضى امرأة قيس الكندي ، فتزوجها رجل من بعده من حضرموت يقال له أسد بن البطين ، فاولدها ولداً يقال له أسد .

- إسقني ماءً

فبادرت إلى دارها ، وجاءته بالماء ، فشرب منه ، ثم جلس فارتابت منه فقالت له :

- ألم تشرب الماء ؟

- بلى

- اذهب الى اهلك ان مجلسك مجلس ريبة (١)

وسكت مسلم ، فاعادت عليه القول بالانصراف وهوساكت ، وكررت عليه القول ثالثاً فلم يجبها فذعرت منه ، وصاحت به !

« سبحان الله ! ! إني لا احل لك الجلوس على بابي ! »

ولما حرمت عليه الجلوس لم يجد بُداً من الانصراف فقال لها بصوت خافت حزين النبرات :

« ليس لي في هـذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك الى اجر ومعروف ؟ ولعلي اكافئك بعد اليوم » .

وشعرت المرأة بأن الرجل غريب ، وانه على شأن كبير ، وله مكانة عظمى يستطيع أن يجازيها على معروفها واحسانها فبادرته قائلة :

« ما ذاك ؟ »

فقال لها وعيناه تفيضان دموعاً :

« أنا مسلم بن عقيل كذبني القوم وغروني »

فقالت المرأة في دهشة واكبار :

« أنت مسلم بن عقيل »

« نعم » (٢)

---

(١) تذهيب التهذيب ١ / ١٥١ للذهبي

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢

وانبرت السيدة بكل خضوع وتقدير فسمحت لضيفها الكبير بالدخول إلى منزلها ، وقـد حازت الشرف والمجد فقـد آوت سليل هاشم ، وسفير ريحانة رسول الله (ص) وأدخلته في بيت في دارها غير البيت الذي كانت تأوي إليه ، وجاءته بالضياء والطعام ، فأبى أن يأكل ، فقد مزق الأسى قلبـه الشريف ، وايقن بالرزء القاصم ، وتمثلت أمامه الأحداث الرهيبة التي سيواجهها ، وكان اكثر ما يفكر به كتابه للحسين بالقـدوم إلى الكوفة

ولم يمض قليل من الوقت حتى جاء بلال ابن السيدة طوعة ، فرأى أمـه تكثر الدخول والخروج الى ذلك البيت لتقوم برعاية ضيفها ، فانكر عليها ذلك ، واستراب منه ، فسالها عنـه ، فانكرته فالح عليها فاخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق بكتمان الأمر . . وطارت لنفس الخبيث فرحاً وسروراً ، وقد أنفق ليله ساهراً يترقب بفارغ الصبر انبثاق نور الصبح ليخبر السلطة بمقـام مسلم عندهم . . وقد تنكر هذا الخبيث للاخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف وحمايته ، فقـد كان هذا الخلق سائداً حتى في العصر الجاهلي . . وانا لنتخذ من هذه البادرة مقياساً عاماً وشاملا لانهيار القيم الاخلاقية والانسانية في ذلك المجتمع الذي تنكر لجميع العادات والقيم العربية .

وعلى أي حال فقد طوى مسلم ليلته حزيناً ، قـد ساورته الهموم ، وتوسد الارق ، وكان فيما يقول المؤرخون قد قضى شطراً من الليل في عبادة الله ما بين الصلاة وقراءة القرآن ، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمه امير المؤمنين (ع) فاخبره بسرعة اللحاق به فايقن عنـد ذلك بدنو الأجل المحتوم منه .

تأكد الطاغية من فشل الثورة :

ولمـــا انهزمت جيوش أهل الكوفة ، وولت الأدبار تصحب معها العار والخيانة ، وقد خلا الجامع الأعظم منهم ، فلم يطمئن الطاغية الجبان من ذلك ، خوفاً من أن يكون ذلك مكيدة وخديعـــة ، فعهد الى اذنابه بالتأكد من انهزام جيش مسلم وأمرهم بان يشرفوا على ظلال المسجد لينتظروا هل كمن أحد من الثوار فيه ؟ واخلدوا يدلون القناديل ، ويشعلون النار في القصب ، ويدلونها بالحبال فتصل الى صحن الجامع ، وفعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر ، فلم يروا انساناً ، فاخبروه بذلك ، فاطمئن بفشل الثورة وايقن بالقضاء عليها (١) .

اعلان حالة الطوارىء :

وأعلن الطاغية في الصباح الباكر حالة الطوارىء في جميع انحاء المصر وقد شدد على المدير العام لشرطته الحصين بن تميم بتنفيذ ما يلي :

أ - تفتيش جميع الدور والمنازل في الكوفة تفتيشاً دقيقـــاً للبحث عن مسلم .

ب - الاحاطة بالطرق والسكك لئلا يهرب منها مسلم .

ج - الاعتقالات الواسعة لجميع المؤيدين للثورة ، وقد القت الشرطة القبض على هؤلاء :

١ - عبد الأعلى بن يزيد الكلبي

٢ - عمارة بن صلخب الازدي

---

(١) تأريخ الطبري ٦ / ٢٠٩ - ٢١٠

٣ ـ عبد الله بن نوفل بن الحارث
٤ ـ المختار الثقفي
٥ ـ الأصبغ بن نباتة
٦ ـ الحارث الأعور الهمداني (١)

راية الأمان :

وأوعز الطاغية الى محمد بن الأشعث أن يرفع راية الأمان ، ويعلن الى الملأ ان من انضم إليها كان آمناً ، ولعل اسباب ذلك ما يلي :

١ ـ التعرف على العناصر الموالية لمسلم لالقاء القبض عليها
٢ ـ اعلان الانتصار والقضاء على الثورة
٣ ـ شل حركة المقاومة ، واظهار سيطرة الدولة على جميع الأوضاع في البلاد .

ورفعت راية الأمان فسارع الكوفيون الذين كانوا مع مسلم الى الانضمام إليها لنفي التهمة واظهار اخلاصهم للحكم القائم آنذاك

اشتباه :

ومن الغريب ما ذكره ابن قتيبة (٢) والحر العاملي (٣) من أن مسلماً كان في بيت المختار ثم خرج لحرب ابن زياد ، وبعد فشل ثورته التجأ

(١) انساب الأشراف ٥ / ٣١٤
(٢) الامامة والسياسة ٢ / ٤
(٣) الدر المسلوك ١ / ١٠٨

الى بيت هانىء ، فاجاره هانىء ، وقال له : ان ابن زياد يدخل داري فاضرب عنقه ، فامتنع مسلم من الفتك به ، وقام ابن زياد باعتقال هانىء ثم أرسل شرطه لالقاء القبض على مسلم فقاتلهم حتى ضعف عن المقاومة فوقع اسيراً بأيديهم ، وهذا الذي أفاداه لم يذهب إليه احد من المؤرخين فان تفصيل الحادثة حسب ما ذكرناه ، وما عداه فهو من الأقوال الشاذة التي نشأت من قلة التتبع .

خطبة ابن زياد :

ولما ايقن الطاغية بفشل ثورة مسلم ، وتفلل قواته المسلحة أمر بجمع الناس في الجامع ، فتوافدت الجماهير ، وقد خيم عليها الذعر والخوف فجاء الطاغية ، وهو يرعد ويبرق ويتهدد ويتوعد فصعد المنبر ، فقال :

« ايها الناس : ان مسلماً بن عقيل أتى هذه البلاد ، وأظهر العناد ، وشق العصا ، وقد برئت الذمة من رجل اصبناه في داره . . ومن جاء به فله ديته ، اتقوا الله عباد الله ، والزموا طاعتكم وبيعتكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، ومن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشرة آلاف درهم ، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية ، وله في كل يوم حاجة مقضية » (١) :

وحفل هذا الخطاب بالقسوة والصرامة وفيه هذه النقاط التالية :

أ ـ الحكم بالاعدام على كل من آوى مسلماً مهما كانت لذلك الشخص من مكانة اجتماعية في المصر .

ب ـ إن دية مسلم تكون لمن جاء به

ج ـ ان من ظفر بمسلم تمنحه السلطة عشرة آلاف درهم

---

(١) الفتوح ٤ / ٩٠

د ـ ان من يأتي به يكون من المقربين عند يزيد ، وينال ثقته

هـ ـ تكافىء السلطة من جاء به بقضاء حاجة له في كل يوم

وتمنى اكثر اولئك الاوغاد الظفر بمسلم لينالوا المكافأة من ابن مرجانة والتقرب الى يزيد بن معاوية .

الافشاء بمسلم :

وطالت تلك الليلة على بلال ابن السيدة الكريمة طوعة التي آوت مسلماً ، فقـــد ظل يترقب بفارغ الصبر طلوع الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم ، ولم يرقد تلك الليلة من الفرح والسرور ، فقد تمت ـ فيما يحسب ـ بوارق آماله واحلامه ، ولمـــا طلع الصبح بادر الى القصر بحالة تلفت النظر إليها من الدهشة ، فقصد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وهو من الأسرة الخبيثة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة فساره ، واعلمه بمكان مسلم عنـــده ، فأمره عبد الرحمن بالسكوت لئلا يسمع غيره فيبادر باخبار ابن زياد فينال الجائزة منه ، واسرع عبد الرحمن الى أبيه محمد بن الأشعث ، فاخبره بالأمر ، وفطن ابن زياد الى خطورة الأمر فبادر يسأل ابن الأشعث قائلا :

ـ ما قال لك : عبد الرحمن ؟

ـ أصلح الله الأمير البشارة العظمى ! !

ـ ما ذاك ؟ مثلك من بشر بخير

ـ ان ابني هذا يخبرني أن مسلماً بن عقيل في دار طوعة

وسر ابن زياد ، ولم يملك أهابه من الفرح ، فانبرى يمني ابن الأشعث بالمال والجاه قائلا :

« قم فأتني به ، ولك ما أردت من الجائزة والحظ الأوفى » .

لقد تمكن ابن مرجانة من الظفر بسليل هاشم ليجعله قرباناً الى امويته اللصيقة التي نحر في سبيلها هو وابوه جميع القيم الانسانية ، واستباحا كل ما حرمه الله من اثم وفساد .

الهجوم على مسلم :

وندب الطاغية لحرب مسلم عمرو بن حريث المخزومي صاحب شرطته ومحمداً بن الأشعث (١) وضم إليهما ثلثمائة رجل من صناديد الكوفة وفرسانها ، واقبلت تلك الوحوش الكاسرة لحرب القائد العظيم الذي أراد أن يحررها من الذل والعبودية ، وينقذها من الظلم والجور . . ولما سمع وقع حوافر الخيل وزعقات الرجال علم أنه قد أتي إليه فبادر الى فرسه فأسرجه والجمه وصب عليه درعه ، وتقلد سيفه ، والتفت الى السيدة الكريمة طوعة فشكرها على ضيافتها ، وأخبرها أنه انما أتي إليه من قبل ابنها الباغي اللئيم قائلا :

« رحمك الله ، وجزاك عني خيرا . . . اعلمي انما أتيت من قبل ابنك . . » (٢) .

واقتحم الجيش عليه الدار فشد عليهم يضربهم بسيفه ، ففروا منهزمين ، ثم عادوا إليه فاخرجهم منها وانطلق نحوهم في السكة شاهراً سيفه لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه وقد أبدى من البطولات النادرة مالم يشاهد لها التأريخ نظيراً في جميع

---

(١) تذهيب التهذيب ١ / ١٥١ .

(٢) الفتوح ٥ / ٩٢ ـ ٩٣

عمليات الحروب ، وكان يقاتلهم وهو يرتجز :

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع
فأنت بكأس الموت لا شك جارع
فصبراً لأمر الله جلّ جلاله
فحكم قضاء الله في الخلق ذايع (١)

وابدى سليل هاشم من الشجاعة وقوة البأس ما حير الألباب ، وابهر المقول ، فقد قتل منهم فيما يقول بعض المؤرخين واحداً وأربعين رجلا (٢) ما عدا الجرحى ، وكان من قوته النادرة أنه يأخذ الرجل بيده ويرمي به من فوق البيت (٣) وليس في تأريخ الانسانية مثل هذه البطولة ، ولا مثل هذه القوة وليس هذا غريباً عليه فعمه علي بن أبي طالب اشجع الناس واقواهم باساً ، واشدهم عزيمة .

واستعمل معه الجبناء من انذال اهل الكوفة الواناً قاسية وشاذة من الحرب فقد اعتلوا سطوح بيوتهم ، وجعلوا يرمونه بالحجارة وقذائف النار (٤) ولو كانت في ميدان فسيح لأتى عليهم ولكنها كانت في الأزقة والشوارع .

فشل الجيوش :

وفشلت جيوش أهل الكوفة ، وعجزت عن مقاومة البطل العظيم فقد اشاع فيهم القتل ، والحق بهم خسائر فادحة وأسرع الخائن الجبان

(١) (٢) مناقب ابن شهراشوب ٢ / ٢١٢
(٣) الدر النضيد (ص ١٦٤) نفس المهموم (ص ٥٧)
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقي ١ / ٤٣

محمد بن الأشعث يطلب من سيده ابن مرجانة أن يمده بالخيل والرجال فقد عجز عن مقاومة مسلم ، ولامه الطاغية قائلا :

« سبحان الله ! ! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به ، فثلم في اصحابك هذه الثلمة العظيمة » (١) .

وثقل هذا التقريع على ابن الأشعث ، فراح يشيد بابن عقيل قائلا :

« اتظن أنك أرسلتني إلى بقال من بقالي الكوفة أو جرمقاني من جرامقة (٢) الحيرة (٣) وانما بعثتني الى أسد ضرغام وسيف حسام في كف بطل همام من آل خير الأنام » (٤) .

وأمده ابن زياد بقوى مكثفة من الجيش ، فجعل البطل العظيم يقاتل وحده وهو يرتجز :

أقسمت لا اقتل إلا حرا	وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
أو يخلط البارد سخناً مرا	رد شعـــاع الشمس فاستقرا
كل امرىء يوماً يلاقي شرا	أخاف أن اكذب او اغرا (٥)

لقد كنت يا بن عقيل سيد الأحرار ، فقد رفعت لواء العزة والكرامة ورفعت شعار الحرية والاباء ، وامـــا خصومك الحقراء فهم العبيد الذين رضوا بالذل والهوان . . . وحلل الدكتور يوسف خليف هـــذا الرجز بقوله : « هو رجز – من الناحية النفسية – صادق كل الصدق ، معبراً

---

(١) الفتوح ٥ / ٦٣

(٢) الجرامقة : قوم من العجم صاروا الى الموصل

(٣) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٨٠)

(٤) الفتوح ٥ / ٩٣

(٥) تاريخ الطبري

تعبيراً دقيقاً عن الموجات النفسية التي كانت تندفع في نفس الشاعر ، وهو في موقفه الضيق الحرج ، فهو قبل كل شيء مصمم على أن يحتفظ بحريته ولو أدى هذا الى قتله ، وهو يعلن في صراحة وصدق أن الموت شيء منكر ولا يقول هذا كما يقوله غيره ممن يغالطون أنفسهم أن الموت شيء محبب الى نفسه ، وانما يعبر عن نفسيته تعبيراً صادقاً ، فالموت شيء لا يحبه ، ولكنه لا يفر منه ما دام قد صمم على الاحتفاظ بحريته . ثم يحاول أن يهدىء من روعه ، ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أن يجذبها في تيارات من الهلع والفزع ، فيحدث عن نفسه بان الدنيا متقلبة ، وكل امرىء فيها لابد أن يلاقي ما يسوؤه ، وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية رائعة .

وأضاف يقول : انه حريص على الحياة ، ولكنه حريص على الحرية يجعله متردداً لأنه يخشى – بل يخاف – أن يكذب عليه اعداؤه او يخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده بأن يموت في سبيل حريته ، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة . أرأيت كيف استطاع أن يصور موقفه الضيق الحرج هذا التصوير الفني الرائع الذي يشمل روعته من تعبيره عن نفسيته تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا تضليل ؟ ان هذا هو السر الذي يجعل هذه الشطور القليلة تؤثر في نفوسنا تأثيراً يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعدله الا صراعه الخارجي مع أعدائه » (١) .

---

(١) حياة الشعر في الكوفة (ص ٣٧١ – ٣٧٢)

أمان ابن الاشعث :

ولما سمع محمد بن الأشعث رجز مسلم الذي أقسم فيه أن يموت ميتة الأحرار ، وأن لا يخدع ولا يغر انبرى إليه قائلا : « انك لا تكذب ولا تخدع ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك » (١) ؛

فلم يعتن به مسلم ، وانما مضى يقاتلهم أعنف القتال وأشده ، ففروا منهزمين من بين يديه ، واعتلوا فوق بيوتهم يرمونه بالحجارة ، فانكر عليهم مسلم ذلك قائلا :

« ويلكم ! ! مالكم ترمونني بالحجارة ، كما تُرمى الكفار ! ! وأنا من أهل بيت الأبرار ، ويلكم أما ترعون حق رسول الله (ص) وذريته . . » .

ولم يستطيعوا مقابلته وجبنوا عن مقاتلته ، وضاق بابن الأشعث أمره فصاح بالجيش : ذروه حتى أكلمه ، ودنا منه ، فخاطبه :

« يا بن عقيل ، لا تقتل نفسك ، أنت آمن ، ودمك في عنقي »

ولم يحفل به مسلم فانه على علم بأن الأشعث لم يمر في تأريخه ولا في تأريخ أسرته أي معنى من معاني الشرف والنبل والوفاء ، فاندفع يقول له :

« يا بن الأشعث ، لا أعطي بيدي أبداً ، وأنا أقدر على القتال ، والله لا كان ذلك أبداً . » .

وحمل مسلم على ابن الأشعث ففر الجبان يلهث كانه الكلب ، وأخذ العطش القاسي من مسلم مأخذاً عظيماً فجعل يقول :

« اللهم ان العطش قد بلغ مني » .

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣

وتكاثرت الجنود عليه الا انها مُنيت بالذعر والجبن ، وصاح بهم ابن الأشعث :

« إن هذا هو العار والفشل ان تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع احملوا عليه باجمعكم حملة واحدة » (١) .

وحملوا عليه حملة واحدة فضربه بكير بن حمران الأحمري ضربة منكرة على شفته العليا ، وأسرع السيف الى السفلى ، وضربه مسلم ضربة أردته الى الأرض .

أسره :

وبعدما أثخن مسلم بالجراح ، واعياه نزيف الدم ، انهارت قواه ، وضعف عن المقاومة فوقع أسيراً بأيدي اولئك الأوغاد ، فتسابقوا الى ابن زياد يحملون له البشرى بأسرهم للقائد العظيم الذي جاء ليحررهم من الذل والعبودية ، وقد طار الطاغية فرحا، فقد ظفر بخصمه ، وتم له القضاء على الثوره . . . أمـــا كيفية أسره فقـــد اختلفت فيها أقوال المؤرخين ، وهذه بعضها :

١ ـ ما ذكره ابن اعثم الكوفي أن مسلماً وقف ليستريح مما ألمّ به من الجروح ، فطعنه من خلفه رجل من أهل الكوفة طعنة غادرة فسقط إلى الأرض فأسرعوا الى أسره (٢)

٢ ـ ما ذكره الشيخ المفيد ان مسلماً لما اثخن بالحجارة وعجز عن القتال اسند ظهره الى جنب دار فقال له ابن الأشعث : لك الأمان :

---

(١) الفتوح ٥ / ٩٤ ـ ٩٥

(٢) الفتوح ٥ / ٥٩

فقال مسلم : أآمن ؟ قال : نعم ، فقال للقوم الذين معـــه : إلي الأمان ؟ قالوا لعم : إلا عبيد الله بن العباس السلمي فانه قال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وتنحى ، فقال مسلم : أما لو لم تؤمنولي ماوضعت يدي في أيديكم ، وأتي ببغلة فحمل عليها فاجتمعوا حوله ، وانتزعوا سيفه فكأنه عند ذلك أيس ، فقال : هذا أول الغدر (١) :

٣ ـ ما ذكره ابو مخنف انهم عملوا له حفيرة وستروها بالتراب ، ثم انكشفوا بين يديه ، فحمل عليهم فانكشفوا بين يديه ، فلما انتهى إليها سقط فيها فازدحموا عليـــه وأسروه (٢) وهـــذا القول لم يذهب إليه غير أبي مخنف .

مع عبيد الله السلمي :

ولم يفكر مسلم في تلك الساعة الحرجة بما سيعانيه من القتل والتنكيل على يد الطاغيـــة ابن مرجانة ، وانما شغل فكره ما كتبه للامام الحسين بالقدوم الى هذا المصر ، فقد أيقن أنه سيلاقي نفس المصير الذي لاقاه ، فدمعت عيناه ، وظن عبيد الله بن العباس السلمي أنه يبكي لما صار إليه من الأسر ، فانكر عليه ذلك وقال له :

« ان من يطلب مثل الذي تطلب ، إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك : : » .

فرد عليه مسلم ما توهمه فيه قائلا :

---

(١) الارشاد (ص ٢٣٨) تأريخ ابن الاثير ٣ / ٢٧٣

(٢) مقتل أبي مخنف مخطوط بمكتبـــة السيد محمد سعيد ثابت في كربلا ، وذكر ذلك الطريحي في المنتخب (ص ٢٩٩) .

« إني والله ما لنفسي بكيت ، ولا لها من القتل ارثي ، وإن كنت لم أحب لهـا طرفة عين تلفاً ، ولكن أبكي لأهـلي المقبلين . . . أبكي لحسين . . » (١) .

وازدحمت الشوارع والأزقة بالجماهير الحاشدة لتنظر ما يؤول إليه أمر القائد العظيم وما سيلاقيه من الأمويين ، ولم يستطع أحد منهم أن ينبس ببنة شفة حذراً من السلطة العاتية .

مع الباهلي :

وجيء بمسلم أسيراً تحف به الشرطة وقد شهرت عليه السيوف ، فلما انتهي به إلى قصر الامارة رأى جرة فيها ماء بارد ، وقد أخذ العطش منه مأخذاً اليماً ، فالتفت إلى من حوله قائلا :

« اسقوني من هذا الماء »

فانبرى إليه اللئيم الدنس مسلم بن عمرو الباهلي فقال له :

« أتراها ما أبردها ؟ والله لا تذوق منهـا قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم . »

ولا حد لظلم الانسان ، ولامنتهى لوحشيته وجفائه ، فما يضر اولئك الجفاة لوسقوه الماء وهو أسير بين أيديهم لا يملك من أمره شيئاً ، وكان هذا السمت من التردي وسقوط الاخلاق قد عرف به جميع السفلة الساقطين من قتلة المصلحين . . فانبرى مسلم فاراد التعرف على هذا الانسان الممسوخ الذي تنكر لأبسط القيم الانسانية قائلا له :

« من أنت ؟ »

---

(١) الارشاد (ص ٢٣٨)

فاجابه مفتخراً بأنه من عملاء السلطة الأموية واذنابها قائلا :

« أنا من عرف الحق إذ تركته ، ونصح الأمة ، والامام إذ غششته وسمع وأطاع اذ عصيته . . أنا مسلم بن عمرو » .

أي حق عرفه الباهلي ؟ وأي نصيحة أسداها للأمة هـذا الجلف الجافي ؟ الذي ارتطم في الباطل وماج في الضلال لقد كان منتهى ما يفخر به تماديه في خدمة ابن مرجانة الذي هو صفحة عار وخزى على الانسانية في جميع مراحل التأريخ ورد عليه مسلم بمنطقه الفياض قائلا :

« لأمك الثكل ، ما أجفاك وأفظك واقسى قلبك واغلظك ؟ ! ! أنت يا بن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني » .

واستحيا عمارة بن عقبة (١) من جفوة الباهلي وقسوته ، فدعا بماء بارد ، فصبه في قدح فأخذ مسلم كلما أراد أن يشرب يمتلىء القدح دما وفعل ذلك ثلاثاً فقال وقد ذاب قلبه من الظمأ .

« لو كان من الرزق المقسوم لشربته » (٢) .

وهكذا شاءت المقادير أن يحرم من الماء ويموت ظامئا ، كما حرم من الماء ابن عمه ريحانة الرسول (ص) وسيد شباب أهل الجنة .

مع ابن زياد :

وكان من أعظم ما رزىء به مسلم ان يدخل اسيراً على الدعي ابن مرجانة ، فقـــد ود أن الأرض وارته ، ولايمثل أمامه وقد شاءت المقادير

(١) في الارشاد (ص ٢٣٩) وبعث عمرو بن حريث غـــلاماً له فجاء بقلة عليها منديل وقدح فصب فيه ماءً ، وقال له : اشرب

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣ .

ان يدخل عليه وقد دخل تحف به الشرطة ، فلم يحفل البطل بابن زياد ولم يعن به فسلم على الناس ولم يسلم عليه ، فانكر عليه الحرسي وهو من صعاليك الكوفة قائلا :

« هلا تسلم على الأمير ؟ »

فصاح به مسلم محتقراً له ولأميره !

« اسكت لا أم لك ، مالك والكلام ، والله ليس لي بأمير فأسلم عليه »

وكيف يكون ابن مرجانة أميراً على مسلم سيد الأحرار ، واحد المستشهدين في سبيل الكرامة الانسانية ، انما هو أمير على اولئك الممسوخين الذين لم يألفوا الا الخنوع والذل والعار .

والتاع الطاغية من احتقار مسلم له ، وتبدد جبروته ، فصاح به :

« لا عليك سلمت ام لم تسلم فانك مقتول »

ولم يملك الطاغية سوى سفك الدم الحرام ، وحسب أن ذلك يخيف مسلماً او يوجب انهياره وخضوعه له ، فانبرى إليه بطل عدنان قائلا بكل ثقة واعتزاز بالنفس .

« إن قتلتني فقد قتل من هو شر منك من كان خيراً مني »

وللدعه هـذا الكلام الصارم ، واطاح بغلوائه ، فقـد الحقه مسلم بالجـلادين والسفاكين من قتلة الأحرار والمصلحين ، واندفع الطاغيـة يصيح بمسلم !

« يا شاق ، يا عاق خرجت على امام زمانك ، وشققت عصا المسلمين والقحت الفتنة . . . » .

أي امام خرج عليـه مسلم وأي عصا للمسلمين شقها ، وأي فتنة القحها ؟ انما خرج على قرين الفهود والقرود لقد خرج لينقذ الأمة من محنتها ايام ذلك الحكم الأسود ، وانبرى مسلم يرد عليه قائلا :

« والله ما كان معاوية خليفة باجماع الأمـــة ، بل تغلب على وصي النبي (ص) بالحيلة ، وأخذ منه الخلافة بالغصب ، وكذلك ابنه يزيد . . وأما الفتنة فانما القحتها أنت وابوك زياد من بني علاج .

وأنا ارجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شر بريته ، فو الله ما خالفت ولا كفرت ولا بدلت ، والمه أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن علي ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه وآل زياد » .

وكانت هذه الكلمات أشد على ابن مرجانة من الموت ، فقد كشفت واقعه أمام شرطته وعملائه ، وجردته من كل نزعة انسانية ، وابرزته كأحقر مخلوق على وجه الأرض ، ولم يجد الدعي وسيلة يلجأ إليها سوى الافتعالات الكاذبة التي هي بضاعته وبضاعة ابيه زياد من قبل ، فأخذ يتهم مسلماً بما هو بريء منه قائلا :

« يا فاسق ألم تكن تشرب الخمر في المدينة ؟ »

فصاح به مسلم :

« احق والله بشرب الخمر من يقتل النفس المحرمة ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يسمع شيئاً » .

واسترد الطاغية تفكيره فرأى ان هـــذه الاكاذيب لا تجديه شيئاً فراح يقول له

– منتك نفسك امرأ حال الله بينك وبينه وجعله لأهله

فقال مسلم باستهزاء وسخرية :

– من اهله ؟

– يزيد بن معاوية

– الحمد لله كفى بالله حاكماً بيننا وبينكم

– اتظن ان لك من الأمر شيئاً ؟

- لا والله ما هو الظن ولكنه اليقين

- قتلني الله إن لم اقتلك

- انك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السريرة ، والله لو كان معي عشرة ممن أثق بهم ، وقدرت على شربة ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر ، ولكن ان كنت عزمت على قتلي فاقم لي رجلا من قريش أوصي له بما أريد (١) وسمح له الطاغية بأن يوصي بما أهمه .

وصية مسلم :

ونظر مسلم في مجلس ابن زياد فرأى عمر بن سعد فأحب أن يعهد إليه بوصيته فقال له :

« لا أرى في المجلس قرشياً غيرك (٢) ولي إليك حاجة وهي سر . . » (٣) .

واستشاط ابن زياد غضباً حيث نفاه مسلم من قريش ، وابطل استلحاقه ببني أمية فقد أبطل ذلك النسب اللصيق الذي ثبت بشهادة ابي مريم الخمار ولم يستطع أن يقول ابن زياد شيئاً .

وامتنع ابن سعد من الاستجابة لمسلم أرضاءً لعواطف سيده ابن مرجانة ، وكسبا لمودته ، وقد لمس ابن زياد خوره وخنوعه فأسرها في نفسه

---

(١) الفتوح ٥ / ٩٧ - ٩٩

(٢) جواهر المطالب في مناقب الامام علي بن أبي طالب (ص ١٣٤)

(٣) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤ ، الارشاد (ص ٢٣٩)

ورأى انه خليق بأن يرشحه لقيادة قواته المسلحة التي يزج بها لحرب ريحانة رسول الله (ص) .

وأمر ابن زياد عمر بن سعد بأن يقوم مع مسلم ليعهد إليه بوصيته ، وقام ابن سعد معه فاوصاه مسلم بما يلي :

١ - ان عليه ديناً بالكوفة يبلغ سبعمائة درهم ، فيبيع سيفه ودرعه ليوفيها عنه (١) وقد دل ذلك على شدة احتياطه وتحرجه في دينه ، كما اوصى أن يعطى لطوعة ما يفضل من وفاء دينه .

٢ - أن يستوهب جثتــه من ابن زياد فيواريها (٢) وذلك لعلمه بخبث الأمويين ، وانهم لا يتركون المثلة .

٣ - ان يكتب للحسين بخبره (٣) فقد شغله أمره لأنه كتب إليــه بالقدوم إلى الكوفة وأقبل ابن سعد يلهث على ابن زياد فقال له :

« أتدري أيها الأمير ما قال لي ؟ انه قال كذا وكذا » (٤) :

وانكر عليه ابن زياد ابداءه السر فقال :

« لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أما ماله فهو لك تصنع به ما شئت ، وأما الحسين فان لم يردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نكف عنه ، وأما جثته فانا لن نشفعك فيها » (٥) .

---

(١) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤ ، وفي الطبري ٦ / ٢١٢ ان علي ستمائة درهم ، وفي الأخبار الطوال (ص ٢٤١) ان علي الف درهم .

(٢) تأريخ الطبري ٦ / ٢١٢

(٣) الارشاد (ص ٢٣٩)

(٤) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤

(٥) وفي الارشاد (ص ٢٣٩) امــا جثته فانا لا نبالي اذا قتلناه ما صنع بها .

لقد ترك الطاغية شفاعة ابن سعد في جثة مسلم فقد عزم على التمثيل بها للتشفي منه ، وليتخذ من ذاك وسيلة لارهاب الناس وخوفهم .

الطاغية مع مسلم :

وصاح ابن مرجانة بمسلم فقال له : « بماذا اتيت إلى هذا البلد ؟ شتت أمرهم ، وفرقت كلمتهم ، ورميت بعضهم على بعض » وانطلق فخر هاشم قائلا بكل ثقة واعتزاز بالنفس :

« لست لذلك أتيت هذا البلد ، ولكنكم اظهرتم المنكر ، ودفنتم المعروف ، وتأمرتم على الناس من غير رضى ، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به ، وعملتم فيهم باعمال كسرى وقيصر ، فاتيناهم لنأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، وندعوهم الى حكم الكتاب والسنة ، وكنا اهلا لذلك فانه لم تزل الخلافة لنا منذ قتل امير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ولا تزال الخلافة لنا فانا قهرنا عليها . . . انكم اول من خرج على امام هدى ، وشق عصا المسلمين ، واخذ هذا الأمر غصبا ، ونازع أهله بالظلم والعدوان . . » (١) .

وأدلى مسلم بهذا الحديث عن أسباب الثورة التي اعلنها الامام الحسين على الحكم الأموي ، وقد التاع الطاغية من كلام مسلم ، وتبددت نشوة ظفره ، فلم يجد مسلكاً ينفذ منه لاطفاء غضبه سوى السب للعترة الطاهرة فأخذ يسب علياً والحسن والحسين ، وثار مسلم في وجهه فقال له :

« أنت وأبوك أحق بالشتم منهم ، فاقض ما انت قاض ، فنحن

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠١ .

أهل بيت موكل بنا البلاء » (١) .

لقـد ظل مسلم حتى الرمق الأخير من حياته عالي الهمة ، وجابه الأخطار ببأس شديد ، فكان في دفاعـه ومنطقه مـع ابن مرجانة مثالا للبطولات النادرة .

الى الرفيق الأعلى :

وآن للقائد العظيم أن ينتقل عن هذه الحياة بعـد ما أدى رسالته بامانة واخلاص ، وقد رزق الشهادة على يد الممسوخ القذر ابن مرجانة فندب لقتله بكيراً بن حمران الذي ضربه مسلم ، فقال له :

« خذ مسلماً ، واصعد به إلى أعلى القصر ، واضرب عنقه بيدك ليكون ذلك أشفى لصدرك » .

والتفت مسلم إلى ابن الأشعث الذي أعطاه الأمان فقال له : « يابن الأشعث أما والله لولا انك آمنتني ما استسلمت ، قم بسيفك دوني فقـد اخفرت ذمتك » فلم يحفل به ابن الأشعث (٢) .

واستقبل مسلم الموت بثغر باسم ، فصعد به إلى اعلى القصر وهو يسبح الله ويستغفره بكل طمأنينة ورضا وهو يقول :

« اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا ، وخذلونا » (٣) .

وأشرف به الجلاد على موضع الحذائين فضرب عنقه ، ورمى برأسه

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٢ وفي تأريخ ابن الأثير ، والارشاد ان مسلماً لم يكلم ابن زياد بعد شتمه له .

(٢) الطبري ٦ / ٢١٣

(٣) الفتوح ٥ / ١٠٣

وجسده إلى الأرض (١) وهكذا انتهت حياة هـذا البطل العظيم الذي يحمل نزعات عمه أمير المؤمنين (ع) ومثّل ابن عمه الحسين وقد استشهد دفاعاً عن الحق ودفاعاً عن حقوق المظلومين والمضطهدين

ونزل القاتل الأثيم فاستقبله ابن زياد فقال له :

« ما كان يقول : وأنتم تصعدون به ؟ »

« كان يسبح الله ، ويستغفره ، فلما أردت قتله قلت له : الحمد لله الذي أمكنني منك واقادني منك فضربته ضربة لم تغن شيئاً فقال لي : أما ترى فيّ خدشا تخدشنيه ، وفاءً من دمك ايها العبد » .

فبُهر ابن زياد وراح يبدي اعجابه واكباره له قائلا .

« او فخراً عند الموت ! ! » (٢)

وقـد انطوت بقتل مسلم صفحة مشرقة من اروع صفحات العقيدة والجهاد في الاسلام ، فقد استشهد في سبيل العدالة الاجتماعية ، ومن اجل انقاذ الأمة وتحريرها من الظلم والجور ، وهو اول شهيد من الأسرة النبوية يقتل علناً امام المسلمين ، ولم يقوموا بحمايته والذب عنه .

سلبه :

وانبرى سليل الخيانة محمد بن الأشعث (٣) الى سلب مسلم ، فسلب

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٩

(٢) تأريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤

(٣) الأشعث بن قيس : انما سمي بالأشعث لشعوثة رأسه ، واسمه سعد بن كرب هلك بعد مقتل الامام اميرالمؤمنين (ع) باربعين ليلة وكان عمره ٦٣ سنة ، جاء ذلك في تأريخ الصحابة (ص ٥) أما محمد بن الأشعث فأمه ام فروة اخت ابي بكر لأبيه جاء ذلك في الرياض المستطاب (ص ٨)

سيفه ودرعه ، وهو غير حافل بالعار والخزي ، وقد تعرض للنقد اللاذع من جميع الأوساط في الكوفة ، ويقول بعض الشعراء في هجائه :

وتركت ابن عمك ان تقاتل دونه فشلا ولولا أنت كان منيعا
وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت اسيافاً له ودروعا (١)

وعمد بعض اجلاف اهل الكوفة فسلبوا رداء مسلم وثيابه .

تنفيذ الاعدام في هانىء :

وأمر الطاغية باعدام الزعيم الكبير هانىء بن عروة ، والحاقه بمسلم مبالغة في اذلال زعماء الكوفة واذاعة للذعر والخوف بين الناس ، وقام محمد بن الأشعث فتشفع فيه خوفاً من بطش اسرته قائلا :

« اصلح الله الأمير إنك قد عرفت شرفه في عشيرته (٢) وقد عرف قومه أني واسماء بن خارجة جئنا به إليك ، فأنشدك الله أيها الأمير لما وهبته لي ، فاني أخاف عداوة أهل بيته ، وانهم سادات أهل الكوفة واكثرهم عددا . . . » .

فلم يحفل به ابن زياد ، وانما زبره وصاح به فسكت العبد ، واخرج البطل الى السوق في موضع تباع فيه الأغنام مبالغة في اذلاله ، ولما علم أنه ملاق حتفه جعل يستنجد باسرته ، وقد رفع عقيرته .

« وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم . واعشيرتاه » (٣) .

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٨
(٢) وفي رواية (عرفت شرفه في مصره)
(٣) انساب الأشراف ق ١ ج ١ ص ١٥٥

ولو كانت عند مذحج صبابة من الشرف والنبل لانبرت الى انقاذ زعيمها ، ولكنها كانت كغيرها من قبائل الكوفة ، قد طلقت المعروف ثلاثاً . . وعمد هانىء الى اخراج يده من الكتاف ، وهو يطلب السلاح ليدافع به عن نفسه ، فلما بصروا به بادروا إليه فأوثقوه كتافاً وقالوا له :

« امدد عنقك . »

فاجاب برباطة جأش ورسوخ يقين : « لا والله ماكنت بالذي أعينكم على نفسي » وانبرى إليه وغد من شرطة ابن زياد يقال له : رشيد التركي (١) فضربه بالسيف فلم يصنع به شيئاً ، ورفع هانىء صوته قائلا :

« اللهم الى رحمتك ورضوانك اللهم اجعل هذا اليوم كفارة لذنوبي ، فاني ، انما تعصبت لابن بنت نبيك محمد . . » .

وضربه الباغي ضربة أخرى فهوى إلى الأرض يتخبط بدمه الزاكي ولم يلبث قليلا حتى فارق الحياة (٢) وكان عمره يوم استشهد تسعاً وتسعين سنة (٣) وقد مضى شهيداً دون مبادئه وعقيدته وجزع لقتله الأحرار والمصلحون ، وقد رثاه ابو الأسود الدئلي بقوله :

---

(١) وقد ثأر لدم هانىء عبد الرحمن بن حصين فقتل رشيداً وفي ذلك يقول :

إني قتلت راشداً التركيا وليته أبيض مشرفيا

أرضي بذلك النبيا

جاء ذلك في انساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٥٥ .

(٢) الدر النظيم (ص ١٦٠) من مصورات مكتبة الامام امير المؤمنين أنساب الأشراف ق ١ ج ١ .

(٣) مرآة الزمان (ص ٨٥)

أقول : وذاك من جزع ووجد　　أزال الله ملك بني زياد
هم جدعوا الأنوف وكن شما　　بقتلهم الكريم أخا مراد (١)

ورثاه الأخطل بن زياد بقوله :

ولم يك عن يوم ابن عروة غائبا　　كما لم يغب عن ليلة ابن عقيل
اخو الحرب صراها فليس بنا كل　　جبار ولا وجب الفؤاد ثقيل

السحل في الشوارع :

وعهد الطاغية الى زبانيته وعملائه بسحل جثة مسلم وهانيء في الشوارع والأسواق ، فعمدوا إلى شد أرجلها بالحبال ، واخذوا يسحلونهما في الطرق (٢) وذلك لاخافة العامة وشيوع الارهاب ، وليكونا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالخروج على الحكم الأموي .

لقد سحب هانيء أمام اسرته وقومه ، ولو كان عندهم ذرة من الشرف والحمية لانبروا إلى تخليص جثة زعيمهم من أيدي الغوغاء الذين بالغوا في اهانتها .

صلب الجثتين :

ولما قضى الطاغية اربه في سحل جثة مسلم وهانيء أمر بصلبهما ،

(١) انساب الاشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥ ديوان أبي الأسود .
(٢) انساب الأشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥ ، الدر النظيم (ص ١٦٠) مقتل الخوارزمي ١ / ٢١٥

فصلبا منكوسين (١) في الكناسة (٢) فكان مسلم – فيما يقول المؤرخون – أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم (٣) وقد استعظم المسلمون كأشد ما يكون الاستعظام هذا الحادث الخطير ، فان هذا التمثيل الفظيع انما هو جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الارض فساداً ، ومسلم وهانيء انما هما من رواد الحق ودعاة الاصلاح في الأرض :

وعلى أي حال فقد اخضع الطاغية بعد قتله لمسلم وهانيء – العراق الثائر ، وارتمت جميع اوساطه تحت قدميه بدون أية مقاومة .

الرؤوس الى دمشق :

وعمد ابن مرجانة الى ارسال رأس مسلم وهانيء وعمارة بن صلخب الأزدي (٤) هدية الى سيده يزيد لينال الجائزة ، ويحرز اخلاص الأسرة المالكة له ، وقد أرسل معها هذه الرسالة :

« أما بعد : فالحمد لله الذي أخــذ لأمير المؤمنين بحقه ، وكفاه مؤونة عدوه . اخبر امير المؤمنين اكرمه الله ان مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانيء بن عروة المرادي ، واني جعلت عليهما العيون ، ودسست إليهما الرجال ، وكدتهما حتى استخرجتهما ، وامكن الله منهما فضربت أعناقهما ، وبعثت إليك برأسيهما مع هانيء بن أبي حية الوداعي الهمداني ، والزبير ابن الأروح التميمي ، وهما من أهل السمع والطاعة ، فليسألهما امير المؤمنين

(١) مناقب ابن شهراشوب ٢ / ٩٤

(٢) المناقب والمثالب (ص ١٧٢)

(٣) مروج الذهب ٣ / ٧

(٤) انساب الاشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥

هما أحب فان عندهما علماً وصدقاً وفهما وورعا والسلام » (١)

واحتوت هذه الرسالة على العمليات التي قام بها الطاغية للقضاء على الثورة ، والتي كان من أهمها :

١ - استعانته بالعيون والجواسيس في معرفة شؤون الثورة ، والوقوف على اسرارها ، وقد قام بهذه العملية معقل مولاه .

٢ - انه دس لهانيء العضو البارز في الثورة الرجال حتى صار تحت قبضته ، واعتقله ، وكذلك كاد لمسلم حينما ثار عليه ، فقد أرسل عيون أهل الكوفة ووجوهها مع العرفاء فأخذوا يذيعون الذعر وينشرون الارهاب حتى انهزم جيشه .

جواب يزيد :

ولما انتهت الرؤوس الى دمشق سر يزيد بذلك سروراً بالغاً ، وكتب لابن مرجانة جواباً عن رسالته شكره فيها ، وهذا نصه :

« أما بعد : فانك لم تعد اذ كنت كما أحب ، عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابض ، فقد كفيت ، وصدقت ظني . ورأيي فيك وقد دعوت رسوليك فسألتهما عن الذين ذكرت ، فقد وجدتهما في رأيهما وعقلهما وفهمهما وفضلهما ، ومذهبهما كما ذكرت ، وقد أمرت لكل واحد منهما بعشرة آلاف درهم ، وسرحتهما اليك فاستوص بهما خيرا .

وقد بلغني ان الحسين بن علي قد عزم على المسير الى العراق ، فضع المراصد والمناظر ، واحترس ، واحبس على الظن . واكتب إلي في كل

(١) الطبري ٦ / ٢١٤

يوم بما يتجدد لك من خير أو شر والسلام » (١)

وحفلت هذه الرسالة بالتقدير البالغ لابن زياد ، واضفت عليه صفة الحازم اليقظ ، وانه قد حقق ظن يزيد فيه أنه أهل للقيام بمثل هذه الأعمال الخطيرة . . وقد عرفه يزيد بعزم الامام الحسين على التوجه إلى العراق ، وأوصاه باتخاذ التدابير التالية :

١ - وضع المراصد والحرس على جميع الطرق والمواصلات

٢ - التحرس في أعماله ، وأن يكون حذراً يقظاً .

٣ - اخذ الناس بسياسة البطش والارهاب .

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٩ ، انساب الأشراف ق ١ ج ١ ، ولم يعرض المؤرخون إلى شؤون هذه الرؤوس الكريمة فهل دفنت في دمشق أوفي مكان آخر فقد أهملوا ذلك إلا أنه جاء في مرآة الزمان (ص ٥٩) فيما يخص رأس هانيء ما نصه : انه في هذه السنة : أي سنة (٣٠٢ هـ) ورد الخبر إلى بغداد انه وجد بخراسان بالقصر ازجا فيه الف رأس في برج في اذن كل واحد خيط من ابريسم فيه رقعـــة فيها اسم صاحبه ، وكان من جملتها رأس هانيء بن عروة ، وحاتم بن حنة ، وطلق بن معاذ وغيرهم ، وتأريخهم - أي تأريخ وضعهم في ذلك الأزج - سنة سبعين من الهجرة ، ونقـــل الزركلي في هامش اعلامه ٩ / ٥١ عن صلة تأريخ الطبري ص ٦٢ من حوادث سنة ٣٠٤ هـ انه ورد الى بغداد كتاب من خراسان يذكر فيه انه وجد بالقندهار في ابراج سورها برج متصل بها فيه خمسة آلاف رأس في سلال من حشيش ، ومن هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأساً في اذن كل رأس منها رقعة مشدودة بخيط ابريسم باسم رجل منهم ، وعد منهم هانيء ابن عروة ، وقال : انهم قد وجدوا على حالهم الا انه قد جفت جلودهم والشعر عليها بحالته لم يتغير .

٤ ـ أن يكون على اتصال دائم مع يزيد ، ويكتب له بجميع ما يحدث في القطر وطبق ابن مرجانة جميع ما عهده إليه سيده ونفذ ما يلي :

اعلان الأحكام العرفية :

وبعدما اطاح الطاغية بثورة مسلم قبض على العراق بيد من حديد ، واعلن الأحكام العرفية في جميع انحاء العراق ، واعتمد في تنفيذ خططه على القسوة البالغة فاشاع من الظلم والجور مالا يوصف . فكان اسمه موجباً لاثارة الفزع والخوف في نفوس العراقيين كما كان اسم أبيه زياد من قبل .
لقد فوضت إليه حكومة دمشق السلطات الواسعة ، وأمرته بأخـــذ الناس بالظنة ، واعـــدام كل من يحقـــد على الحكم الأموى ، أوله ضلع بالاشتراك في أية مؤامرة تحاك ضـــده . وبهذه الأساليب الرهيبة ساق الناس لحرب الحسين ، فقد كان يحكم بالموت على كل من يتخلف أو يرتدع عن الخوض في المعركة (١) .

احتلال الحدود العراقية :

واحتل ابن زياد جميع الحدود العراقية احتلالا عسكرياً ، ومنع الناس من الدخول للعراق والخروج منه إلا باذن وتأشير خاص من شرطة الحدود وكانوا اذا أخذوا رجلا اجروا معه التحقيق الكامل فان علموا براءته اطلقوا سراحه ، والا بعثوه مخفوراً الى السلطة المركزية في الكوفة لتجري معه المزيد من التحقيق ، وقد احتاط في هذه الجهة أشد الاحتياط مخافة أن يلج أحد إلى العراق أو يخرج منه من شيعة الامام الحسين ، ويقول المؤرخون

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٥٦)

إنه جعل على جميع المفارق ، ورؤوس المنازل عيونا من عسكره ، كما عين في البر نقاطا ومسالح ترصد جميع الحركات وقد بعث الحصين بن نمير رئيس شرطته الى القادسية ، ومنها الى خفان ، ثم الى القطقطانية وجبل لعلع ورتب في كل مكان جماعة من الفرسان والخيالة لتفتيش الداخل والخارج ، وقد حفظت هذه الاجراءات تلك المناطق من الاشتراك بأي عمل ضد الدولة ، كما حفظت خطوط المواصلات بين الكوفة والشام ، وقد القت الشرطة القبض على مسهر الصيداوي رسول الامام الحسين الى الكوفة ، وبعثته مخفوراً الى ابن زياد ، وسنذكر حديثه في البحوث الآتية :

الاعتقالات الواسعة :

وقام ابن زياد بحملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الشيعة فاعتقل منهم فيما يقول بعض المؤرخين اثني عشر الفا (١) وكان من بين المعتقلين سليمان بن صرد الخزاعي ، والمختار بن يوسف الثقي واربعمائة من الأعيان والرجوه (٢) :

وقد اثارت هذه الاجراءات عاصفة من الفزع والهلع لا في الكوفة فحسب ، وانما في جميع انحاء العراق وقد ابتعد الكوفيون عن التدخل في أية مشكلة سياسية ، ولم تبد منهم أية حركة من حركات المعارضة وايقنوا أن لا قدرة لهم على الاطاحة بالعرش الأموي ، وظلوا قابعين تحت وطأة سياطه القاسية .

(١) المختار مرآة العصر الأموي (ص ٧٤ — ٧٥)

(٢) الدر المسلوك في احوال الانبياء والأوصياء ١ / ١٠٩ .

إخفاق الثورة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتساءل الكثيرون عن الأسباب التي أدت الى اخفاق مسلم في ثورته مع ما كان يتمتع به من القوى العسكرية في حين أن خصمه لم تكن عنده أية قوة يستطيع أن يدافع بها عن نفسه فضلا عن الهجوم والدخول في عمليات القتال ، ويعزو بعضهم السبب في ذلك إلى قلة خبرة مسلم في الشؤون السياسية ، وعجزه من السيطرة على الموقف ، فترك المجال مفتوحاً لعدوه حتى تغلب عليه . . . وهذا الرأي – فيما يبدو – سطحي ليست له أية صبغة من التحقيق ، وذلك لعدم ابتنائه على دراسة الأحداث بعمق وشمول ومن أهمها – فيما نحسب دراسة المجتمع الكوفي ، وما مُني به من التناقض في سلوكه الفردي والاجتماعي ، والوقوف على المخططات السياسية التي اعتمد عليها ابن زياد للتغلب على الأحداث ، والنظر في الصلاحيات المعطاة لمسلم بن عقيل من قبل الامام فان الاحاطة بهذه الأمور توضح لنا الأسباب في اخفاق الثورة وفيما يلي ذلك .

المجتمع الكوفي :

ولابد لنا أن نتحدث بمزيد من التحقيق عن طبيعة المجتمع الكوفي فانه المرآة الذي تنعكس عليه الأحداث الهائلة التي لعبت دورها الخطير في تأريخ الاسلام السياسي ، وان نتبين العناصر التي سكنت الكوفة ، وننظر إلى طبيعة الصلات الاجتماعية فيما بينها ، والحياة الاقتصادية التي كانت تعيش فيها ، فان البحث عن ذلك يُلقي الأضواء على فشل الثورة ، كما يلقي الاضواء على التذبذب والانحرافات الفكرية التي مُني بها هذا المجتمع والتي كان من نتائجها ارتكابه لأبشع جريمة في تأريخ الانسانية ، وهي اقدامه على قتل ريحانة رسول الله (ص) والى القراء ذلك :

الظواهر الاجتماعية :

أمـــا الظواهر الاجتماعية التي تفرد بها المجتمع الكوفي دون بقية الشعوب فهي :

التناقض في السلوك :

والظاهرة الغريبة في المجتمع الكوفي أنه كان في تناقض صريح مع حياته الواقعية ، فهو يقول شيئاً ويفعل ضده ، ويؤمن بشيء ويفعل ماينافيه والحال انه يجب أن تتطابق أعمال الانسان مع ما يؤمن به ، وقـــد أدلى الفرزدق بهذا التناقض حينما سأله الامام عن أهل الكوفة فقال له :

« خلفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مشهورة عليك »

وكان الواجب يقضي أن تذب سيوفهم عما يؤمنون به ، وان يناضلوا عمـــا يعتقدون به ، ولا توجد مثل هـــذه الظاهرة في تأريخ أي شعب من الشعوب .

ومن غرائب هـــذا التناقض ان المجتمع الكوفي قد تدخل تدخلا ايجابياً في المجالات السياسية وهام في تياراتها ، فكان يهتف بسقوط الدولة الاموية ، وقد كاتبوا الامام الحسين لينقذهم من جور الأمويين وبطشهم ، وبعثوا الوفود اليـــه مع آلاف الرسائل التي تحثه على القدوم لمصرهم ، ولمـــا بعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل قابلوه بحماس بالغ ، وأظهروا له الدعم الكامل ، حتى كاتب الامام الحسين بالقدوم إليهم ، ولكن لما دهمهم ابن مرجانة ونشر الرعب والفزع في بلادهم تخلوا عن مسلم ، واقفلوا عليهم بيوتهم وراحوا يقولون :

« مالنا والدخول بين السلاطين »

ان حياتهم العملية لم تكن صدى لعقيدتهم التي آمنوا بها ، فقد كانوا يمنون قادتهم بالوقوف معهم ثم يتخلون عنهم في اللحظات الحاسمة :

ومن مظاهر ذلك التناقض انهم بعدما ارغموا الامام الحسن (ع) على الصلح مع معاوية ، وغادر مصرهم جعلوا ينوحون ويبكون على مافرطوه تجاهه ، ولما قتلوا الامام الحسين (ع) ودخلت سباياه أهل البيت (ع) مدينتهم أخذوا يعجون بالنياحة والبكاء فاستغرب الامام زين العابدين (ع) ذلك منهم وراح يقول :

« إن هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا ، فمن قتلنا ؟ ! ! »

ان فقدان التوازن في حياة ذلك المجتمع جر لهم الويلات والخطوب والقاهم في شر عظيم .

الغدر والتذبذب :

والظاهرة الأخرى في المجتمع الكوفي الغدر ، فقد كان من خصائصهم التي اشتهروا بها ، وقد ضرب بهم المثل فقيل : « اغدر من كوفي » (١) كما ضرب المثل بعدم وفائهم فقيل : « الكوفي لا يوفي » (٢) .

وقد وصفهم امير المؤمنين (ع) بقوله : « اسود رواغة وثعالب رواغة » . وقال فيهم : « إنهم أناس مجتمعة ابدانهم ، مختلفة اهواؤهم وان من فاز بهم فاز بالسهم الأخيب وانه أصبح لا يطمع في نصرتهم

(١) الفرق بين الفرق (ص ٣٦) لعبد القاهر البغدادي

(٢) آثار البلاد (ص ١٦٧) لزكريا القزويني

ولا يصدق قولهم (١) .

لقد كان الجانب العملي في حياتهم هو التقلب والتردد والتخاذل ، وقد غروا زيد بن علي الثائر العظيم فقالوا له : ان معك مائة الف رجل من أهـــل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم (٢) وقد أحصى ديوانه منهم خمسة عشر الفاً كانوا قد بايعوه على النصرة (٣) ثم لما اعلن الثورة هبط عددهم الى مائتي وثمانية عشر رجلا (٤) وقـــد نصح داود بن علي زيداً بأن لا ينخدع بأهل الكوفة فقال له :

« يابن عم إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، اليس قـــد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك علي بن أبي طالب حتى قتـــل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليـــه فانتزعوا رداءه من عنقه ، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه ؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له باوكد الايمان ثم خذلوه واسلموه ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه » (٥) .

وكانوا ينكثون البيعة بعد البيعة ، وقد ألمع الى هذه الظاهرة أعشى همـــدان الذي كان شاعر ثورة محمد بن الأشعث الذي ثار على الحجاج يقول داعياً على اهل الكوفة :

أبى الله إلا أن يتمم نوره	ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا
وينزل ذلاً بالعــراق وأهله	لمـــا نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة	من القول لم تصعد الى الله مصعدا

(١) الامامة والسياسة ١ / ٢٣٨
(٢) تأريخ الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٧
(٣) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨٥
(٤) (٥) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٩

وما نكثوا من بيعة بعد بيعة   اذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا (١)

وقد عرفوا بهذا السمت عند جميع الباحثين ، ويرى « فلهوزن » انهم مترددون متقلبون وانهم لم يألفوا النظام والطاعـة ، وان الاخلاص السياسي والعسكري لم يكن معروفاً لهم على الاطلاق ، واكد ذلك الباحث « وزتر شلبن » يقول : إن من صفاتهم المميزة البارزة الهوائية والتقلب ونقص الثقة بانفسهم (٢) .

ولم يكن هذا التذبذب في حياتهم مقتصراً على العامة ، وانما كان شائعاً حتى عنـد رجال الفكر والأدب فسراقة الشاعر المعروف وقف في وجه المختار ، واشترك في قتاله يوم جبانة السبيع فلما انتصر المختار وقع سراقة أسيراً بين يدي أصحابه فزج به في السجن فأخذ سراقة يستعطفه وينظم القصيد في مدحه ، ويذكر مبادىء ثورته ويبالغ في تمجيده فكان مما قاله فيه :

نصرت على عدوك كل يوم   بكل كتيبـة تنعى حسينا

كنصر محمد في يوم بدر   ويوم الشعب اذ لاقى حنينا

فاسجح (٣) اذ ملكت فلو ملكنا   لجرنا في الحكومة واعتدينا

تقبـل توبة مني فاني   سأشكر إن جعلت النقد دينا

ولما عفا عنه المختار خرج من الكوفة فلم يبعد عنها قليلا حتى أخذ يهجو المختار ويحرض عليه ، وقد قال في هجائه :

الا ابلغ أبا اسحاق أني   رأيت البلق دهما مصمتات

---

(١) تأريخ الطبري ٢ / ١١١٣

(٢) السيادة العربية (ص ٧٤)

(٣) السجح : حسن العفو

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً | علي قتالكم حتى الممات
اری عيني مالم تبصراه | كلانا عالم بالترهات
اذا قالوا : اقول لهم كذبتم | وان خرجوا لبست لهم اداتي (١)

لقد مضى يصب ثورته وسخريته على المختار وأصحابه في نفس الوزن الذي نظم فيه قصيدته السابقة ، ومن الطبيعي ان هذا التناقض في حياتهم كان ناجماً من الاضطراب النفسي ، وعدم التوازن في السلوك :

ومن غرائب ذلك التناقض أن بعضهم كان يحتاط في أبسط الأمور ولا يتحرج من اقتراف أعظم الموبقات ، فقد جاء رجل من أهل الكوفة إلى عبد الله بن عمر يستفتيه في دم البعوض يكون على الثوب اطاهر أم نجس؟ فقال له ابن عمر :

– من أين أنت ؟

– من أهل العراق

فبهر ابن عمر وراح يقول : انظروا الى هذا يسألني عن دم البعوض !! وقد قتلوا ابن بنت رسول الله (ص) وقد سمعته يقول فيه وفي أخيه : هما ريحانتاي من الدنيا (٢) .

ويعزو بعضهم السبب في هذا الاضطراب إلى الظروف السياسية القاسية التي مرت عليهم ، فان الحكم الأموي كان قد عاملهم بمنتهى القسوة والشدة فرماهم بأقسى الولاة وأشدهم عنفاً امثال المغيرة بن شعبة وزياد بن سمية مما جعل الحياة السياسية ضيقة ومتحرجة مما نجم عنه هذا التناقض في السلوك .

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٢٣٤ ، الأخبار الطوال (ص ٢٦٤)

(٢) الصراط السوي في مناقب آل النبي (ص ٩٤) من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين :

التمرد على الولاة :

والطابع الخاص الـذي عرف به المجتمع الكوفي التمرد على الولاة والتبرم منهم ، فلا يكاد يتولى عليهم وال وحاكم حتى أعلنوا الطعن عليه فقد طعنوا في سعد بن أبي وقاص مؤسس مدينتهم واتهموه بأنه لا يحسن الصـلاة (١) فعزله عمرو ولى مكانه الصحابي الجليل عمار بن ياسر ، ولم يلبثوا أن شكوه إلى عمر فعزله ، وولى مكانه أبا موسى الأشعري ، ولم تمض أيام من ولايته حتى طعنوا فيه ، وقالوا : لا حاجة لنا في أبي موسى (٢) وضاق عمر بهم ذرعا وبدا عليه الضجر فسأله المغيرة عن شأنه فقال له :

« ما فعلت هـذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم ، فهل نابك من نائب ؟ » .

فانبرى عمر يشكو إليه الألم الذي داخله من أهل الكوفة قائلا :

« وأي نائب أعظم من مائة الف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير . » (٣) .

وتحدث عمر عنهم فقال :

« من عذيري من أهل الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجروه ، وان وليت عليهم الضعيف حقروه . » (٤) .

لقـد جبلوا على التمرد فهم لا يطيقون الهدوء والاستقرار ، ويرى ديمومبين أن هذه الظاهرة اعتادها الكوفيون من أيام الفرس الذين دأبوا

---

(١) فتوح البلدان (ص ٢٨٧)

(٢) الطبري ، وجاء فيه انهم اتهموه بأنه يتاجر في اقواتهم .

(٣) فتوح البلدان (ص ٢٧٩)

(٤) مختصر كتاب البلدان (ص ١٨٤) لابن الفقيه

على تغيير حكامهم دوماً (١) ويذهب فان فلوتن الى أن العرب المستقرين بالكوفة كانوا قد تعودوا على حياة الصحراء بما فيها من ضغن وشحناء وحب الانتقام ، والتخريب والأخذ بالثأر فلذا تعودوا على التمرد ، وعدم الطاعة للنظام (٢)

الأنهزامية :

والظاهرة الغريبة التي عرف بها المجتمع الكوفي هي الانهزامية ، وعدم الصمود أمام الأحداث فاذا جـد الجد ولوا منهزمين على أعقابهم فقد أجمعوا في حماس على مبايعة مسلم ونصرته ، ولما اعلن الثورة على ابن مرجانة انفضوا من حوله حتى لم يبق معه انسان يدله على الطريق وقد وقفوا مثل هذا الموقف مع زيد بن علي ، فقـد تركوه وحده يصارع جيوش الأمويين ، وراح يقول : « فعلوها حسينية » وبايعوا عبد الله بن معاوية فقالوا له : « ادع الى نفسك فبنو هاشم أولى بالامر من بني مروان » (٣) واخرجوه حيث كان مقيماً ، وأدخلوه القصر فبايعوه ، ولما زحف لقتاله والي الأمويين عبد الله بن عمر فروا منهزمين ونظر عبد الله بن معاوية فاذا الأرض بيضاء من أصحابه فقـد غدر به قائد قواته لأنه كان على اتفاق مع والي الأمويين فانهزم وانهزم معـه الجيش (٤) وكان عيسى بن زيد يقول فيهم « لا اعرف موضع ثقة يفي ببيعته ، ويثبت عند اللقاء » (٥)

(١) النظم الاسلامية (ص ٢٦)
(٢) السيادة العربية (ص ١١)
(٣) (٤) الطبري ٢ / ٣ / ١١٨٨٠
(٥) مقاتل الطالبيين (ص ٤١٨)

مساوىء الاخلاق :

واتصفت الأكثرية الساحقة من أهل الكوفة بمساوىء الأخلاق . يقول فيهم عبدالله بن الحسن انهم : (نفج العلانية ، خور السريرة . هوج الردة ، جزع في اللقاء ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا تشايعهم قلوبهم) ووصفهم الامام أمير المؤمنين (ع) بقوله : « إن أهملتم خضتم ، وإن حوربتم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وإن جئتم الى مشاقة نكصتم » (١) ووصفهم المختار لعبد الله بن الزبير حينما سأله عنهم فقال : « لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء » وعلق ابن الزبير على قول المختار فقال : « هذه صفة عبيد السوء اذا رؤوا أربابهم خدموهم واطاعوهم ، فاذا غابوا عنهم شتموهم » (٢) .

وهجاهم اعشى همدان بقوله :

وجبنا حشاه ربهم في قلوبهم ... فما يقربون الناس الا تهددا
فلا صدق في قول ولا صبر عندهم ... ولكن فخراً فيهم وتزيدا (٣)

ويقول فيهم أبو السرايا :

وما رست اقطار البلاد فلم أجد ... لكم شبهاً فيما وطأت من الأرض
خلافاً وجهلاً وانتشار عزيمة ... ووهنا وعجزاً في الشدائد والخفض
لقد سبقت فيكم الى الحشر دعوة ... فلا عنكم راض ولا فيكم مرضي (٤)

(١) (٢) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨١

(٣) الطبري ٢ / ٢ / ١١١٤

(٤) يشير إلى دعوة الامام الشهيد الحسين (ع) على أهل الكوفة يوم عاشوراء بقوله « ولا يرضي الولاة عنكم أبدا »

سأبعد داري من قلى عن دياركم فذوقوا اذا وليت عاقبة البغض (١)

وحلل الدكتور يوسف خليف هذه الأبيات بقوله : « وأبو السرايا في هذه الأبيات يردد تلك الفكرة القديمة التي عرفت عن أهل الكوفة من انهم أهل شقاق ونفاق ومساوىء أخلاق ، فيصفهم بالشقاق والجهل وتفرق العزيمة والضعف والعجز ، ويرى أن هذه صفاتهم التي تلازمهم دائماً في الحرب والسلم ، وهي صفات لم تجعل أحداً من زعمائهم أو أئمتهم يرضى عنهم ، وهم منفردون بها من بين سائر البشر في جميع اقطار الأرض التي وطأتها قدماه ، ثم يعلن في النهاية ببغضه لهم واعتزامه البعد عنهم ليذوقوا من بعده سوء العاقبة وسوء المصير » (٢) .

ووصفهم ابو بكر الهذلي بقوله : « ان اهل الكوفة قطعوا الرحم ووصلوا المثانة ، كتبوا إلى الحسين بن علي انا معك مائة الف ، وغرروه حتى إذا جاء خرجوا إليه وقتلوه وأهل بيته صغيرهم وكبيرهم ، ثم ذهبوا يطلبون دمه ، فهل سمع السامعون بمثل هذا ؟ » (٣) .

الجشع والطمع :

وهناك نزعة عامة سادت في اوساط المجتمع الكوفي ، وهي التهالك على المادة والسعي على حصولها بكل طريق ، فلا يبالون في سبيلها بالعار والخزي ، ولقد لعبت هذه الجهة دورها الخطير في اخفاق ثورة مسلم ، فقــد بذل ابن زياد الأموال بسخاء للوجوه والاشراف فخفوا إليه سراعاً

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٥٤٤ - ٥٤٦)

(٢) حياة الشعر في الكوفة (ص ٤٤٥)

(٣) مختصر البلدان (ص ١٧٣)

فغدروا بمسلم ، ونكثوا عهودهم ، وقد ملكهم ابن زياد بعطائه فأخرجهم لحرب ريحانة رسول الله (ص) بعد أن أقسموا الايمان المغلظة على نصرته والذب عنه .

التأثر بالدعايات :

وظاهرة أخرى من ظواهر المجتمع الكوفي وهي سرعة التأثر بالدعايات من دون فحص ووقوف على واقعها ، وقد استغل هذه الظاهرة الأمويون ايام «مسكن » فأشاعوا في أوساط الجيش العراقي ان الحسن صالح معاوية وحينما سمعوا بذلك ماجوا في الفتنة وارتطموا في الاختلاف ، فعمدوا الى امتعـــة الامام فنهبوها ، كما اعتدوا عليه فطعنوه في فخذه ولما اذاعت عصابة ابن زياد بين جيوش مسلم أن جيش أهل الشام قد أقبل إليكم فلا تجعلوا أنفسكم عرضـــة للنقمة والعـــذاب ، فلما سمعوا ذلك انهارت اعصابهم ، وولوا منهزمين ، وأمسى ابن عقيل وحده ليس معه انسان يدله على الطريق .

هـــذه بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة ، وهي تكشف عن ضحالة ذلك المجتمع ، وانهياره أمام الأحداث ، فلم تكن له ارادة صلبة ولا وعي اجتماعي أصيل وقد جروا لهم بذلك الويل ، فدمروا قضاياهم المصيرية وتنكروا لجميع حقوقهم ، وفتحوا المجال للطاغية ابن مرجانه أن يتحكم فيهم ويصب عليهم وابلا من العذاب الأليم .

الحياة الاقتصادية :

أما الحياة الاقتصادية في الكوفة فكانت تتسم بعدم التوازن فقد كانت فيها الطبقة الارستقراطية التي غرقت في الثراء العريض فقد منحتها الدولة الأموية أيام عثمان ومعاوية الهبات والامتيازات الخاصة فأثرت على حساب الضعفاء والمحرومين ، ومن بين هؤلاء :

١ - الأشعث بن قيس ، وقد اشترى في أيام عثمان أراضي واسعة في العراق ، وكان في طليعة الاقطاعيين في ذلك العصر ، وهو الذي ارغم الامام على قبول التحكيم لأن حكومته كانت تهدد مصالحه وامتيازاته الخاصة .

٢ - عمرو بن حريث ، وكان أثرى رجل في الكوفة (١) ، وقد لعب دوراً خطيراً في افساد ثورة مسلم وشل حركتها .

٣ - شبث بن ربعي ، وهو من الطبقة الارستقراطية البارزة في الكوفة (٢) ، وهو أحد المخذلين عن مسلم ، كما تولى قيادة بعض الفرق التي حاربت الحسين .

هؤلاء بعض المثرين في ذلك العصر ، وكانوا يداً لابن مرجانة وساعده القوي الذي اطاح بثورة مسلم ، فقد كانوا يملكون نفوذاً واسعاً في الكوفة وقد استطاعوا أن يعلنوا معارضتهم للمختار رغم ما كان يتمتع به من الكتل الشعبية الضخمة المؤلفة من الموالي والعبيد ، وهم الذين اطاحوا بحكومته .

أما الأكثرية الساحقة في المجتمع الكوفي فكانت مرتبطة بالدولة تتلقى موادها المعاشية منها باعتبارها المعسكر الرئيسي للدولة فهي التي تقوم

---

(١) في الطبرى ان عمرو بن حريث كان اكثر أهل الكوفة مالا

(٢) حياة الشعر في الكوفة (ص ١٦٨)

بالانفاق عليها ، وقد عانى بعضهم الحرمان والبؤس ، وقد صور الشاعر الأسدي سوء حياته الاقتصادية بقصيدة يمدح بها بعض نبلاء الكوفة لينال من معروفه وكرمه يقول فيها :

يا أبا طلحة الجواد اغثني ... بسجال من سيبك المقسوم
احي نفسي – فدتك نفسي – فاني ... مفلس – قد علمت ذاك – عديم
أو تطوع لنا بسلت دقيق ... أجره – ان فعلت ذاك – عظيم
قد علمتم – فلا تعامس عني – ... ما قضى الله في طعام اليتيم
ليس لي غير جرة واصيص ... وكتاب منمنم كالوشوم
وكساء أبيعه برغيف ... قد رقعنا خروقه بأديم
واكاف اعارنيه نشيط ... هو لحاف لكل ضيف كريم (١)

أرأيت هذا الفقر المدقع الذي دعا الشاعر الى هذا الاستعطاف والتذلل إنها مشكلة الفقر الذي أخذ بخناقه وعلق شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله : « ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية واحتل جوانب غير قليلة منها فقد كان اساسيا في حياة الناس ، فطبيعي أن يكون أساسياً في فنهم وشعرهم ، أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ، فلم لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفني ، انه يستقر في قاع الحياة ، وقاع الشعر لأن الشعر انما هو تعبير عن الحياة (٢) .

ان الحياة الاقتصادية تؤثر أثراً عميقاً وفعالا في كيان المجتمع ، وتلعب دوراً خطيراً في توجيه المجتمع نحو الخير او الشر ، وقد ثبت أن كثيراً من الجرائم التي يقترفها بعض المصابين في سلوكهم انما جاءت نتيجة لفقرهم وبؤسهم أو لجشعهم على تحصيل المادة ، وقد اندفع اكثر الجيش

(١) حياة الحيوان للجاحظ ٥ / ٢٩٧ – ٢٩٩
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص ١٣٤)

الذي خرج لحرب الامـــام الحسين (ع) حينما مناهم ابن مرجانة بزيادة مرتباتهم التي يتقاضونها من الدولة .

وعلى أي حال فان سوء الحـــالة الاقتصادية في الكوفة كانت من الأسباب الفعالة في اخفاق ثورة مسلم وتحول الجماهير عنه حينما اغدق ابن زياد الأموال على الوجوه والعرفاء وغيرهم فاندفعوا الى القيام بمناهضة مسلم وصرف الناس عنه .

عناصر السكان :

كانت الكوفة أممية قـــد امتزجت فيها عناصر مختلفة في لغاتها ، ومتباينة في طباعها وعاداتها وتقاليدها فكان فيها العربي والفارسي والنبطي الى جانب العبيد وغيرهم ، ولم تعـــد مدينة عربية خالصة كمكة والمدينة وانما كانت مدينة أهلها اخلاط من الناس - كما يقول اليعقوبي - وقد هاجرت إليها هـــذه العناصر باعتبارها المركز الرئيسي للمعسكر الاسلامي فمنها تتدفق الجيوش الاسلامية للجهاد كما تتدفق بها المغانم الكثيرة التي وعد الله بها المجاهدين ، وقد بلغ نصيب الجندي المقاتل من فيء المدائن اثني عشر الفا (١) مما دعا ذلك الى الهجرة إليها باعتبارها السبيل الى الثروة ونلمع الى بعض تلك العناصر .

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤ مختصر كتاب البلدان (ص ١٦٦)

العرب :

وحينما تم تأسيس الكوفة على يد فاتح العراق سعد بن أبي وقاص اتجهت إليها أنظار العرب ، وتسابقوا إلى الهجرة إليها ، فقد سكنها في وقت مبكر سبعون بدريا وثلثمائة من أصحاب الشجرة (١) وقد ترجم ابن سعد في طبقاته مائة وخمسين صحابياً ممن نزلوا الكوفة (٢) ويقول فيها السفاح : « وهي – أي الكوفة – منزل خيار الصحابة وأهل الشرف (٣) أما القبائل العربية التي سكنتها فهي :

القبائل اليمنية :

وتسابقت القبائل اليمنية إلى سكنى الكوفة فكان عددهم – فيما يقول المؤرخون – اثني عشر ألفاً (٤) وهي :

١ – قضاعة
٢ – غسان
٣ – بجيلة
٤ – خثعم
٥ – كندة

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤
(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ٤٣
(٣) مختصر كتاب البلدان (ص ٧٣)
(٤) معجم قبائل العرب ١ / ١٥ ، فتوح البلدان (٢٧٦) معجم البلدان ٧ / ٢٦٧ .

٦ – حضرموت

٧ – الأزد

٨ – مذحج

٩ – حمير

١٠ – همدان

١١ – النخع

فهذه هي الأسر التي تنتمي إلى اليمن ، وقـد استوطنت الكوفة ، ونزلت في الجانب الشرقي من المسجد ، ويرى فلهوزن أن القبائل المشهورة من اليمن وهي مذحج وهمدان وكندة قد كانت لها السيطرة والسيادة على الكوفة ، ويقول عبد الملك بن مروان بعد دخوله الى الكوفة حينما جاءته قبائل مذحج وهمدان :

« ما أرى لأحد مع هؤلاء ، شيئاً »

القبائل العدنانية :

أمـا القبائل العدنانية التي سكنت الكوفة فكان عددها ثمانية آلاف شخص ، وهي تتشكل من اسرتين .

١ تميم

٢ بنو العصر

قبائل بني بكر :

وسكنت الكوفة قبائل بني بكر ، وهي عدة أسر منها :

١ – بنو أسد

٢ ــ غطفان

٣ ــ محارب

٤ ــ نمير

وهناك مجموعة أخرى من القبائل العربية استوطنت الكوفة ، وهي كنانة ، وجديلة ، وضبيعة وعبد القيس ، وتغلب واياد وطي وثقيف وعامر ومزينة (١) ويرى ما سليون انه إلى جانب القرشيين الذين سكنوا الكوفة عناصر شديدة البداوة من سكان الخيـــام وبيوت الشعر ، وأصحاب الأبل من بني دارم التميمي وجيرانهم اليمنيين القدماء من طيء ، وعناصر نصف رحالة من ربيعة ، وأسد من الغرب والشمال الغربي ، وبكر من الشرق والجنوب الشرقي وعبد القيس الذين جاءوا من هجر من الجنوب الشرقي ثم عناصر متحضرة من القبائل الجنوبية الأصيلة من العربية الذين نزحوا من اليمن وحضرموت ، وهؤلاء كانوا قسمين : عناصر نصف متحضرة من كندة وبجيلة وعناصر متحضرة تماماً من سكان المدن والقرى اليمنية من مذحج وحمير وهمدان (٢) .

ان العنصر العربي الذي استوطن الكوفة منذ تأسيسها كان مزيجا من اليمانية والنزارية وغيرها ولكن اليمانية كانت أكثر عدداً كما كان تأثيرها في حياة المجتمع الكوفي أشد من غيرها .

الروح القبلية :

وسادت في قبائل المجتمع العربي في الكوفة الروح القبلية فكانت كل قبيلة

(١) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص ٤٢)

(٢) خطط الكوفة (ص ١٢ ــ ١٣)

تنزل في حي معين لها لا يشاركها فيها الا حلفاؤها ، كما كان لكل قبيلة مسجدها الخاص ، ومقبرتها الخاصة ، ويرى ماسنيون ان جبانات الكوفة هي احدى الصفات المميزة لطبوغرافيتها (١) كما سميت شوارعها وسككها بالقبائل التي كانت تقطن فيها (٢) وغدت المدينة صورة تامة للحياة القبلية وبلغ الاحساس بالروح القبلية والتعصب لها الى درجة عالية ، فكانت القبائل تتنافس فيما بينها على احراز النصر كما حدث في واقعة الجمل . ومن هنا غلب على الحياة فيها طابع الحياة الجاهلية (٣) ، ويحدثنا ابن أبي الحديد عن الروح القبلية السائدة في الكوفة بقوله : « ان أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلته يا للنخع أو يا لكندة ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون يالتميم أو يا لربيعة ، ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة » (٤) .

لقد كانت الروح القبلية هي العنصر البارز في حياة المجتمع الكوفي وقد استغل ابن سمية هذه الظاهرة في القاء القبض على حجر واخماد ثورته فضرب بعض الأسر ببعض ، وكذلك استغل هذه الظاهرة ابنه للقضاء على حركة مسلم وهانيء ، وعبد الله بن عفيف الأزدي .

---

(١) (٢) خطط الكوفة (ص ١٨)

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص ٨٠ - ٨١)

(٤) شرح النهج ٣ / ٢٣٩

الفرس :

وإلى جانب العنصر العربي الذي استوطن الكوفة كان العنصر الفارسي ، وكانوا يسمون الحمراء (١) وقد سألوا عن أمنع القبائل العربية فقيل لهم تميم فتحالفوا معهم (٢) واكبر موجة فارسية استوطنت الكوفة عقيب تأسيسها هي المجموعة الضخمة من بقايا فلول الجيوش الساسانية التي انضمت الى الجيش العربي ، وأخذت تقاتل معه ، وقد عرفت فى التأريخ باسم « حمراء ديلم » فكان عددهم – فيما يقول المؤرخون – أربعة آلاف جندي يرأسهم رجل يسمى (ديلم) قاتلوا معه تحت قيادة رستم في القادسية فلما انهزمت الفرس ، وقتل رستم عقدوا أماناً مع سعد بن أبي وقاص ، وشرطوا عليه أن ينزلوا حيث شاؤوا ، ويحالفوا من أحبوا وان يفرض لهم العطاء ، وقد حالفوا زهرة بن حوية التميمي أحد قادة الفتح ، وفرض لهم سعد في الف الف ، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه كما شهدوا فتح جلولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة (٣) .

وقد كونت هذه الجالية مجموعة كبيرة فى المجتمع الكوفي ، ويذكر فلهوزن انهم كانوا اكثر من نصف سكان الكوفة ، وقد أخذ عددهم بازدياد حتى تضاءلت نسبة العرب في الكوفة ، وتغلبوا في عصر المأمون حتى كانت اللغة الفارسية تحتل الصدارة في ذلك العصر (٤) ويقول الجاحظ :

---

(١) الأخبار الطوال (ص ٢٩٦)

(٢) تأريخ الطبري

(٣) فتوح البلدان (ص ٢٨٠) خطط الكوفة (ص ١١)

(٤) فك العربية (ص ٨٣ – ٨٤)

ان اللغة الفارسية أثرت تأثيراً كبيراً في لغة الكوفة (١) .

وعلى أي حال فان الفرس كانوا يشكلون عنصراً مهماً في الكوفـــة وكونوا بها جالية متميزة فكان أهل الكوفة يقولون : « جئت من حمراء ديلم » (٢) ويقول البلاذري : ان زياداً سير بعضهم إلى الشام ، وسير قوماً منهم إلى البصرة (٣) وقد شاركت هذه الجالية في كثير من الفتوحات الاسلامية ، كما شكلت المد العالي للاطاحة بالحكم الأموي .

الأنباط :

وكانت الانباط من العناصر التي سكنت الكوفة ، وقد أثروا في الحياة العامة تأثيراً عقلياً واجتماعياً ، ويقول المؤرخون : إن الانباط ليسوا عنصراً خاصا من البشر وانما هم من العرب وكانوا يستخدمون اللغـــة الدارمية في كتابتهم ، وكانوا يستوطنون بلاد العرب الصخرية وقد انتقلوا منها إلى العراق ، واشتغلوا بالزراعة ، وكانوا ينطقون بلغتهم الدارمية (٤) .

وقد أثروا تأثيراً بالغاً في حياة الكوفة يقول أبو عمرو بن العـــلاء لأهل الكوفة : « لكم حذلقـــة النبط ، وصلفهم ، ولنـــا دهاء الفرس واحلامهم » (٥) ويروى الطبري أن رجلا من بني عبس أسر رجلا من أهل نهاوند اسمه دينار ، وكان يواصل العبسي ويهدي إليـــه ، وقد قدم

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٩ – ٢٠

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري (ص ٥٥)

(٣) فتوح البلدان (ص ٢٧٩)

(٤) الحضارة الاسلامية (ص ٩٧)

(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٠٦

الكوفة في أيام معاوية فقام في الناس وقال لهم : « يا معشر أهل الكوفة أنتم أول من مررتم بنا كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم ، وفشت فيكم خصال أربع : بخل ، وخب ، وغدر ، وضيق ولم يكن فيكم واحدة منهن فرافقتكم فاذا ذلك في مواليدكم ، فعلمت من أين أتيتم » (١) .

ويرى (دي بود) ان التغير الاجتماعي وتبدل الاخلاق في الكوفة قد نشأ في وقت مبكر أيام معاوية بن أبي سفيان (٢) ومن الطبيعي ان للانباط ضلعا كبيراً في هذا التغيير .

السريانية :

والعنصر الرابع الذي شارك في تكوين الكوفة هي السريانية ، فقد كانت منتشرة في العراق قبل الفتح الاسلامي ، وكان الكثيرون منهم مقيمين على حوض دجلة ، وبعضهم كان مقيماً في الحيرة والكوفة وقد ارتبطوا بأهل الكوفة وتأثروا بعاداتهم واخلاقهم فان الحياة الاجتماعية – كما يقول علماء الاجتماع – حياة تأثير وتأثر فكل انسان يتأثر ويؤثر فيمن حوله .

هذه هي العناصر التي شاركت في استيطان الكوفة وبناء مجتمعها فهي لم تكن عربية خالصة وانما امتزجت بها هذه العناصر ، وقد نشأت بينها المصاهرة ، فنشأ جيل مختلط من هذه العناصر ولكن التغلب الجنسي كان للعرب باعتبارهم الاكثرية الساحقة في القطر ، فقد أصبحت التقاليد

---

(١) تأريخ الطبري

(٢) تأريخ الفلسفة في الاسلام (ص ١٥ – ١٨)

الدينية والعادات الاجتماعية خاضعة للعرب ، كما كانت لهم الكلمة العليا في البلاد . . . وبهذا ينتهي بنا الحديث عن عناصر السكان في الكوفة .

الأديان :

ولم يكن المجتمع الكوفي يدين بدين واحد ، وانما كانت فيه أديان متعددة ، ولكل دين الحرية في اقامة طقوسه الدينية ، وهذه بعضها :

١ ـ الاسلام

وكان الاسلام دين الأكثرية الساحقة للعرب الذين استوطنوا الكوفة فانها انما انشأت لتكون حامية للجنود الاسلامية التي كانت تبعث بهم الدولة لحركات الفتوح ، وعمليات الجهاد ، ولكن الاسلام لم ينفذ إلى أعماق قلوب الكثيرين منهم ، وانما جرى على ألسنتهم طمعاً بثمرات الفتوح التي أفاء الله بها على المجاهدين ، وقد أكد علم الاجتماع ان التحول الاجتماعي لا يكون إلا بعد أجيال واجيال ، وان المجتمع يظل محافظاً على عاداته وتقاليده التي اكتسبها من آبائه ، ويؤيد ذلك ما مني به من الحركات الفكرية التي تتنافى مع الاسلام ، وإلى الانقسامات الخطيرة بين صفوفه ، ونلمع إلى بعض تلك الانقسامات :

الخوارج :

واعتنق هذه الفكرة القراء وأصحاب الجباه السود حينما رفعت المصاحف في صفين ، وقد أرغموا الامام على قبول التحكيم بعد ما مني

معاوية بالهزيمة الساحقة ، فاستجاب لهم الامــام على كره ، وقد حذرهم من أنها مكيدة وخديعة فلم يكن يجدي ذلك معهم ، وأصروا على فكرتهم ولما استبان لهم ضلال ما اقترفوه اقبلوا على الامام وهم يقولون له : إنا قد كفرنا وتبنا ، فاعلن توبتك وقر على نفسك بالكفر ، لنكون معك فأبى (ع) فاعتزلوه ، واتخــذوا لهم شعاراً « لا حكم الا لله » وانغمسوا في الباطل وماجوا في الضلال ، فحاربهم الامــام وقضى على الكثيرين منهم إلا أن البقية الباقية منهم ظلت تواصل نشر افكارها بنشاط ، وقد لعبت دوراً مهماً في افساد جيش الامام الحسن حتى اضطر إلى الصلح مع معاوية ، كما كان أكثر الجيش الذي زجه ابن زياد لحرب الامام الحسين من الخوارج وكانوا موتورين من الامام أمير المؤمنين (ع) فرووا احقادهم من ابنائه الطيبين في كارثة كربلا .

الحزب الأموي :

وهؤلاء يمثلون وجوه الكوفة وزعماءها كقيس بن الأشعث ، وعمرو ابن الحجاج الزبيدي ، ويزيد بن الحرث ، وشبث بن ربعي ، وعمرو بن حريث وعمر بن سعد ، وكانوا يدينون بالولاء لبني أميــة ، ويرون أنهم أحق بالخلافة وأولى بزعامة الأمة من آل البيت (ع) وقــد لعبوا دوراً خطيراً في فشل ثورة مسلم ، كما زجوا الناس لحرب الامام الحسين .

الشيعة :

وهي التي تدين بالولاء لأهل البيت ، وترى أنه فرض ديني ، وقد اخلصت شيعة الكوفة في الولاء لهم ، اما مظاهر حبهم فهي :

١ ـ الخطب الحماسية التي يمجدون فيها اهـــل البيت ، ويذكرون فضلهم ومآثرهم ، وما شاهدوه من صنوف العدل والحق في ظل حكومة الامام امير المؤمنين .

٢ ـ الدموع السخية التي يهريقونها حينما يذكرون آلام آل البيت عليهم السلام وما عانوه في عهـــد معاوية من التوهين والتنكيل ، ولكنهم لم يبذلوا أي تضحية تذكر لعقيدتهم فقـــد كان تشيعهم عاطفياً لا عقائدياً وقـــد تخلوا عن مسلم وتركوه فريسة بيد الطاغية ابن مرجانة ، ويروي البلاذري أنهم كانوا في كربلا ، وهم ينظرون الى ريحانة رسول الله (ص) وقد تناهبت جسمه الشريف السيوف والرماح فكانوا يبكون ، ويدعون الله قائلين : « اللهم انزل نصرك على ابن بنت نبيك » فانبرى إليهم أحدهم فأنكر عليهم ذلك الدعاء وقال لهم : هلا تهبون الى نصرته بدل هذا الدعاء وقـــد جردهم الامام الحسين (ع) من اطار التشيع وصاح بهم يا شيعة آل أبي سفيان »

والحق أن الشيعة بالمعنى الصحيح لم تكن الا فئة نادرة في ذلك العصر وقد التحق بعضهم بالامام الحسين واستشهدوا معه ، كما زج الكثيرون منهم في ظلمات السجون .

وعلى أي حال فلم يكن المسلمون في الكوفة على رأي واحد وانما كانت هناك انقسامات خطيرة بين صفوفهم .

النصارى :

من العناصر التي سكنت الكوفة النصارى ، فقــد أقبلوا إليها من الحيرة بعــد زوال مجدها وقد اقاموا لهم في الكوفة عدة كنائس ، فقد كانت لهم كنيسة في ظهر قبلة المسجد الأعظم (١) وكان لهم اسقفان أحدهما نسطوري ، والآخر يعقوبي (٢) وكانوا طائفتين ! !

١ – نصارى تغلب

وقد استوطنوا الكوفة عند تخطيطها مع سعد ، وكانت لهذه الطائفة عزة ومنعة (٣) وقد رفض ابناؤها دفع الجزية مما اضطر عمر أن يعاملهم معاملة المسلمين فجعل جزيتهم مثل صدقة المسلمين (٤) .

٢ – نصارى نجران

نزلوا الكوفة في خلافة عمر ، واستوطنوا في ناحية منها سميت محلة (النجرانية) (٥) .

وقــد شاركت النصارى مشاركة ايجابية في كثير من أعمال الدولة فقد اتخذ ابوموسى الأشعري أمير الكوفة كاتباً نصرانياً (٦) كما ولى الوليد ابن عقبة والي عثمان رجلا مسيحياً لادارة شؤون مسجد قريب من الكوفة (٧) .

(١) فتوح البلدان (ص ٢٨٤)
(٢) خطط الكوفة (ص ٣٥)
(٣) تأريخ الطبري
(٤) تأريخ الطبري
(٥) حياة الشعر في الكوفة (ص ١٤٤)
(٦) عيون الأخبار ١ / ٤٣
(٧) الاغاني ٤ / ١٨٤

وقــد شغل المسيحيون في الكوفة أعمال الصيرفة ، وكونوا أسواقاً لها (١) وكانت الحركة المصرفية بايديهم ، كما كانوا يقومون بعقد القروض لتسهيل التجارة ، وكانت تجارة التبادل والصيرفة بايديهم (٢) ، وقد مهروا في الصيرفة ، ونظموها على شكل يشبه البنوك في هذا العصر .

وكانت هذه البنوك الأهلية تستقرض منها الحكومة المحلية الأموال اذا حدثت ثورة في القطر ، فكانت الأموال توزع على أعضاء الثورة لاخمادها وقد استقرض منها ابن زياد الأموال فوزعها على وجوه الكوفة واشرافها للقضاء على ثورة مسلم .

وعلى أي حال فان المجتمع الكوفي كان مزيجاً بين المسلمين والمسيحيين وكانت العلاقة بينهما وثيقة للغاية .

اليهود :

واستوطن اليهود الكوفة سنة (٨٢٠ م) (٣) وقد قدم قسم كبير منهم من الحجاز بعد أن اجلاهم منه عمر بن الخطاب (٤) وقد كانت لهم محلة تعرف باسمهم في الكوفة كما بنوا فيها معابد لهم ، ويذكر الرحالة بنيامين

---

(١) تأريخ الكوفة (١٤٦) يبدأ سوق البنوك والصيرفة من مسجد سهيل الى المسجد الأعظم ، كما نصت على ذلك بعض المصادر .

(٢) خطط الكوفة (ص ١٤٦)

(٣) نزهة المشتاق في تأريخ يهود العــراق (ص ١٠٣) ليوسف رزق الله غنيمة

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص ١٠٥)

ان بالكوفة سبعة آلاف يهودي ، وفيها قبر يسكنه اليهود وحوله كنيس لهم (١) وقد زاولوا بعض الحرف التي كان العرب يأنفون منها كالصياغة وغيرها . . وكانت اليهود تحقد على الرسول (ص) كاعظم ما يكون الحقد لأنه اباد الكثيرين منهم والحق بهم العار والهزيمة ، وقد قاموا بدور فعال – فيما يقول بعض المحققين – في مجزرة كربلا تشفيا من النبي (ص) بابنائه وذريته . . . وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض الأديان السائدة في الكوفة ، وقـد اشترك معظمها في حركات الجهاد وعمليات الحروب في ذلك العصر .

تنظيم الجيش :

وانشأت الكوفة لتكون معسكراً للجيوش الاسلامية ، وقد نظم الجيش فيها على اساس قبلي كما كانوا مرتبين وفق قبائلهم ، وكانوا يقسمون في معسكراتهم باعتبار القبائل والبطون التي ينتمون إليها وقد رتبت كما يلي :

نظام الاسباع :

ووزع الجيش توزيعاً سباعياً يقوم قبل كل شيء على أساس قبلي بالرغم من أنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله الا ان الروح القبليـة كانت سائدة ولم تضعف ، وفيما يلي انظمتها :

السبع الأول : كنانة وحلفاؤها من الاحابيش وغيرهم ، وجـديلة وكانوا اعواناً طيعين للولاة القرشيين منذ امارة سعد ، وتولوا باخلاص

(١) رحلة بنيامين ترجمة عزار حداد (ص ١٤٦)

عمال بني أمية وولاتهم .

السبع الثاني : قضاعة ، وغسان ، وبجيلة ، وخثعم ، وكنــدة ، وحضرموت ، والأزد .

السبع الثالث : مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم ، وقد اتسموا بالعداء لبني أمية والمساندة الكاملة للامام علي وأبنائه .

السبع الرابع : تميم وسائر الرباب وحلفاؤهم

السبع الخامس : أسد وغطفان ومحارب وضبيعة وتغلب والنمر

السبع السادس : أياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء

السبع السابع : طي (١)

وتحتوي هذه الأسباع على قطعات قبلية من الجيش ، وقد استعمل هــذا النظام لأجل التعبئة العامة للحروب التي جرت في ذلك العصر ، وتوزيع الغنائم عليها بعد العودة من الحرب وظلت الكوفة على هذا التقسيم حتى اذا كانت سنة (٥٠ هـ) عمد زياد بن أبيه حاكم العراق فغير ذلك المنهج وجعله رباعياً ، فكان على النحو التالي :

١ - أهل المدينة ، وجعل عليهم عمرو بن حريث

٢ - تميم وهمدان ، وعليهم خالد بن عرفطة

٣ - ربيعة بكر وكندة ، وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس

٤ - مذحج وأسد (٢) وعليهم أبو بردة بن أبي موسى

وانما عمد إلى هــذا التغيير لاخضاع الكوفة لنظام حكمه ، كما ان الذين انتخبهم لرئاسة الأنظمة قد عرفوا بالولاء والاخلاص للدولة ، وقد استعان بهم ابن زياد لقمع ثورة مسلم ، كما تولى بعضهم قيادة الفرق التي

---

(١) حياة الشعر في الكوفة (ص ٢٩ - ٣٠)

(٢) خطط الكوفة (ص ١٥ - ١٦)

زجها الطاغية لحرب الامام الحسين ، فقد كان عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة من قادة ذلك الجيش .

أما رؤساء الانظمة فقد كانت الدولة لاتنتخب الا من ذوي المكانة الاجتماعية المعروفين بالنجـــدة والبسالة والتجربة في الحرب (١) ورؤساء الارباع يكونون خاضعين للسلطة الحكومية ، كما ان اتصال السلطة بالشعب يكون عن طريقهم ، ونظراً لأهميتهم البالغة في المصر فقد كتب إليهم الامام الحسين يدعوهم إلى نصرته والذب عنه (٢) .

العرافة :

وكانت الدولة تعتمد على العرفاء (٣) فكانوا يقومون بامور القبائل ويوزعون عليهم العطاء كما كانوا يقومون بتنظيم السجلات العامة التي فيها أسماء الرجال والنساء والاطفال ، وتسجيل من يولد ليفرض له العطاء من الدولة ، وحـــذف العطاء لمن يموت (٤) كما كانوا مسؤولين عن شؤون الامن والنظام ، وكانوا في أيام الحرب يندبون الناس للقتال ويحثونهم على

---

(١) الطبري ٧ / ٢٠٧

(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٢٤٥

(٣) العرفاء : ـ جمع مفرده عريف ـ وهو من يعرف أصحابه ، ومنه الحديث « فارجعوا حتى يرفع إلينـــا عرفاؤكم امركم » والعريف هو القائم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أمورهم ، ويتعرف الأمير منه أحوالهم جاء ذلك في تاج العروس ١ / ١٩٤ .

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص٥٣)

الحرب ، ويخبرون السلطـــة بأسماء الذين يتخلفون عن القتال (١) واذا قصر العرفاء أو أهملوا واجباتهم فان الحكومـــة تعاقبهم أقسى العقوبات وأشدها (٢) .

ومن أهم الأسباب في تفرق الناس عن مسلم هو قيام العرفاء في تخذيل الناس عن الثورة واشاعة الارهاب والاراجيف بين الناس (٣) كما كانوا السبب الفعال في زج الناس واخراجهم لحرب الامام الحسين .

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة ، وكان الالمام بها من ضرورات البحث وذلك لمالها من الاثر في اخفاق الثورة .

الطاغية ابن مرجانة :

ولابد لنا أن نتعرف على قائد الانقلاب الطاغية ابن مرجانة فنقف على نشأته وصفاته ومخططاته الرهيبة التي أدت إلى القضاء على الثورة ، وإلى القراء ذلك .

ولادته :

ولد الطاغية سنة « ٣٩ هـ » (٤) وقد ولد لخلق الكوارث واشاعة الخطوب في الأرض ، وعلى هذا فيكون عمره يوم قتله لريحانة رسول الله (ص) « ٢١ سنة » ولم تعين المصادر التي بأيدينا المكان الذي ولد فيه .

---

(١) الطبري ٧ / ٢٢٦ (٢) الاغاني ٢ / ١٧٩

(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤

(٤) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤

أبواه :

أما ابوه فهو زياد بن سمية ، وهو من عناصر الشر والفساد في الأرض فقد سمل عيون الناس وصلبهم على جذوع النخل ، وقتل على الظنة والتهمة وأخذ البريء بذنب السقيم ، وأغرق العراق بالحزن والثكل والحداد .

وأما أمه مرجانة فكانت مجوسية (١) وقد عرفت بالبغي ، وقد عرض بها عبيد الله التميمي أمام ابنها عبيد الله فقال : ان عمر بن الخطاب كان يقول : اللهم اني أعوذ بك من الزانيات وابناء الزانيات ، فالتاع ابن زياد ورد عليـــه : إن عمر كان يقول : لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقاً (٢) وفارق زياد مرجانة فتزوج بها شيروية (٣) .

نشأته :

نشأ الطاغية في بيت الجريمة ، وقد قطع دور طفولته في بيت زوج امه شيروية ، ولم يكن مسلماً ولما ترعرع أخذه أبوه زياد ، وقد رباه على سفك الدماء والبطش بالناس ، ورباه على الغدر والمكر ، وقد ورث جميع صفات أبيه الشريرة من الظلم والتلذذ بالاساءة الى الناس ، وقد كان لايقل قسوة عن أبيه ، وقد قال الطاغية في بعض خطبه :

« أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطأ الحصى ، ولم ينتزعني شبه

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٢

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧٢

خال ولا ابن عم » (١) لقـــد كان كأبيه في شدته وصرامته في الباطل وتنكره للحق .

صفاته :

أما صفاته النفسية فكان من ابرزها القسوة والتلذذ بسفك الدماء ، وقد أخذ امرأة من الخوارج فقطع يديها ورجليها ، وأمر بعرضها في السوق (٢) ووصفه الحسن البصري بأنه غلام سفيه سفك الدماء سفكاً شديداً (٣) ويقول فيه مسلم بن عقيل : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلهـــا على الغضب والعداوة ، وسوء الظن وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً » .

وكان متكبراً لا يسمع من أحد نصيحة ، وقد دخل عليه الصحابي عائذ بن عمرو فقال له :

« أي بني اني سمعت رسول الله (ص) يقول : ان شر الرعاء الحطمة (٤) فاياك أن تكون منهم » .

فلذعه قوله وصاح به

« اجلس انما أنت من نخالة أصحاب رسول الله (ص) . »

فأنكر عليـــه عائذ وقال : « وهل كان فيهم نخالة ؟ الما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم » (٥) .

---

(١) تأريخ الطبري

(٢) قصص العرب ١ / ٢١٤

(٣) سير اعلام النبلاء ٣ / ٣٥٧

(٤) الحطمة : القاسي الذي يظلم الناس

(٥) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٥

وعرف في أثناء ولايته على البصرة بالغش للرعية والخديعة لها ، وقد نصحه معقل بن يسار أن يترك ذلك وقال له : اني سمعت رسول الله (ص) يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعيته ويموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة (١) هذه بعض نزعاته وصفاته النفسية اما صفاته الجسمية فقد كان منها ما يلي :

اللكنة :

ونشأ الطاغية في بيت أمه مرجانة ، ولم تكن عربية فاخذ لكنتها ، ولم يكن يفهم اللغة العربية ، فقد قال لجماعة : « افتحوا سيوفكم » وهو يريد سلوا سيوفكم ، وإلى هذا يشير يزيد بن المفرغ في هجائه له :

ويوم فتحت سيفك من بعيد اضعت وكل أمرك للضياع

وجرت بينه وبين سويد مشادة فقال له عبيد الله :

« اجلس على أست الأرض »

فسخر منه سويد وقال :

« ما كنت أحسب أن للأرض استاً » (٢)

وكان لا ينطق بالحاء وقـد قال لهانيء : « اهروري سائر اليوم » يريد احروري ، وكان يقلب العين همزة كما كان يقلب القاف كافاً ، فقد قال يوماً : « من كاتلنا كاتلناه » يريد من قاتلنا قاتلناه (٣) .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٦٧

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٣

(٣) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤

نهمه في الطعام :

ويقول المؤرخون : انه كان نهماً في الطعام فكان في كل يوم يأكل خمس أكلات آخرها جنبة بغل ويوضع بين يديه بعد ما يفرغ عناق (١) أوجدي فيأتي عليه وحده (٢) وكذلك كان مسرفا في النساء فقد بنى ليلة قدومه إلى الكوفة بام نافع بنت عمارة بن عقبـــة بن أبي معيط (٣) هذه بعض صفاته الجسمية .

ولايته على البصرة :

واسند إليـــه معاوية امارة البصرة وولاه امور المسلمين ، وكان في ميعة الشباب وغروره وطيشه ، وقـــد ساس البصرة كما ساسها أبوه فكان يقتل على الظنة والتهمة ، ويأخذ البرىء بالسقيم والمقبل بالمدبر ، وقـــد وثق به معاوية وارتضى سيرته ، وكتب اليه بولايه الكوفة إلا أنه هلك قبل أن يبعث إليه بهذا العهد .

(١) العناق : الأنثى من أولاد المعز

(٢) نهاية الارب ٣ / ٣٤٣

(٣) مرآة الزمان (ص ٢٨٥)

احقاد يزيد على ابن مرجانة :

وكان يزيد ناقماً على ابن مرجانة ، كأشد ما يكون الانتقام لأمور كان من أهمها أن أباه زياداً كان من المنكرين على معاوية ولايته ليزيد ، لاستهتاره ، واقباله على اللهو والمجون ، وقد أراد يزيد أن يعزل عبيد الله من البصرة ، ويجرده من جميع الامتيازات الا انه لما اعلن الامام الحسين عليه السلام الثورة وبعث سفيره مسلماً لأخذ البيعة من أهل الكوفة أشار عليه سرجون بأن يقره على ولاية البصرة ويضم إليه الكوفة ، ويندبه للقضاء على الثورة فاستجاب له يزيد ، وقد خلص العراق بأسره لحكم ابن زياد فقبض عليه بيد من حديد ، واندفع كالمسعور للقضاء على الثورة ليحرز بذلك ثقة يزيد به ، وينال اخلاص البيت الأموي له .

مخططات الانقلاب :

وبالرغم من حداثة سن ابن زياد فانه كان من أمهر السياسيين في الانقلابات ، واكثرهم تغلباً على الأحداث وقد استطاع بغدره ومكره أن يسيطر على حامية الكوفة ، ويقضي على جذور الثورة ويخمد نارها ، وقد كانت أهم مخططاته ما يلي :

١ - التجسس على مسلم والوقوف على جميع شؤون الثورة .

٢ - نشر أوبئة الخوف ، وقد أثار جواً من الفزع والارهاب لم تشهد له الكوفة نظيراً ، وانشغل الناس بنفوسهم عن التدخل في أي شأن من الشؤون السياسية .

٣ - بذل المال للوجوه والأشراف ، وقد صاروا عملاء عنده يوجههم

حيثما شاء ، وقد أفسدوا عشائرهم والحقوا الهزيمة بجيش مسلم .

٤ ـ الاحتيال على هانىء بالقاء القبض عليه ، وهو أمنع شخصية في المصر ، وقد قضى بذلك على أهم العناصر الفعالة في الثورة .

هذه بعض المخططات الرهيبة التي استطاع أن يسيطر بها الطاغيـة على الموقف ، ويقضي على الثورة ويزج حامية الكوفة الى حرب ريحانة رسول الله (ص) :

مسلم بن عقيل :

أما مسلم بن عقيل فكان من أعلام التقوى في الاسلام ، وكان متحرجا في دينه كأشد ما يكون التحرج فلم يسلك أي منعطف في طريقه ، ولا يقر أي وسيلة من وسائل المكر والخداع ، وان توقف عليها النصر السياسي شأنه في ذلك شأن عمه أمير المؤمنين (ع) بالاضافة الى ذلك انه لم يبعث الى الكوفة كوال مطلق حتى يتصرف حسبما يراه ، وانما كانت مهمته محدودة وهي أخـذ البيعة للامام ، والاستطلاع على حقيقة الكوفيين فان رآهم مجتمعين بعث الى الامام الحسين بالقدوم اليهم ، ولم يؤمر بغير ذلك ، وقد أطلنا الحديث في هذه الجهة في البحوث السابقة .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن اخفاق ثورة مسلم التي كانت فاتحـة الفاجعة كربلا ، ومصدراً لآلامها العميقة كما ينتهي بنا الحديث عن الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

مُحتویاتِ الکتاب



محتويات الكتاب

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة
قيادة عائشة للجيش		٤٦
عقر الجمل		٤٧
العفو العام		٤٨
معارك الحرب		٥٠
القاسطون		٥١
ايفاد جرير ، معاوية مع ابن العاص		٥٣
رد جرير		٥٦
قميص عثمان		٥٦
زحف معاوية لصفين ، زحف الامام للحرب		٥٧
احتلال الفرات		٥٨
رسل السلام		٥٩
الحرب		٦٠
منع المسلمين الحرب		٦١
مصرع عمار		٦٢
مكيدة ابن العاص		٦٥
التحكيم		٧٠
وثيقة التحكيم		٧١
رجوع الامام للكوفة		٧٢
مع المارقين		٧٣
اجتماع الحكمين		٧٥
تمرد المارقين		٨١
قتال المارقين		٨٣

الموضوع	محتويات الحكومة	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة
موقف النعمان بن بشير		٣٤٩
خطبة النعمان		٣٥٠
سخط الحزب الأموي ، اتصال الحزب الأموي بدمشق		٣٥١
فزع يزيد		٣٥٢
استشارته لسرجون		٣٥٣
ولاية ابن زياد على الكوفة		٣٥٤
خطبة ابن زياد في البصرة		٣٥٥
سفر الطاغية إلى الكوفة		٣٥٦
في قصر الامارة		٣٥٧
خطابه في الكوفة		٣٥٩
نشر الارهاب		٣٦٠
تحول مسلم الى دار هانيء		٣٦١
امتناع مسلم من اغتيال ابن زياد		٣٦٢
أضواء على الموقف		٣٦٥
المخططات الرهيبة		٣٦٨
(١) التجسس على مسلم		٣٦٨
(٢) رشوة الزعماء والوجوه		٣٧٠
الاحجام عن كبس دار هانيء		٣٧١
رسل الغدر		٣٧١
اعتقال هانيء		٣٧٢
انتفاضة مذحج		٣٧٦
ثورة مسلم		٣٨٠

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة

الموضوع	محتويات الكتاب	الصفحة







